الأسرار الإلهية

والفيوضات الربانية

من فكر السيد عبد الأعلى

السبزواري

إبراهيم سرور

دار المتقين



الأسرار الإلهية
والفيوضات الربانية

بحوث عرفانية ـ أخلاقية ـ عقائدية

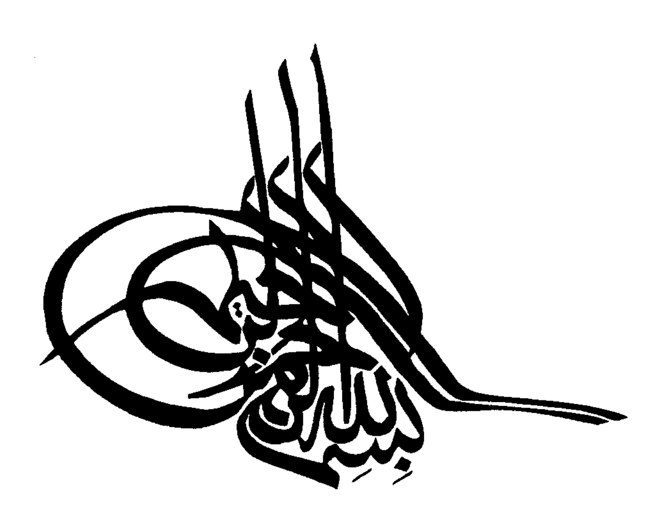
الأسرار الإلهية والفيوضات الربانية

بحوث عرفانية - أخلاقية - عقائدية

من مواهب السيد عبد الأعلى السبزواري

إعـداد

السيد إبراهيم سرور



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والحمد حقه كما يستحقه حمداً كثيراً، وأعوذ به من شرِّ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، وأعوذ به من شر الشيطان الذي يزيدني ذنباً إلى ذنبي، وأحترز به من كل سلطان جائر وعدو قاهر، وأصلي وأسلم على غياث الأمة وشفيعها يوم المحشر المبعوث رحمة للعالمين أبي القاسم أبي الزهراء محمد بن عبد الله وعلى آله الطاهرين لا سيما بقية الله في الأرضين الحجة المهدي المنتظر، مكّن له الله في الأرض خير تمكين ودفع عنه كل المحن والابتلاءات بمحمد وآله الطاهرين وبعد:

هناك الكثير من المسائل التي تطرّق إليها السيد المقدس السبزواري والبحوث المتنوعة التي دأب على الاستلهام منها كل رائد لمطالب الحق والحقيقة، ولا سيما تلك التي تربي النفوس وتنوّر العقول وتثقّف الإنسان لتصيّره بعد ذلك إنساناً ملكوتياً عالماً بتلك القضايا التي تخفى على الكثيرين ممّن لم يخوضوا هذا الغمار والمعترك

اللامتناهي، ونحن التائقون إلى الإفاضة والإزدياد منها ما دمنا على وجه البسيطة لا نزال نواجه كل العوائق التي تحول دون بلوغ تلك المقاصد العليا التي لا تنال إلا بالصبر والثبات، وذلك لأن الصبر يحتاج إلى صبر وهذا هو طريق العلم الإلهي الذي لا بد لنا من السير الحثيث والجاد للوصول إلى بعض نفحاته «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها ولا تعرضوا عنها»، ولقد جاء هذا الكتاب لتغذية هذا الجانب من حياة الإنسان ولكي ينمّي له المدارك العلمية والعملية على حد سواء.

ونحن انطلاقاً من هذا المبدأ عملنا جاهدين وبما رزقنا الله تعالى على نشر أهم تلك المطالب والبحوث التي تنمّي الفكر والروح ، نعم إن هذه الواردات القلبية التي صحبت السيد المقدس تعطينا الكثير الكثير من الأسرار والفيوضات الغيبية التي لا نتوقعها لكن علينا أن نكون من أهل ذلك السلوك الذي يربطنا بشكل أو بآخر بعالم الحقيقة، هذا وأسأل الله تبارك وتعالى أن يشملنا بالنسمات التي تهب بين الفينة والأخرى حتى نكون من أهل المعرفة في الدنيا والآخرة وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله الطيبين الطاهرين.

إبراهيم سرور

١٥/ ٣/ ٢٠١٠م

بعض المقامات لأصحاب السير والسلوك

يمكن أن تتضمّن الآيات الشريفة[١] إشارات لأصحاب السير وأرباب السلوك، لأنّهم حرّموا على أنفسهم الدنيا وزخارفها، بل الموقنين منهم العاشقين إلى اللقاء والمشتاقين للحق حرّموا على أنفسهم نعيم الآخرة أيضاً، كما عن علي أمير المؤمنين (عليه أفضل الصلاة والسلام) في كثير من دعواته الشريفة وكلماته الحكيمة، وعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «الدنيا حرام على أهل الآخرة والآخرة حرام على أهل الدنيا، وهما حرامان على أهل الله تبارك وتعالى»، فسألوا بلسان الحال أو الاستعداد من الطيب الطيّبات، وفي الحديث: «إن الله طيّب لا يقبل إلاّ الطيّب». فأوحى إلى حبيبه ونبيّه: قل للسالكين والمشتاقين والمؤمنين من عبادي الطالبين للحق ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ من طرق الوصول إلى ساحة كبريائه، مطيّباً بجذبات الحق ونفحات الشهود، لا

---

(١) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾.

من كلّ مأكول ـ ومشروب أو ملبوس أو مقول أو معقول ـ فإنّها لا تليق بمقامهم وإن كانت لوجه الله تعالى، إذ لو لم تكن كذلك فقد لوّثت وخبثت، ومع ذلك أنّ المشتاقين للحقيقة والموقنين باللقاء والعارفين بالحقّ لا يهتمّون بالمظاهر، بل هي محرّمة عليهم، لأنّها من شؤون الدنيا التي لا تحلّ لهم إلاّ بمقدار الاضطرار، كما تقدّم عن الصادق عليه السلام، فلا حظّ لهم فيها وإنّما حظوظهم في الكمالات التي أهمّها أخلاق الله تعالى المنزّهة عن النقائص والشبهات، فإنّ أهل العرفان والسير والسلوك لا يتفكّرون إلاّ في عظمة الذات، ولا يسيرون إلاّ في ميادين الأنوار، فالدلائل عندهم مدلولات، والغيب شهادات، فأعيانهم في هذه الدنيا مشهودة وأرواحهم عنها مخلوعة، وهي تسير في أفلاك العظمة (بل تصاحب بعضها الأرواح القدسيّة والملائكة البررة)، وهي تيقّنت بعد المشاهدة بتوحيد الذات والفعل، وتهلّلت عن إخلاص بعدما ظهرت الحقيقة، وسبّحت بعدما رأت العجائب في الخلق وفي النفس، وحمدت بعدما أفاض الله تعالى عليها من النِّعَم، فهم للحقّ واجدون وللخلق مشاهدون، فبارك الله تعالى في عُمرهم، وتجلّى على قلوبهم، لأنّهم ساروا على نهج محمد صلى الله عليه وآله واقتدوا بخلفائه المعصومين عليهم السلام، ونبذوا الدنيا لأهلها، وتوكّلوا على خالقهم في الأشياء كلّها، وفي الآنات جميعها، وتواضعوا للعلم والحقيقة، فاكتسبوا أيضاً من الخلائق التي خضعت لخالقها وأشرقت بكلمة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أسمى صفاتها، وأعرضوا عن ذمامها وعلّموا غيرهم بمختلف درجاتهم وطبقاتهم، وتحمّلوا عناء التعلّم من الذين لم ينالوا

شرف العزّ والعرفان إلاّ لأجل سعادتهم، تقرّباً لوجهه الكريم وبثّاً لما أنعم من الفضائل عليهم بإذن منه جلّ شأنه، ولذا عطف عزّ وجلّ على الطيّبات ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾، أي: كاسبة لها لياقة الكسب والخروج عن ظلمات الجهل، ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ مسلطين على مخالفة الهوى، مشدّدين على هداية الناس ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ترشدون الفئة الضالّة إلى طرق التوحيد، وتأدبونهن بآداب الشريعة التي فيها السعادة وارتياح النفس ممّا ألهمكم الله تعالى، لأنّ العلم إمّا إلهام رباني أو مكتسب عقلائي، فهما منحة منه جلّ شأنه ﴿فكلوا مما مسكن عليكم﴾ بالتوجه واستيعاب الضمير بأخذ العبرة والدلالة في عجائب خليقته، وبما منح الله من الألطاف المنتشرة على ما سواه، ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ فتوجهوا إليه لأنّه أخرجكم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ورزقكم من أنواع الطيّبات، وباسمه أشرقت الكائنات وتجلّت، فلا اسم أشرف وأعزّ وأكرم من اسمه، فهو السموّ الواقعي المنحصر به، وهو اللائق بالذكر على جميع الأشياء دون غيره، وبه تنكشف المهمات، وتقضي الحاجات، وبه يدخل المؤمن الجنّة، وبنسيانه يدخل المنافق النار، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع الشؤون وتمام الحالات، لأنّها السبيل الوحيد لنيل السعادة وكسب الفضائل، وبها يبتعد الشيطان ويرغم أنفه، وهي البذرة للوصول إلى المعالي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ في أقرب ما يمكن من الزمان والمكان، لإحاطته التامّة على كلّ ما جلّ ودق، فيحاسبكم على نواياكم، فكيف أعمالكم وأفعالكم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ تقييد إحلال الطيّبات - بعد ذكرها مطلقاً، وبمعناها الوسيع كما مرّ - باليوم

لأجل بيان أمر واقعي وحقيقة منوطة به، وهي أنّ حليّة الطيّبات موقوفة على الولاية، ولولاها لما طابت وإن كانت طيّبة من كسب اليد، والوجه الحلال إلاّ أنّها بحسب الظاهر لأجل حفظ النظام لا للكمّل من الإيمان، فالمراد من اليوم الزمان الخاصّ الذي تجلّى فيه سبحانه وتعالى بإكمال دينه وتنفيذ ولايته على لسان حبيبه ﷺ، و﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ من الأخلاق الجميلة والصفات الحميدة، والأفعال الحسنة، والعلوم النبيلة والسبل المستقيمة، فإنّ جميعها حلّ للمؤمن الملتزم بما أنزله الله تعالى، لأنّه مثال للطيّبات لما اقتبسه من الأنبياء والأولياء عليهم السلام، ولذا قال تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ بتنوير قلوبكم بنور العلم والمعرفة بالعروج من حضيض البهيمة إلى أوج العظمة من الكمال، بالاقتداء بالأنبياء والأولياء، ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ لأن المعارف الإلهيّة النازلة على قلب أشرف من في الورى لا اختصاص لها بأحد، فللجميع الفوز من هذا المنبع، والنيل من هذا المشرب بعد عناء كسب الأهليّة. نعم للنبي الكريم ﷺ الاختصاص بالمقام المحمود وبالمشرب المحبوب: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني لا يشاركه فيه ملك مقرّب ولا نبي مرسل»، فعلّهم يهتدون إلى الحقّ ويميزون الخبيث من الطيب بطعامكم وعلومكم، ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: اللاتي أحصنّ أنفسهن عمّا لا ينبغي، وإنّها الخواص من هذه الأمة، وهي طائفة أدركت حقائق الدين، وكشفت أسرار القرآن المبين، ووصلت إلى قمّة الإيمان وأعلى مراتب اليقين، حلّ لكم أن

تقتبسوا منهن وتركنوا إليهن، سواء كانوا من المؤمنين أم المؤمنات لما حصنت نفوسهم بإطاعة الله تعالى ومخالفة الشيطان، ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهي الحقائق في الكتب المنزّلة على السالفة التي أحصنت من كلّ سوء، فإنّها كلّها لكم، بها تبلغون الكمال المنشود، ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ببذل الوجود بعد مخالفة الهوى، فإنّها مهور هذه الأبكار والحقائق ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ بتصرّف الهوى والتعدّي بالانحراف عن الشرع، ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ بأن لا يلتفت إلى غير الله تعالى ولا يتّخذ الدنيا مأرباً ومن فيها صاحباً، بل يكون هو جلّ شأنه الصاحب، والناصر، والمعين، والحافظ ولا غيره ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ لأنّه انحرف عن الصراط المستقيم، وبعد عن الحقّ القويم، ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لأنّه غبن نفسه بالميل عن الطيبات إلى الخبائث والنزول إلى الهاوية بمتابعة الهوى والشيطان الذي هو على جانب النقيض من المؤمنين المخلصين، والعرفاء الموقنين، والسالكين إلى الله تعالى الذين ليس في قلوبهم سواه عزّ وجلّ ولم تتّجه نفوسهم لغيره جلّ شأنه، وتفانوا في الله جلّت عظمته، فأفاض سبحانه وتعالى عليهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما في القدسيات.

وإن لم أر لهذه البحوث العرفانيّة إقبالاً عمليّاً إلاّ من أخصّ الخواص، لأنّ غيرهم توجّهوا للمظاهر وتركوا الحقائق، وأخذوا بالقشور ورفضوا اللباب، فإليه جلّت عظمته المشتكى من مكائد الشيطان، وقال شاعرهم:

تَركتُ هَوىٰ سُعدىٰ وليلىٰ بمعزلِ وصـرتُ إلى عـليـاء أول مـنـزل
فنـادَتْـنيَ الأكـوان من كـلّ جانـبِ ألا أيّـها الـساعـي رُوَيْـدك فـامـهـلِ
غَزلتُ لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد لغزلي نسّاجاً فكسّرت مِغزلي[1]

(١) مواهب الرحمن، ج١٠، ص٣٩٢ ـ ٣٩٥.

بعض مقامات أهل السير والسلوك

ظاهر الآية المباركة[١] وإن كان خطاباً للمؤمنين بإبلاغهم تكاليف توجب رقيّ نفوسهم وتنوير قلوبهم، ولكن يحتمل أن يكون باطنها عتاباً لأهل السير والسلوك الذين يطلبون الحقّ ويسعون للوصول إلى الحقيقة بهجر الدنيا لنيل رضاه تعالى، فناداهم ربّهم جلّ شأنه بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ أي: الدنيا بأسرها، ففي كثير من الروايات التعبير عن الدنيا بالميتة، فعن جعفر بن محمد الصادق عليه أفضل الصلاة والسلام: «والله لقد نزلت الدنيا منزلة الميتة متى اضطررت إليها أكلت»، فحرّمت الدنيا على الطالبين للحقّ والسالكين إلى ساحة قربه، ﴿وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ كذلك حرّمت عليهم الصفات التي توجب البُعد عن الأخلاق السامية كالحرص والقسوة، بل حرّمت عليهم جميع ألوان الدنيا ومتغيّراتها حتّى الحلال منها فكيف بالحرام. ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ

---

(١) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

بِهِۦ﴾ وأيضاً حرّمت عليهم كل فعل رفع صوت النفس بالأمر به، لأنّ صوتها لغير الله تعالى، ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ وكذلك حرّم عليهم اختناق فطرته الداعية إلى الله العظيم بمخالب الأطماع، أو خنق نفوسهم بإخراج أنوارها الكائنة فيها بالرياء والإسماع، أو بضرب جرح الصدر المنشرح بالإسلام والمهيّأ للحضور عند صاحب القلب وخالقه العلاّم، ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ فحرّم عليهم أن يردوا أنفسهم من أعلى العليين إلى أسفل السافلين باتّباع الشهوات والتعلّق بالماديات، ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ أي: حرّم عليهم التناطح مع الأقران بالتفاخر والمماراة بالعلم والزهد ـ حتّى في السير والسلوك ـ بين الأخوان، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ فحرّم عليهم القرب عن كلّ ظالم الذين يتهاوشون على جيفة الدنيا تهاوش الكلاب، ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ كما حرّم عليهم تقرب نفوسهم لبيوت الأوثان، وهي المظاهر الموجبة للصدّ عن معرفة الله تعالى بالتوغّل فيما يوجب البعد عن ساحة قربه بمعاشرة غير الأولياء الأخيار والأبرار، ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ فلا تكونوا متردّدين متفئلين غير متوكّلين على الله تعالى بفتح قلوبكم لسهام الشيطان.

فإذا خلصتم من هذه الدواهي، وتركتم هذه القبائح، وخرجتم من هذه الظلمات لكون ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي: أنّ جميعها مهالك وظلمات توجب إماتة القلب، وإخماد الفطرة، والعذاب الأليم، لأنّه يوجب الخروج عن طاعة الله تعالى فـ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لتحلية نفوسكم بالفيوضات الإلهيّة بعد التخلية عن المكائد الشيطانيّة، ويأسهم عن

إضلالكم لعدم تأثير الدنيا في نفوسكم مهما تزيّنت وتلوّنت، لحصول المقصود بعدما خلصتم أنفسكم من تلك الظلمات، فعادت ليلكم نهاراً ونهاركم أنواراً ﴿مِن دِينِكُمْ﴾ لأنّه المنهج الوحيد للرقي إلى المراتب العالية، والوصول إلى المقامات السامية والفوز بالسعادة الأبديّة، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ لأنّكم بلغتم المرحلة التي لا تؤثّر فيكم مكائد الشيطان ومصائده، ونلتم المقام الذي قاله رسول الله ﷺ لبلال: «ما فعلت يا بلال سمعت دقّة نعليك قبل دخولي الجنّة»، ﴿وَٱخْشَوْنِۚ﴾ لأن الكمال والتكامل منه تعالى وأنّ كيده متين وبطشه شديد، ولولا إمداده لانعدمت الكائنات وزالت السماوات وفنيت الموجودات، ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ وهو يوم ظهور الحقّ وكشف الحقيقة، ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فإنّ كمال الدين كان في الأزل موجوداً ولكن أنعمت عليكم بالتوفيق لاستعدادكم بالتديّن به، وبه تنكشف الحجب وترتفع الأستار بعد صفاء نفوسكم وحياة قلوبكم، ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ التي أنعمت بها عليكم من التوفيقات والتأييدات وإظهار دينكم على الأديان كلها في الظاهر والحقيقة بالولاية، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ حتّى تستكملوا به نفوسكم وتسلكوا به إلى الله تعالى بالخروج عن الوجود المجازي بالوصول إلى الوجود الحقيقي، فإنّ ابتغاء رضاءه من أسمى الكمالات، وإنّ الإسلام هو دينه إلى الأبد. ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ بالالتفات إلى الدنيا مضطراً إليها في غاية الاضطرار، ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ﴾ غير مائل إليها قلباً وغير متجاوز عن قدر الضرورة مع حفظ الحقّ والحقيقة الّتي نزلت في

قلبكم، والمعرفة الّتي أفاضها الله تعالى عليكم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما ابتلى من الالتفات إلى غيره تعالى المضطر إليه، ﴿رَّحِيمٌ﴾ يهديهم إلى الحقّ بإقامة الدين والسير في الصراط المستقيم بعد الاستغفار وطلب الاستعانة من العزيز القهّار، ومن الله الاعتصام[١].

(١) مواهب الرحمن، ج١٠، ص٣٤٩ ـ ٣٥١.

بعض الرموز والإشارات للسالكين

الآيات الشريفة[١] تتضمن إشارات ورموزاً للسالكين يعرفونها بقوة حدسهم وصائب فكرهم والنور الذي أودعه الله تعالى في قلوبهم ومنها يستفيدون كيفية المخاطبة مع خالقهم العزيز ويتعلمون أدب المحاورة معه عز وجل فإن له أثراً كبيراً وعظيماً بل هو الشرط في دخولهم في هذا الحريم وهو المحاورة مع الله تعالى والأنس به عز وجل بل في الأدب معه تتجلى حقيقة العبد، والأدب المبحوث عنه في كتب الأخلاق وما ورد فيه في كتب الدعاء إنما هو هيئة حسنة، والصفة الخاصة التي يتلبس بها الداعي أو الشخص لملاقات شخص عظيم بلا فرق بين أن تكون في المنظر أو اللباس أو الأفعال والأقوال فتختص بما إذا كان الفعل محبوباً في حد نفسه فلا تشمل الممنوعات شرعاً وتشمل جميع الأفعال الاختيارية الحسنة وهذا مما اتفق عليه العقلاء وإن

---

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)﴾.

اختلفت المجتمعات في مصاديقها فالأدب محبوب بذاته تدعو إليه الفطرة ويتعاملها العقلاء ويستحسنونه مطلقاً واختلافهم في المصاديق والإفراد لا يضر بأصل حسنه بحيث يكون أدب كل مجتمع حاكياً عما عليه من العادات والتقاليد والأخلاق. إلا أن في الإسلام آداباً خاصة تنبىء عن حقائق متأصلة وهي عامة تشمل جميع مظاهر الحياة وتدل على كمال الإسلام ورقيه عن جميع ما يكون مبتذلاً، ولما كانت دعوة الإسلام إلى التوحيد وتطبيقه في الاعتقاد والعمل به في جميع وجوه الحياة الدنيوية فكان الأدب في الإسلام موظفاً في هذا السبيل بحيث يرجع العبد في تطبيقه للأدب إلى جعل نفسه عبداً خاضعاً لله تعالى تظهر سمات العبودية على جميع جهات وجوده وأطواره ظاهراً وباطناً فكل من اشتد تأدبه مع الله تعالى كانت سمات العبودية عليه أظهر ولا ريب أن الأنبياء والأولياء والصالحين من عباده لهم الحظ الأوفر وهم الأساس المتين في العبودية فيكون أدبهم مع الله تعالى أشد وأظهر وأعمق ولذا صاروا مربين ومعلمين لأممهم بهم يقتدي في عنوان العبودية ومظاهرها ويتعلم منهم سمات الأدب لأنهم علموا وعملوا بما علموه فصاروا مظاهر قدوة لغيرهم وتأثرت نفوسهم القدسية فصاروا مظاهر العبودية لخالقهم وتهذبت بالتعاليم الربانية واشتغلوا بالطاعة لبارئهم فتأثرت النفوس المستعدة بهم فكانوا مربين حقيقيين وانقادت النفوس إليهم ومن المستحيل أن ينقاد شخص لآخر في العظة والنصيحة، والواعظ لم يعمل بما يعظ به غيره وهذا أمر فطري مركوز في النفوس لقد أرشد إلى هذه الفطرة قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ

أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ (يونس: ٣٥).

وقد أكد الإسلام على العمل ولم يكتف بالقوانين العامة والكليات العقلية ما لم تنطبق على المجالات العملية ولذا كان المربي في الإسلام قدوة حسنة في العلم والعمل وفيه شروط معينة لا يمكن أن يكون مربياً ما لم يكن متصفاً بما يصفه للمتعلم ومتلبساً بما يريد أن يخلعه على غيره.

ويمكن تقسيم الأدب إلى أقسام متعددة كالأدب العملي المنطبق على العمل والأدب القولي الذي يتحقق في القول الذي يحكي طبيعة نفس المتكلم ويدور فيها من كفر أو نفاق أو إيمان فإن في الكلام الصادر من كل متكلم جهتين متميزتين الدلالة الوضعية التي تلازم جهة الصلاح غالباً، والدلالات الالتزامية التي تدل على ما يكمن في النفس من الصفات ولا يمكن أن يعرفها إلا من كان على بصيرة من الأمر، وقد قال تعالى في وصف المنافقين ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ (محمد: ٣٠)، وإذ تتبعنا كلامه عز وجل في ما يحكى عن حالات الأنبياء والرسل عليهم السلام يتضح ما يتجلى فيها من غاية الأدب الإلهي في جميع حالاتهم مع الله تعالى أو مع الخلق وهي شواهد صدق على حسن تأدبهم وإن بنفسها تعليماً عملياً لغيرهم ممن يريد الأسوة الحسنة وقد قال تعالى في حق أنبيائه الكرام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ (الأنعام: ٩٠)، ولا ريب أن الهداية المأمور بالاقتداء إنما هي

الهداية إلى التوحيد ونبذ الشرك وقد ذكرنا أنه لا بد من أن تظهر في الأعمال والأقوال والاعتقاد وتكون حاكية عن الاعتقاد الخالص الذي يتجسم في العمل فكان كل واحد منهما حاكياً ومرآة للتوحيد التام.

ومن هنا ترى أنهم في أدبهم العام في حياتهم العملية أنهم على خضوع وخشوع لله عز وجل فتراهم سجداً وبكيّاً ولا شبهه إنهما من أقوى مظاهر التوحيد واستيلاء صفة العبودية على جميع مشاعرهم ونفوسهم القدسية فلا يفترق عندهم الحال بين الخلوة مع الله العزيز المتعال أو مع خلقه، فهم في جميع الأحوال على أدب إلهي مع الله ومع الناس جميعاً وجميع أطوارهم على نهج واحد، وهذا الأدب إن كان انفرادياً لكل رسول ونبي ولكنهم لم يخرجوا عن المجتمع فهم من أفراده ولهم أدب خاص وهم المسمى بالأدب الاجتماعي وقد جمعهما الله تعالى في آيات متعددة في القرآن الكريم. قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ (المؤمنون: ٥١، ٥٢). فقد أمرهم عز وجل بالأكل من الطيبات والتصرف فيها والتنزه عن الخبائث التي تتنفر منها الطباع وإتيان العمل الصالح الذي يجعل الإنسان من الصالحين وما ينبغي أن يكون صالحاً لأن يقدمه إلى رب العزة والجلال، وهذا الأدب مما يتعلق بالأفراد منهم (صلوات الله عليهم أجمعين).

وأما الأدب الذي يتعلق بالناس بينهم بأن يكونوا أمة واحدة لا

اختلاف فيها بلا فرق بين الرسول والمرسل إليهم وأن يجتمعوا على عبادة الرب ويتفقوا على كلمة التقوى وبذلك ينقطع دابر الفرقة والاختلاف بينهم فيتحقق مجتمع توحيدي لا اختلاف بين أفراده الذين اتفقوا على عبادة الله الواحد الأحد وقد سرى الأدب الإلهي بين الأفراد في جميع أحوالهم وأطوارهم فلا تتعدى السعادة عنهم حينئذ أبداً. والآيات في ذلك كثيرة.

وأما أدب الدعاء الذي امتاز الأنبياء والمرسلون به فقد بلغ أعلى مراتبه وأقصى درجات العبودية والخلوص والإخلاص فيه، وقد حكى عز وجل جملة منها في كتابه الكريم ولا نريد أن ندخل في تفاصيل أدب كل رسول كما حكاه عز وجل في كتابه الكريم وما ورد في السنة الشريفة، إلا أننا نذكر ما يتعلق بعيسى ابن مريم عليه السلام وحالاته مع الرب العظيم وقد تجلى فيه الأدب الإلهي على مظاهر وجوده الشريف، وندع غيره في المواضع المناسبة إن شاء الله تعالى.

فالآيات الكريمة التي وردت في هذه السورة المباركة قد بينت كثيراً من الوجوه من حياته الشريفة والانقطاعية مع الله عز وجل وما تضمنته أفعاله وأقواله من الأدب الجليل العميق الظاهر عليه سمات العبودية المحضة الدالة على غاية الخضوع والخشوع إلى الله المتعال وحسن تأدبه معه وقد تقدم في قصة المائدة إذ قال عز وجل حكاية عنه ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

فإنه عليه السلام استعمل في كلامه ما يدل على غاية خضوعه وخشوعه لخالقه العظيم بعد مواجهته لسؤال الحواريين عنه في نزول المائدة وما تضمن سؤالهم من الجفاء بظاهره وما لا يوافق الأدب العبودي وإن كان أصل قصدهم معروفاً عنده، مضافاً إلى أن طلبهم كان اقتراحاً منهم لآية جديدة مع آياته الكثيرة الباهرة الواضحة التي استوعبت أغلب مجالات حياتهم المادية وأحاطت بهم من كل جهة وقد عددها عز وجل قبل قصة المائدة تسجيلاً عليهم لإتمام الحجة عليهم ورفع كل ريب وشك فكان اختيارهم لآية جديدة يعود نفعها لأنفسهم يشبه اللعب بالآيات وهم منزهون عنه كما قال عليه السلام عند الاستخبار عن نواياهم ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فأظهروا منوياتهم فاستجاب لطلبهم ودعا الله تعالى بدعاء ذي أدب رفيع وأدرج فيه اقتراحهم بما يناسب مقام العظمة والكبرياء ونحن نذكر السمات المشتركة في أدب الأنبياء أولاً ثم نذكر الأدب الخاص به (عليه الصلاة والسلام) من جميع الآيات الواردة في شأنه.

الأول: إظهار العبودية المحضة الشاملة لجميع مظاهر وجودهم المبارك قال تعالى حكاية عنه ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾. ومن لوازم مثل هذه العبودية السمع والطاعة فقالوا (سمعنا وأطعنا) لا كغيرهم إذ قالوا (سمعنا وعصينا).

الثاني: إبطال شأنهم مقابل معدن الكبرياء والعظمة فقال ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ فقد عرفت أنه لم يجعل لنفسه مرتبه حتى

ينفي القول عن نفسه بل نفاه بنفي لازمه وهذا من الأدب العبودي المتصف به هو وسائر الأنبياء العظام، ومن لوازم هذا النوع أن الأنبياء كلهم لم يتمنوا على الله بإيمانهم وطاعتهم شيئاً بل كانت طاعتهم عبادتهم عبادة الأحرار كما وصفها أمير المؤمنين عليه السلام بأنه «وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك» وفي الآيات الكريمة ما فيه الإشارة إلى ذلك فقال حكاية عنهم (غفرانك ربنا) بخلاف غيرهم فإن عبادتهم تختلف وقد حكى عز وجل عن اليهود حيث قالوا ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

الثالث: تنزيه ساحة الكبرياء والعظمة عن كل ما يتوهم النقص فيه كما قال عيسى عليه السلام ﴿سبحانك ربنا﴾.

الرابع: اشتمال كلامهم على منتهى الثناء والابتهال بأبلغ بيان وأحسن وجه كما عرفت في آخر آيات هذه السورة وغيرها، وقال تعالى حكاية عن داود وسليمان عليهما السلام ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴿١٥﴾﴾ (النمل: ١٥).

الخامس: تصدير دعواتهم المباركة بكلمة الرب كما قال عيسى عليه السلام: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً﴾ الدال على حضوره عز وجل ومراعاة خلقه وتربيتهم لهم كما في دعوات إبراهيم المباركة ﴿ربي إني أسكنت﴾ وكذا غيره من الأنبياء والمرسلين.

السادس: إن جميع أحوالهم وألفاظهم تشتمل على ما يوافق أدب الحضور فكأن كل واحد منهم حاضر لدى جنابه عز وجل كما ذكرنا في قوله: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

السابع: اشتمال دعواته المباركة على ما يرجع إلى الصالح العام، قال عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ وقد عرفت أنه كان هذا الدعاء منه بأسلوب إيكال الأمر إليه عز وجل حتى لا يدخل في ضمن الدعاء للكافرين المرغوب عنه واستعمل من الأسماء العظام بما يناسب المقام وهم قد ألهموا علم الأسماء فيعلمون كيف يستعملون أسمائه المقدسة التي لها آثار خاصة، وقد قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ربي ارزق أهله من الثمرات﴾ وقال أيضاً: ﴿ربي اغفر لي ولوالدي ولجميع المؤمنين﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وفي دعوات نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله ما يبهر العقول.

الثامن: أنهم إذا أرادوا حاجة لأنفسهم أشركوا معهم غيرهم ليعم النفع وقد عرفت دعاء إبراهيم ﴿ربي اغفر لي ولوالدي ولجميع المؤمنين﴾ وفي دعاء عيسى عليه السلام ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

التاسع: أنهم إذا أرادوا من الله شيئاً بما يرجع على أممهم عند المخالفة والإمساك عن طاعتهم فلم يبق بعد الجهد الأكيد في التبليغ أن يرجعوا إلى الله تعالى بعد إتمام الحجة عليهم ونفاذ كل الوسائل في هدايتهم لم يستعملوا الألفاظ الصريحة بل هم يكنون في دعواتهم فقد حكى عز وجل عن موسى بن عمران عندما أمر قومه بالدخول إلى القرية ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ فقال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ فقد كنى عن الإمساك عن أمرهم وتبليغهم ما

أمره ربهم مرة أخرى بعد تلك المواجهة العنيفة منهم، ومن ذلك أيضاً دعاء شعيب على قومه إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ (الأعراف: ٨٩)، فإنه استنجاز منه للوعد الإلهي بعد اليأس من نجاح دعوته فيهم نعم ورد في قصة نوح عليه السلام التصريح بطلب العذاب لكنه بين السبب في ذلك، فكان من أدب دعائهم بالشر أن تذكر الأمور التي يبعث إلى الدعاء بالناية بخلاف الدعاء بالخير فإن التصريح بالأسباب أدعى في المطلوب كما في دعاء موسى عليه السلام حيث قال تعالى حكاية عنه ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ عند دعائه على فرعون ولم يأت بتفاصيل أخرى بخلاف الدعاء في طلب الخير فقد حكى عز وجل دعاء عيسى في نزول المائدة التي ذكر فيها التفاصيل فراجع.

العاشر: أنهم كانوا يراعون منتهى الأدب مع قومهم وهو يرجع إلى التبليغ العملي الذي يضاهي التبليغ القولي، وفي القرآن الكريم الشيء الكثير.

قال تعالى حكاية عن نوح في المحاورة التي جرت بينه وبين قومه ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (هود: ٣٢ ـ ٣٤)، فهي محاورة عجيبة تعج بالأدب الجميل والثناء والتبليغ مع الله تعالى والأدب اللطيف الذي يقبله مع طغاة قومه، ولذا كان نوح عليه السلام أول الأنبياء الذي فتح باب

الاحتجاج في الدعوة إلى التوحيد ويعثر المتمعّن في محاوراتهم على لطائف دقيقة.

ومن فروع هذا الأدب الرفيع أنهم لم يستعملوا في كلماتهم وأقوالهم ما يسوء المخاطبين وإن كانوا من العتاة والجهلة والجبابرة ولم يخاطبوهم بكلمات نابية تدل على الإهانة والازدراء والشتم، وقد نال منهم المخالفون بشتى أنواع السب والشتم والاستهزاء والسخرية ولكنهم لم يجابهوهم إلا بالتي هي أحسن، قال تعالى حكاية عن عاد قوم هود ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ (هود: ٥٤، ٥٥). وقال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨) وقال تعالى حكاية عن قوم خاتم الأنبياء ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ (الفرقان: ٨، ٩)، وغير ذلك من الآيات التي تحكي عن الأمم في محاوراتهم ومحاججتهم مع أنبيائهم المشتملة على أنواع الإهانة والشتم. وكان من أدبهم أنهم ينزلون أنفسهم منزلة آحاد الناس يكلمون كل طبقة منهم على قدر معرفة ومنزلته من الفهم وقد قال ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» ومن أدبهم أنهم كانوا يتحملون أنواع الأذى في سبيل هداية الخلق

وإرشادهم إلى الحق فليس لهم هم إلا التبليغ والإرشاد فهم تلبسوا بالحق وتنزهوا عن الباطل بكل أنحائه ولأجل ذلك إنهم كانوا متصفين بصراحة القول وصدق اللهجة وإن كان في بعض الموارد لا يقتضي ذلك كما هو الحال في المجتمعات غير الدينية التي تتبع سنة المداهنة والتساهل والأدب الكاذب ولهذا الأدب الاجتماعي وجوه مختلفة تجلت في معاشرتهم مع الناس بجميع طبقاتهم الفقير والغني والحاكم والمحكوم والعبد والمولى، والرجل والمرأة والصغير والكبير فقد كانوا مثالاً للحق بكل معنى الكلمة هذا بالنسبة إلى أدب الأنبياء الذين تأدبوا بالأدب الإلهي بجميع أنحائه وأطواره.

وأما عيسى عليه السلام فهو لم يخرج عن تلك الصفات المشتركة بينه وبين سائر الأنبياء والمرسلين فقد كان في غاية الأدب ومنتهى الحسن في الصفات والتأدب مع الله تعالى إلا أنه اختص بالأدب الخاص لنفي ما ادعاه قومه فيه من الألوهية فاشتملت كلماته المباركة على التنزه والعبودية وإسناد أموره إلى الله تعالى وإلقاء شأنه أبداً مع خالقه العظيم[1].

---

(١) مواهب الرحمن، ج١٢، ص٦٨٤.

لطائف عرفانية

يمكن أن تكون الآيات الشريفة[١] إشارة إلى معاني عرفانية، تتشوّق النفوس إليها وتنشط الأرواح بها وتزيل التعب عنها وتتوجّه إلى خالقها وتستعين منه، ولعلّ الآية المباركة: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ إشارة إلى عهود العشّاق المنقطعين عن ما سواه، والعاكفين على أبواب فيضه ورحمته، فعقدوا معه جلّ شأنه على بذل وجودهم لنيل مقصودهم - وهو رضاه - وتحمّلوا ألم الفراق وعذابه لأجل لقاء جماله، وصبروا على المكاره حتّى يتقرّبوا إليه بالشوق إلى دنوّه، فأنت الذي وهبت لهم من فيضك قدر ما يستحقّون، وأنعمت عليهم من آلائك قدر ما يتأهّلون باختيارهم، وجعلت في قلوبهم شوق لقائك، فهم منك، وإليك، ولك، ومعك تعاهدوا وتعاقدوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة، الآية: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة، الآية: ٢٠٧].

---

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾.

أو إشارة إلى أنّ ما تفضّل به على الإنسان ووهب له أعضاء يستخدمها في حياته، فكلّ عضو ـ نعمة وهبة ـ له عقد معه جلّ شأنه بأن لا يصرفه في معاصيه ونواهيه، فلا بدّ من الوفاء بهذه العقود التي عقدت معه تعالى، ويدلّ عليها روايات كثيرة ذكرها علماء الأخلاق في كتبهم.

أو إشارة إلى ما بذلوا من الجهد في هداية خلقك، ومهّدوا السبيل لهم للفوز إلى القرب من حضرة جمالك، وتعاقدوا ببذل أغلى وأعلى ما عندهم بقبولك بالدخول مع عبادك.

أو إشارة إلى إماتة الإنسيّة للنيل إلى المقامات العالية والعقد على مخالفة الهوى وطرد الشيطان، لتلقّي أنوارك.

وكيف ما كان، فمن أوفى بعهوده ودام على عقوده وصبر على بلائه ونجح في امتحانه، فقد فاز بمقصوده وتلقته السعادة، وتمثلته الإنسانيّة، ودخل الجنّة بعدما أزلفت له.

ولعلّ المراد من قوله جلّ شأنه: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أحلّ ذبح بهيمة النفس التي هي كالأنعام بل أضلّ سبيلاً، وقتل الأهواء الشريرة حتى تنكشف الحقائق وتزيل الأوهام، فعن علي عليه السلام: «المؤمن ينظر بنور الله»، لأنّه من الله تعالى وإلى الله تعالى، وهو في نور الله ويرى بنور الله، إن عرف الله وأزال الحجب بينه وبين الله تعالى، وهذه الأنوار غير محدودة، كما تقدّم في أحد مباحثنا السابقة، ولكن الاستعداد واللياقة بل الأهليّة لها دخل فيها.

ولعلّ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ يشير إلى الخلّص من عباده، وهم النفوس المطمئنة الثابتة التي فازت بالقرب إلى ساحة جماله، وتشرّفت بالخطاب الأبدي الربوبي، فسمعت بأذن نقية داعية قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾، لأنّها أُحرمت بالتنفّر عن الدنيا وما فيها وتوجّهت إلى كعبة الوصال بتلبية الشوق، وتمسّكت بعرى العشق لحضرة الجمال، وآنست مع الطائفين حول بيت الحقيقة والأمان، وأوت إلى الركن خوفاً من الأغيار، وتجرّدت عن ما سواه، وانفردت عن كلّ محبوب ومطلوب بالتوجّه إلى المقام، ولذلك كلّه يرى في كلّ شيء جماله جلّت عظمته كما عن سيد العرفاء وإمام الموحّدين عليه السلام.

ولا شكّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ﴾ بترقي النفوس اللائقة وبذبح النفس إن اتّصفت بصفات البهيمة، ورعت في مراتع الحيوانات السفليّة، ورفثت كما ترفث الحيوانات البريّة، وتشبّهت بالحيوانات السبعيّة حتى تنال طعمة من المآكل الدنيّة.

﴿مَا يُرِيدُ﴾ كما يشاء ويريد، فإنّه رؤوف كريم يحبّ أن يرى آثار نعمه على عباده، وفي الحديث: «إن الله جميل ويحب الجمال»، الأعمّ من الظاهري والمعنوي، ولا يحبّ القيود والسلاسل «ويبغض العبد القاذورة». أي: الصفات الذميمة المتوطنة في النفس أو الأوساخ الظاهرة على الجسد.

ولعلّ المراد من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ

ٱللَّهِ﴾ لا تقطعوا السبل عمّن أراد وجهه تعالى، لأنّ الجهة عظيم لا السالك شريف ـ إلاّ إذا كان مؤمناً ـ فإن القلوب تتسارع إلى الفضائل إن انكشفت لها الحقائق وتؤمن بالله العظيم وملائكته ورسله، لأنّ العبرة بالخاتمة، فلا تتهاونوا بحُرمات الله تعالى بصدّ السير للسالك إلى المنازل والصعود من المواقف الدنيّة إلى التجرّد للقائه تعالى.

كما أنّ بعض النفوس المؤمنة تشرّفت بالقرب لساحته جلّ شأنه وفازت بنيل رضاه بالإفاضة عليها، كذلك بعض الأمكنة أشرق عليه نور ربّه جلّ شأنه فتشرّف وسمى على غيره، وكذا بعض الأزمنة فضّل على غيره لتجلّيه تعالى فيه، وهو تعالى فضل الأشهر والأيام والأوقات والأمكنة بعضها على بعض، كما فضّل الرسل والأمم بعضها على بعض، لتتسارع النفوس المستعدّة لشوق اللقاء بعد تطهيرها عن الرذائل والأغيار، ثمّ التحلية بصفات الأخيار، فقال تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، أي: لا تستحلّوا المآثم فيه وقدّموا التخلية بإزالة الصفات الذميمة حتى تنالوا شرف التحلية فيه، فإن للزمان والمكان والصاحب والأستاذ الدخل الكبير في تأثير النفس للإيصال إلى المقصود بها، وفي تحلية النفوس فيها.

ولا تمنعوا قوماً أرادوا التشرّف إلى كعبة الآمال وساقوا الهدي للقربان لأجل التوصّل لما يوجب الغفران من الآثام، حيث قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، أي: لا تحلّوا الهدي الذي يريد صاحبه التقرب به، ولا القلائد التي أسعرت بالشدّ لفكّ الشدّة.

ولعلّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ أنّ كل مخلوق من حيث إضافته إلى خالقه جلّ شأنه حسن، مع قطع النظر عن كونه سعيداً أو شقياً، لأنّه تعالى خلقه بيديه ومن روحه وهو على صورته كما في بعض الأخبار، وإن لم يرضى المولى بكفره ـ فإحسانه لخلقه لا لكفره ـ وإذا قصد بيت الأمن والأمان وأراد التوجّه إليه بالمقام، فلا تصدّوه عنه علّه يتحلّى بمكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال ويتشرّف بهدي الإسلام، لأنّهم كسائر العباد ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ من التجارة في العاجلة أو الرضوان في الآخرة حسب زعمهم، والله يهدي لرضوانه من يشاء حسب لياقته وشأنه، فلا يجوز تحقيرهم بمنعهم عن الوصول إلى حرم الأمان، إلا إذا خبثت ضمائرهم، فخرجت عن قابلية الصلاح والإصلاح، فحينئذ لا يؤم البيت الحرام.

ويحتمل أن يكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ الوصول إلى مرحلة التطهير بتمييز الحقّ عن الباطل بالعيان، لأنّه إذا حلّيت النفوس بعد التخلية وقربت إلى ساحة جماله بأداء شعائره، ورقّت الأرواح حتّى وصلت إلى شهود أنواره، وخلت للأجسام النظر إلى صفاته والأخذ من رياض بهجته وبهائه، واستعدّت القلوب بعد ترويض النفوس وتزكيتها للمقام الرفيع، فحينئذٍ نالت مرحلة: «كلي واشربي وقرّي عيناً»، فأحاط التعظيم بها من كلّ جانب وشاهدت ما شاهدت وميّزت الخبيث من الطيب، وذاقت النفس طعم الحبّ وألم الفراق، وقال بعض العرفاء:

لا محبّة إلاّ بأصولِ ولا وصول إلاّ غالي

ولا شـــراب إلاّ مـــخــتـــوم ولا مـــقـــام إلاّ عـــالـــي

ولعلّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ أن لا يصدّكم عن السير نحو الكمال بالوصول إلى مقام التسليم والرضا بعد الخلع بالبعد عن مساوىء نفوسكم التي هي الأغيار في جنوبكم، أو لا تمنعكم الصفات الذميمة في غيركم ـ الذين هم في زيّ الصادقين وعملهم عمل المعرضين ـ عن إصلاح سرائركم وتنوير قلوبكم والنيل بالأحبّة والفوز بمقام الخلّة بالتحلّي بصفات الغرّة، وقال شاعرهم:

أمّا الخيام فإنّها كخيامهم وأرىٰ نساء الحي غير نسائها

لا والذي حجّت قريشٌ بيتَهُ مستقبلين الركن من بطحائها

ما أبصرت عيني خيام قبيلة إلاّ بكيت أحبّتي بفنائها

قال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٨]، فإذا سأل الصادقين عن صدقهم أيترك المدّعين من غير سؤال؟! فإنّ البعد عن الحقّ والحقيقة، والنيل من العزّ بذلّ العبوديّة بالأهواء ظلم واعتداء، لأن الادّعاء أعمّ من الواقع والحقيقة، فلا تحملنّكم الصفات الذميمة على الاعتداء بالهبوط عن رفيع المقام وأسمى المنزلة أشرف الملكات الّتي هيّأها الله تعالى لكم.

وإنّ المراد من قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أن كلّ ما يشغل القلب عن ما سواه ويمنع عن الوصول إلى الحقّ والحقيقة، فدفعه إعانة على البرّ، ولا يمكن دفع ذلك إلاّ بواسطة الشرع المبين. وأنّ تمكين حبّ الدنيا في النفس، وتكدير

الروح بعد صفائها، وتسويد القلوب بعد جلائها هي من الإعانة على الإثم، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في جميع الحالات، وفي كلّ الأمور وعند كلّ مقام، ومنزلة فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فاتّقوه حتى تنجوا من عقابه الشديد وعذابه المديد، فمن عقابه عدم الوصول إلى تلك المنازل، ومن عذابه عدم نيل رضاه، وعدم الظفر بالحقّ والحقيقة. والله العاصم من الزلل والخطأ[١].

(١) مواهب الرحمن، ج١٠، ٢٨٧.

طريق الكمال الإنساني

الإنسان المتخلق بأخلاق الله تعالى يكون مظهراً من صفات لطف الحقّ، ولذا يكون قبوله قبول الحقّ، وردّه ردّ الحقّ، ولعنه لعن الحقّ، ويكون دعاؤه دعاء الحقّ وكذا صلاته، فإذا صلّوا على أحد كان صلاتهم صلاة الحقّ، قال تعالى مخاطباً لنبيّه عليه السلام: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٦٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٤٣].

وهذا الكمال لا يتحقّق في الإنسان المؤمن إلاّ بالمعرفة الكاملة والإفاقة عن الغفلة، وفي الآيات المباركة المتقدّمة تلميح إلى ما يصل به المؤمن بالرقي في تلك المراتب، حتّى يصل إلى مقام القرب لديه جلّت عظمته، فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إيماناً حقيقياً، فيكون الخطاب مع الذين قالوا: «بلى» عندما تجلى بقوله جلّ شأنه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ في يوم الميثاق، فعاينوا ثمّ: ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٧٢]، وهم الأولياء، أي: أهل الصف الأوّل ـ كما هو المصطلح عند العرفاء ـ.

وأهل الصف الثاني آمنوا إذ شاهدوا، فمرتبتهم وإن كانت راقية ولكنها دون مرتبة الصف الأوّل، كما هو واضح وهم الخواص.

وأهل الصف الثالث آمنوا بعدما سمعوا الخطاب سماع فهم ورواية، وهم المرتبة النازلة عن المرتبتين، وهم المسلمون وعوام المؤمنين.

وأهل الصف الرابع آمنوا تقليداً لا تحقيقاً، لأنّهم ما عاينوا، ولا شاهدوا، ولا سمعوا، فكانوا بعيدين عن الخطاب الحقّ فلم يسمعوه، وإنّما انتظروا ولم يؤمنوا حتّى سمعوا جواب أهل الصفوف، وكان سماعهم سماع قهر ونكاية، وهم المنافقون المذنبون.

وأهل الصف الخامس وهم اعترفوا ثمّ أنكروا، لقربهم إلى الشيطان وبعدهم عن الرحمن، وهم الكافرون.

وأهل الصفوف آمنوا في ذلك العالم ـ بالعيان أو المشاهدة، أو السماع، أو التقليد ـ كذلك آمنوا في هذا العالم حسب ذلك الإيمان، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾.

ولعلّ المراد من قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ﴾ من نوم الغفلة، وخرجتم من ظلمات الجهالة، وانتبهتم من رقدة الفرقة ومن عتاب الأحبّة، ﴿إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي بها تصفي النفوس من لوث الأشباح، وهي المعراج للرجوع إلى مقام القرب، وإنّها أرق وأصفى من المناجاة مع الربّ:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سرّ أرقّ من النسيم إذا سرى

وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إنّ العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة يصلّون بصلاته»، فإذا تمّت التصفية، واستخفّت الروح ورفع الحجاب، فحينئذٍ ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾، وقبل ذلك كلّه ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾، التي توجهتم بها إلى الأغيار ودنوتم بها إلى الشيطان، بماء التوبة والاستغفار، ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، فاغسلوا أيديكم عن الدنيا كلّها حتّى عن الصديق الموافق والرفيق المرافق، وفي الأثر: «إنّ المؤمن إذا توضأ للصلاة تباعدت عنه الشياطين خوفاً منه». وتوجّهوا إلى بارئكم، وخالقكم، ورازقكم، ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ ببذل نفوسكم وفنائها حتى تشرق عليها شوارق الأنوار، ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ اغسلوا أرجلكم عن تراب الأنانيّة وطين الشهوة إلى أن يحصل لكم شرف حضور القلب بكعب مقام الخلّة، ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾ بالالتفات والتوجّه إلى الحجب الماديّة بالسير في الملذّات النفسانيّة، ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ النفوس عن المعاصي، والقلوب عن رؤية الأغيار، ببذل العبودية لله تعالى ومخالفة الهوى، ففي الأثر: «إن سلمان الفارسي سافر في زيارة بعض الأصحاب من العراق إلى الشام راجلاً وعليه كساء غليظ غير مضموم، فقيل له: أشهرت نفسك؟ فقال: الخير خير الآخرة، وإنّما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد، فإذا أعتقت لبست حلّة لا تبلى حواشيها»، فلا بدّ بطهارة الأرواح عن الاسترواح من غيره، وإن كنتم مرضى بمرض حب الدنيا وطلب الجاه، والنيل إلى المقام في متابعة الهوى والسير في زوايا

الأوهام بالاستيناس مع الأغيار، ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ في قضاء حاجة مادية وشهوة شيطانيّة، ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ بتحصيل لذّة من اللذّات بالبيع من الأشباح أو شراء ما يوجب الاستيناس بغيره جلّ وعلا، ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ للطهارة عن الأدناس بالبعد عن الحقائق، ولم يهدكم أحد إلى التوبة والاستغفار من ضعف نفوسكم، ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ بالتمعّك في تراب أقدام الأنبياء، فإنّه طهور للذنوب العظام وسبيل للدخول في نعم الرحمن، فإنّ الجنّة تجرّ أهلها، قال ﷺ: «عجب ربّك من قوم يساقون إلى الجنّة بالسلاسل»، فلا تيئسوا من رحمته وفيوضاته، ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فإنّ إخلاصهم لله تبارك وتعالى يوجب خلاصكم ونجواهم معه جلّ شأنه سبب لنجاتكم، وفي الأثر: «من صلّى خلف مغفور، غفر الله له»، فطهّروا نفوسكم بالاقتداء بهم، ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ﴾ من غبار نعالهم وشمّروا لخدمتهم، ففي الحديث قال ﷺ لبلال: «ما صنعت يا بلال؟! سمعت دقّة نعليك قبل دخولي الجنّة، فقال: ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهّر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلاّ صلّيت بذلك الطهور»، فسيروا على نهجهم وتمسّكوا بهم، ﴿وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ أي: اعتصموا بقوّة لهم، لأنهم حبل الله الأعظم، بهم ينوّر الله تعالى قلوب العباد، وبهم يخرجون الناس من الظلمات وترفع الحجب المهلكات، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾، لأنه تعالى يحبّ خلقه فلا يريد لهم الذلّة بالضيق في الحجاب، ﴿وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أي: ينقيكم من الشرك بالرقي إلى المقام الرفيع، بالنيل إلى الإخلاص والفوز بالجزاء، قال تعالى: ﴿فَلَا

تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾، والوصول إلى ساحة القرب بالوصال: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ بكسر أنوار الهواية والاستقرار في الجنّة العالية، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ بعد هدايتكم للنعم الإلهية والأنوار الربانيّة والهبات السماويّة، فاذكروا تلك النعم واشكروه حتى يزيدكم من فضله، ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، فلا تنسوا آلائه تعالى عليكم، وما منّ عليكم بختم النبوّة في أشرف الكائنات وفخر الموجودات، وبالولاية لسيّد الأوصياء الذي اصطفاه لحبّه واجتباه لحضرته، ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ في ظهر آدم وعالم الميثاق، أو الميثاق الذي أخذه نبيّنا الأعظم ﷺ حين بايعه المسلمون، فعن أبي ذر رضوان الله تعالى عليه قال: «بايعني رسول الله ﷺ خمساً وأوثقني سبعاً وأشهد الله عليّ سبعاً أن لا أخاف في الله لومة لائم»، فهو (رضوان الله عليه) رفض الدنيا وهاجر إلى ربّه بعدما مدّ يد البيعة مع رسول الله ﷺ ودافع عن الحقّ والولاية بوحده، حتّى عاش وحده زاهداً ومات وحده شهيداً، وهاجر إلى ربّه مظلوماً، فسلام الله تعالى عليه حين أسلم وحين قام وقعد وحين رجع إلى ربه مطمئناً وفاز بما وعد الله تعالى له على لسان النبي الأمين ﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾، لأنه أخرجكم من ظلمة العدم إلى نور الوجود، فسمعتم قول ربّكم حيث قال تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾، وأطعتم حيث قلتم «بلى» حسب اختلاف تأهّلكم، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في نقض ميثاقه ونسيان نعم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، لأنه يعلم الأسرار والخفايا وما يكن في الصدور، فأوفوا بعهوده ولا تنقضوها، واتّقوه في جذب الأخلاق المرضية، وابتغاء

الوسيلة إليه بفناء الناسوتيّة في بقاء اللاهوتيّة وتخلّص العبد من ظلمة الأوصاف الناشئة من الزلات النفسانيّة، بالجهاد في سبيل الله تعالى لاضمحلال الأنانيّة.

اللهم اجعلنا ممّن سبقت له العناية، وأفضتَ عليه توفيق العبادة، وتفضّلتَ عليه بالرقيّ إلى المقامات العالية، إنك سميع مجيب[١].

(١) م.ن، ج١١، ص٥٣ ـ ٥٧.

قابلية الإنسان واستعداده

خلق الله تعالى الإنسان كالمرآة للحقائق الواقعية والمعارف المعنوية، بل هو كالمرآة لصفات جلاله وجماله.

الحقّ في كثرة الأعيان إذ ظهرا ووجهه الأحديّ الذات ما كثرا
لكن ما شاهد الأعيان شاء يرى وجه الحقيقة في مرآة إنسان

هذا إذا كان الإنسان منقطعاً إلى الله تعالى ومنقاداً له من كلّ جهة، وأما غيره فلا يليق به هذا المقام، بل قد يكون كالأنعام.

فإذا كان للإنسان الاستعداد لأن يحكي حقائق الممكنات مما مضى وما هو موجود وما هو آت، فيجب أن يعتني بنفسه ويرعاها نهاية الرعاية ولا يسقطها عن الاعتبار، وإلا تلحقها المهانة والصغار، لأنّها السبب الموصل إلى كلّ مطلوب، والرابط بين أهل الأرض والغيب المحجوب، فأيّ مكرمة لله على خلقه أعظم من هذه المكرمة، وأي موهبة له تعالى في عوالمه أفضل من هذه الموهبة، ومن فعل ما يوجب درن هذه المرآة فقد جنى على نفسه وأضاع ما أُعدَّ له من النعم الباقيات، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ٧٠].

الحجب الظلمانية
التي تمنع النفس من الاستكمال

الحجب التي تحيط بالإنسان كثيرة فإذا تراكمت بسبب الغفلة عن إزالتها تصير ظلمات بعضها فوق بعض، تشتمل على جملة من عيوب النفس وبعض الرذائل التي تمنع النفوس من الدرج في الكمال، بل إن بعضاً منها من المهلكات التي توقع النفس في الهاوية فتخرجه عن طور الإنسانية إلى أسوأ دركات البهيمية وتجعلها في مصاف الحيوانات الرديئة كالقردة والخنازير، وقد نُهِيَ المؤمنون عن اتخاذهم أولياء لأن النفس تتأثر بأفعالهم وتنكدر بأقوالهم ويسلب منها التوفيق برؤيتهم:

فللنفس من جلاسها كل نسبة ومن خلة للقلب تلك الطبائع

ويكفي أن النظر إلى تارك الصلاة يسلب التوفيق فكيف باتخاذهم أولياء فذلك الهلاك للنفس، ومن أهم المهلكات الاستهزاء بدين الله عز وجل واتخاذه لعباً فإنه يوجب شقاء القلب وينبىء عن سفالة النفس ودخولها في سلك البهائم التي لا شأن لها إلا اللعب ولذا مسخوا بالقردة التي لها المناسبة مع تلك المعصية الدنيئة فقد جبلت نفوسهم على حجب العقل وحرمان النفس من التمتع بأنواره والاستفادة من

إرشاداته فكان الخطاب الربوبي لهم بأنهم قوم لا يعقلون لأنهم استهزءوا ولعبوا ووصلوا إلى حد الهزء بأهم شعيرة فطرية وأعظم رابط بين المخلوق وخالقه وهي الصلاة التي اجتمع فيها التقرب والخضوع والخشوع لدى الرب العظيم وأن بها يستنزل الرحمة والنور الذي إذا قذف في القلب انخرق كل حجاب بينه وبين خالقها، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ (إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح) انظر إلى هؤلاء الكفار كيف استهزءوا بأحكام الله فحجبوا عن النور الإلهي ووقعوا في ظلام النفس الأمارة وتاهوا فيها وكان السبب في ذلك سلبهم العقل وانزواء الفكر فيهم فصاروا قردة وخنازير يرتعون في زخارف هذه الدنيا فأحبوها وانخرطوا في حب النفس فلا يشعرون ما يحصل بأنفسهم فاتصفوا بأسوأ الصفات فكانوا أهل حرص وشهوة وقلت غيرتهم على الحق وانقادوا إلى كل باطل وخضعوا إلى كل ما سوى الله فأوجب طغيانهم فحجبوا بأنفسهم عن الحق فأنكروا أهله الذين غلب عليهم شهود الحق وكوشفوا بسر الوحدانية واستغرقوا في الحقائق العيانية وانقطعوا عن الشعور بأنفسهم وغابوا عن سواه بالكلية، ومن المهلكات أيضاً المسارعة في الآثام والأقدام على جميع الرذائل لاعتياد أنفسهم عليها وتدربهم فيها فصارت ملكات في نفوسهم واستوعبت مظاهر وجودهم فكانوا في رذائل وصفات في جميع قواهم النطقة والغضبية والشهوية فأكلوا السحت وتعاطوا العدوان ونطقوا بالزور والبهتان وكانوا أهل الفسوق والعصيان فأبعدهم الله من رحمته وانقطع الأمل في تهذيبهم فمتى كانوا أهل خلة ووصال:

فلا ترض بغير الله حباً وكن أبداً بعشق واشتياق
ترى الأمر المغيب ذا عيان وتحظى بالوصال وبالتلاق

وإنما ذكر عز وجل تلك الرذائل والصفات السيئة ليجتنب المؤمن منها ويبتعد عن من اتصف بها فإنها حجب وحرمان ولا يمكن للنفس التحلية بالمكارم إلا بالتخلية من تلك الرذائل.

ثم كان الأدهى والأعظم مداراة المذنبين وترك التعرض لهم مع العلم بما يفعلونه من القبائح والآثام فإن في ذلك مفسدة للدين والدنيا وهدم الآخرة والأولى فإن ترك المذنب على ذنبه إماتة للنفس التي لها نحو تعلق بالبارىء وإفشاء الذنب في المجتمع إماتة له فلا يرتقي في الكمال وأما العالم الذي ترك التعرض للمذنبين وأهمل إرشاد الخاسرين فقد تحمل هو قسطاً من الإثم وانتهج سبيل الغواية والضلال وكان ضالاً ومضلاً فصار صنيعه الإفساد فهو أعظم الخاسرين وأشد المتحسرين يوم الحسرة فقد كفر بما أنعم الله عليه من نعمة العلم ولم يؤد ما عليه من الوظيفة فتحمل إثم المرتكبين وانتشر الفساد والخسران بسببه فيا له من الخسارة العظمى ولذا ورد أنه يُغْفَرُ للجاهل سبعون ذنب قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد[١].

---

(١) مواهب الرحمن، ج١٢، ص١٢٢.

مقام الولاية وعظيم أثرها في التشريع والتكوين

مقام الولاية من أجل المقامات وأعظمها فهي قطب رحى التكوين والتشريع وهي الحبل الممدود بين الله تعالى وجميع مخلوقاته والعروة الوثقى التي من اعتصم بها نجا من مهالك النفس وتمكن من تكميلها وهي التي لا ينالها إلا ذو حظ عظيم ولأجل أهميتها لم يذكرها عز وجل في هذه الآية الشريفة إلا بعد تقديم أمور وتمهيد مقدمات لها مدخلية في تحقق هذا المقام فإنه أولاً نهى عن اتخاذ الكافرين الذين يصدون عن دين الله أولياء وشدد الأمر فيه واعتبر أن من يتخذهم أولياء يكون من الكافرين الظالمين ثم بين أن من يخالف أحكام الله ومنها تشريع الولاية يكون من المرتدين الراجعين عن دينه ثم ذكر أن هؤلاء المرتدين لم يكونوا موضع أمانته ومؤهلين لحفظ دين الله وأحكام طاعته في الأرض فسوف يأتي الله بقوم متصفين بأوصاف حقيقية كمالية تنبىء عن صفاء باطنهم وشدة انقطاعهم إلى الله وأنهم في جهاد مرير مستمر في سبيل الله فهم الذين اختارهم لأن يكونوا أولياؤه ثم بعد ذلك بين أن أمر الولاية من صميم التشريع وعلته المبقية ويجب إبلاغها إلى الناس وإلا فلا يكون تبليغ للرسالة ثم بعد التبليغ يبين عز وجل أنه بها أكمل

الدين وأتم النعمة التي أرادها للناس. فكان التبليغ في مراحل لتثبيت هذا الأمر العظيم ولعله لأجل ذلك طلبوا من الرسول الكريم ﷺ تفسير الولاية وبيان خصوصياتها كما تقدم في الحديث.

وفي الولاية تظهر حقيقة الدين ويتبين واقع الطاعة ويتجلى العرفان والانقطاع إلى الواحد الأحد وعندها تنتهي مقام الاصطفاء والخلة وجميع المقامات فهي العلة الفاعلة والعلة الغائية وقلما تجتمع في أمر العلتان وبالجملة هي آخر قوس الصعود (لا فرق بينك وبينهم إلا أنهم عبادك وخلقك فتقها ورتقها بيدك بدؤها منك وعودها إليك) وهي سر الله في العالمين فوق ما يتعلقه الممكن في حدوده الإمكانية ولذا لم يبين سبحانه وتعالى من حدود هذه الجوهرة الفريدة والسر المستتر إلا ما يتقبله أفهام المستعدين وهي الانقطاع إليه عز وجل وكمال الخضوع له تعالى لفناء ذواتهم المقدسة والتجرد عن العلائق وتزكية النفوس وترقيتها من حال إلى حال أفضل مع مالهم من الكمال فهم في حال الركوع والخضوع دائماً ولعل إعطاء الزكاة في حال الركوع للإشارة إلى استمرار اتصالهم بهذه الدار لأنهم سبل الهداية وأبواب الله في أرضه وإلا فلمحض فناؤهم خرجوا عن طور البشرية وهي والنبوة من منبع واحد، ولذا قال سيد الأنبياء ﷺ (خلقت أنا وعلي من نور واحد). وقد ظهر هذا النور في مر الدهور وكان له تجليات حتى تجلى في مظهر سيد الأنبياء فكانت النبوة وفي مظهر سيد الأوصياء فكانت الإمامة فهي امتداد للنبوة ولكنهما حقيقة من الحقائق الإلهية لا يمكن دركها إلا بفيض رباني إلا أن يكون المانع التحديدات الإمكانية فالعاجز عن

الوصول يتشبث بالقشور ويترك النور ويوسم نفسه بالقصور إلا من أدركته بارقة إلهية ومنحة ربانية فانكشف له الظلام واستعد للدخول في الحمى فعرف حق الولاية واعترف بالإمامة وجعل لنفسه إماماً يقتدي به لينجيه من المهالك ويرتقي في سلم الكمال هذه هي الإمامة فلا يمكن إنكارها إلا ممن ينكرها بإنكار الجحود ويوصد على نفسه أبواب الصعود ويفتح أبواب الهبوط أعاذنا الله منها[١].

(١) ن.م، ج١٢، ص٩١.

الهجــرة

الهجرة وهي الانتقال والرحيل سواء كان من الوطن إلى غيره أو من حال إلى غيرها. وإنّها من أكمل الصفات الحسنة وأجلّها إن كانت ناشئة من الحبّ الحقيقي الواقعي لله سبحانه وتعالى والانقطاع إليه جلّ شأنه، وبها يحصل الودّ والحبّ له عزّ وجلّ، ومنه تعالى لعبده.

بل أنّ الهجرة من الفناء في ذاته جلّت عظمته، لأنّ بها يخرج الإنسان عن ذلّ ما توطّن فيه من الصفات الذميمة ويبعد عن المعاصي - التي تحصل عن الأهواء الشيطانيّة - كالكبر والحسد والبطر والجهل وغيرها.

وبالهجرة يفوز الإنسان وينال الكمالات بأنواعها وأقسامها الظاهريّة والمعنوية، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «مَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وبالهجرة يرتقي الإنسان عن حدود البشريّة في طلب حضرت الربوبيّة إلى منتهى السعادة بصفاء القلب وتزكيته والعروج إليه جلّت عظمته، لأنّ البقاء والسكون فيها الذين لا يرضاهما تعالى من آثار الحجب والبُعد عن ذاته المقدّسة والقرب من الشيطان.

وبها يستغني المهاجر عن ما سواه تعالى، ويذوق لذّة العبوديّة لله جلّ شأنه، وينال شرفها بالخضوع الحقيقي له عزّ وجلّ. فالهجرة الواقعيّة من أسمى الصفات الكريمة وأجلّ الكمالات الواقعيّة وأرفع المنازل العظيمة، وأشرف الحقائق بل هي غاية السير والسلوك إليه عزّ وجلّ، لأنّها مبايعة الله تعالى مع عبده بالهجرة إليه عزّ وجلّ.

أقسام الهجرة:

للهجرة أقسام مختلفة تنشأ من علو الهمّة التي هي تختلف باختلاف الأشخاص ومراتب الإيمان ومنازل الأوطان:

الأوّل: الهجرة من الوطن إلى غيره لنيل الدنيا، فإنّ هجرته إلى ما هاجر إليه، كما تقدّم عن نبيّنا الأعظم ﷺ ولا شرف فيها، بل في التعبير بها تسامح، والآيات الشريفة والسنّة المباركة بمعزل عنها.

الثاني: الهجرة بترك الأوطان والبُعد عن الإخوان لنيل الكمال المنشود في رضائه تعالى بصحبة عالم عامل أو حكيم عارف أو معلّم مشفق. ولها مرتبة من الشرف، وقد يحصل بها الرقي إلى المنازل الرفيعة والدرجات الساميّة، وتسمّى بهجرة الأخيار.

الثالث: الهجرة من وطن الملك بالسعي في ترك جميع الحظوظ النفسانيّة للوصول إلى عالم الملكوت. أو من وطن المعصية إلى شرف الطاعة والسكون فيه بمعرفة الحقّ وتجليه له، وهي من أكملها وأعلاها وتسمّى بهجرة الخواص، وبها يبلغ المقصود ويخضع له ما في عالم المشهود لخضوعه الواقعي له عزّ وجلّ، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «مَن

انقطع إلى الله كفاه كلّ مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب»، وقد تقدّم في التفسير مكرّراً أنّ الرزق أعمّ من الإفاضات الظاهريّة والمعنويّة.

الرابع: الهجرة من وطن الغفلة إلى شرف اليقظة، أي: من وطن الحسّ إلى وطن المعنى بمكاشفة الأفعال ومشاهدة الصفات في ترك إقبال الخلق والعزل عن طلب الكرامة فيهم، ولا ينال هذا القسم إلاّ من امتحن الله قلبه بالإيمان.

وبهذه الهجرة ينال العبد أسمى صفات العبوديّة وأجلّها، وهي كما عن الصادق عليه السلام: «العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة»، وبها يستغنى عن ما سواه تعالى ولا يعظم غيره عزّ وجلّ، فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «مَن كانت الآخرة نيّته جمع الله عليه أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا، وهي صاغرة»، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾، وتسمّى هذه الهجرة بهجرة الأبرار.

الخامس: الهجرة من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح، أي من الأكوان إلى المكوّن، وهي تختصّ بأخص الخواص، وتسمى بهجرة المقرّبين ومن أجلّها الإسراء والمعراج: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة النجم، الآية: ٤٢].

والجامع بين الأقسام الرحيل من علم اليقين إلى عين اليقين، ومنه إلى حقّ اليقين، أو من الشهود إلى المعرفة ومنها إلى المعاينة. فمن هاجر من هذه المواطن قاصداً بهجرته الوصول إلى حضرة المحبوب بنيل رضاه، فقد بلغ أقصى مراتب السعادة وأشرف منازل الكرامة.

أسباب الهجرة:

تنشأ الهجرة النفسانيّة وعروج القلب إلى المشاهدة بتجاوز حدود البشرية من أسباب عديدة، أهمّها المحبّة لله تعالى، والغنى به جلّت عظمته، والصدق في العبوديّة ـ بالاستسلام لما يورد عليه والاستعانة منه جلّ شأنه ـ واليقين في أحكام الربوبيّة، بتزكية النفس ومخالفة هواها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴿٩﴾﴾ [سورة الشمس، الآية: ٩]، ولكلّ من هذه الأمور مراتب ودرجات وحدود، ولولا قول نبيّنا الأعظم ﷺ: «المؤمن مُلجم»، لكان لغور البحث فيها مجال.

آثار الهجرة:

لكلّ من أقسام الهجرة آثار تختلف حسب الهجرة التي هاجرها المهاجر، بهجران الصفات الرذيلة وتبديل الأخلاق الفاسدة بالحسنة وترك الحظوظ النفسانيّة وقهر الهوى بالمقامات العالية، فقد ينقّى الأثر بالرقي إلى مكارم الأخلاق، والوصول إلى أقصى مراتب الكمال بسعادة الدارين، ونيل رضاه عزّ وجلّ، ويبلغ القصد بالشهود بشرف العبودية في السير والسلوك حتى لا يحتاج إلى دليل وبرهان في إثبات صفات الجمال والجلال، تبعاً للهجرة الموصلة إلى المطلوب، بل قد ينال من الحياة الأبدية في هذه النشأة، كما ورد في شأن بعض الخواص من أصحاب الصادق عليه السلام.

ولو مات المهاجر قبل أن يصل إلى مراده ومسعاه، فله نصيب مَن بلغ إلى ذلك المقام، ففي الأثر: «أنّ المؤمن إذا مات ولم يحفظ

القرآن، أمر حفظته أن يعلموه في قبره حتّى يبعثه الله يوم القيامة مع أهله»، وقد ثبت في محلّه أن الرقي في عالم البرزخ موجود لأهله. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ٧٢]، إنما هو بالنسبة لمَن لا معرفة له أصلاً، لا من انكشف عنه الغطاء بالهجرة وارتفع العمى والحجاب بالسير والسلوك إلى حضرة الربوبيّة في رضاه تعالى برؤية آثاره وصفاته جلّت عظمته. وأما قوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله»، هذا بالنسبة إلى أعماله الخارجيّة وأمّا بحسب فضله تعالى فلا يتصوّر فيه حد حتى ينقطع، والمهاجر الحقيقي كان من نيته دوام الهجرة والتوطّن في المقامات العالية، ولأجل ذلك أضاف جزاءه إلى نفسه الأقدس بقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ﴾، ويدلّ على ما ذكرنا قوله تعالى في القدسيات: «لا يسعني أرضي ولا سمائي، وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن».

موانع الهجرة:

وهي العوائق الموجودة في النفس، المستندة إلى الأهواء الشريرة المتوطّنة في النفس البشرية الحاصلة من الوساوس الشيطانيّة، كالتخويف بالموت أو الفوت أو المحبّة لما سواه تعالى من الأهل والمال والجاه، فهذه حجب شيطانيّة تمنع عن الهجرة بالسير والسلوك، وتحجب عن مشاهدة التجلّيات وهو جمال الحقّ، فحسن الأعمال نتائج حسن الأحوال من صلاح القلب والتوجّه إلى الله، وبذلك تصلح

الهجرة والرحيل، ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾، أي: بيت بشريته بترك الدنيا وقمع الهوى ﴿مُهَاجِرًا﴾ إلى التقرّب به جل شأنه بمبايعة رسوله، ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ قبل وصوله إلى مطلوبه ومسعاه، ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾، أي: بذمّة كرمه وفضله ورحمته فيبلغه إلى أقصى مقاصده إن كان المانع أجله، «فإنّ نية المؤمن خير من عمله»، و«يحشر الناس على نيّاتهم»، هذا إذا لم يأت بما يوجب بطلان الهجرة والبعد عن تشرّف الوصلة بالتقرب إليه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ للذنوب خصوصاً ذنب أنانيّة الوجود، ﴿رَّحِيمًا﴾ بتجلّي صفة جوده حتى يبلغ العبد إلى كمال مقصوده ومسعى غايته بمنّه وجوده وكرمه[١].

(١) م.ن، ج٩، ص١٩٦ ـ ٢٠٠.

الفيوضات الإلهية

العطايا الإلهية والفيوضات الصادرة من المبدأ جلّ شأنه لعالم الإمكان ليست قابلة للتحديد، لأنّها مفاضة من المبدأ الذي لا يمكن تحديده ـ لا ذاتاً ولا صفة ـ وإنّما التحديد في المتعلق، وهو الاستعداد أو القابلية، كما تقدّم ذلك في المباحث السابقة.

ومن تلك الفيوضات المعارف بجميع أنواعها، والهداية بتمام أقسامها ـ كالهداية من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة، ومن ظلمة الحسّ إلى نور المعنى، ومن ظلمة الكون إلى نور المكوّن.

والإنسان الذي هو أشرف مخلوقات الله تعالى له شرفيّة النيل لهذه الفيوضات والعطايا والهبات أكثر من غيره، ولو اتّصف بالإيمان فله أسماها وأجلّها وإن كان إيمانه منبثقاً عن الفطرة الكائنة فيه، قال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الأعراف، الآية: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

يَحْتَسِبُ﴾ [سورة الطلاق، الآية: ٢ ـ ٣]، وتقدّم مكرّراً أن التقوى لها مراتب، منها الإيمان بالله العظيم، وأنّ الرزق أعمّ من المادي والمعنوي الشامل للمعارف والإشراقات والمكاشفات، التي هي أنوار التوجّه وأنوار المواجهة، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٢٩]، والفرقان الذي هو تنوير القلب والإشراق عليه من الغيب للتمييز بين الحقّ والباطل، يتوقف على القابلية والاستعداد، وهو الإيمان بالله تعالى الملازم للتقوى، وله مبرز خارجي وهو العمل الصالح، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [سورة النور، الآية: ٢١]، أي: ولولا فضل الله عليكم لما نمت نفس بالخيرات والبركات، بل أنّها ترسبت وبقيت في حال السكون والنزول إلى الهاوية.

بل أنّ شراء الحقّ سبحانه وتعالى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنّة، كان بالعاجل لا بالآجل، فإنه عزّ اسمه جل أن يعامل العبد نقداً ويجازيه نسيئةً، وليس ذلك من شأن الكريم فكيف بأكرم الأكرمين، فإن المولى الغني جلت عظمته لو اشترى شيئاً من أحد نجزه نقداً وزاد في إحسانه ورفده، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١١١]، فعوّض المؤمنين في هذه الدنيا جنة المعارف بأقسامها وزادهم جنّة الزخارف وادّخر لهم ما يليق بشأنهم ويمنحهم لهم في دار الآخرة.

والجنّات الممنوحة في هذه الدنيا لمن تمّ عنده رسم العبودية ولو

بأدنى مرتبتها وحسب لياقتها، في غاية البهجة وكمال اللذّة ومنتهى السعادة وأسماها ما يلي:

منها: جنّة المعرفة، وهي من أعلى مراتب الجنان وأكملها، قال بعض العرفاء المتألّهين: «في الدنيا جنة من دخلها لم يشتق إلى جنّة الآخرة ولا إلى شيء، ولم يستوحش أبداً. قيل: وما هي؟ قال: معرفة الله»، ولها مراتب ودرجات تشرق بمقتضى اللياقة والاستعداد، وبها تتمّ كلّ نقصان.

وكلّ قبيح إن نسبت لحسنه أتتك معاني الحسن فيه تسارع
يكمل نقصان القبيح جماله فما تم نقصان ولا ثم باشع

ومنها جنّة المقامات التي نالها الأنبياء والأولياء في هذه الدنيا، كمقام الحبيبيّة الذي اختص به نبيّنا الأعظم ﷺ، وهو فائق على جميع المقامات والجنّات، ويحصل هذا المقام باصطفاء النفس وجعلها تحت اختيار المحبوب، بحيث لو لم يكن المحبوب لم يتحقّق الاصطفاء ولم يتشرّف بمقام الحبيبيّة، ويصل إلى منزلة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [سورة الفتح، الآية: ١٠]، وقوله ﷺ: «أبيت عند ربّي فيطعمني ربي ويسقيني».

وذكر بعضهم أنّ مقام الخلّة التي نالها إبراهيم عليه السلام يساوي مقام الحبيبيّة من جميع الجوانب، ولكن التأمّل التام وسياق الآيات المباركة يدلّ على أن مقام الاصطفاء والحبيبية فائق على مقام الخلّة بمراتب

كثيرة، لأنّ مقام الحبيبية بعد مقام الاصطفاء وجعل النفس تحت اختيار المحبوب بالمرّة ـ كما مرّ ـ ومقام الخلّة لم يصل إلى هذه الدرجة فمقام الاصطفاء يشمل مقام الخلّة وزيادة، بخلاف العكس فلخاتم الأنبياء ـ الذي له مقام الحبيبيّة ـ منزلة عظيمة لم يصل لها أحد من الأنبياء.

ومنها: مقام الخلّة التي اختصت بإبراهيم عليه السلام من بين سائر أنبياء الله تعالى، وهي منزلة عظمى لا ينالها أحد إلاّ بعد طي مراحل كثيرة منها مرحلة العبودية، والتسليم، والخلوص، وفناء النفس فيه عزّ وجلّ ـ وفي بعض الروايات كان جنّة إبراهيم عليه السلام في هذه الدنيا هي النار بعد السلام ـ. وقد اجتاز إبراهيم عليه السلام هذه المراحل بأحسن وجه حتّى نال جنة الخلّة أيضاً في هذه الدنيا، وخصّه الله تعالى بها دون غيره من الأنبياء عليهم السلام، فعرف بأنه خليل الرحمن، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٢٣].

وبعد الإحاطة بما ذكرناه لا نحتاج إلى صرف لفظ الخليل عن ظاهره، لما ذكروه من أنه تعالى منزّه عن المعنى الحقيقي، فإنّ الخلة الحقيقية شيء لا يدركها إلاّ العارف بالله تعالى ومن وصل إلى هذه المرتبة، وسيأتي في الموضع المناسب بيان أنّ الصفات التي تطلق على المخلوقين إذا لم يستلزم من إطلاقها على الله محال، تطلق عليه عزّ وجلّ لكن بالمرتبة الكاملة والمعنى الأتمّ، كالخلّة والحب ونحوهما.

وكيف كان، فقد ظهر فساد ما ذكره بعض النصارى في المقام

ـ كما تقدم في البحث الروائي ـ بأنه إذا جاز إطلاق الخليل على إنسان تشريفاً، فلم لم يجز إطلاق الابن على آخر كذلك. فإن إطلاق الخلّة على إنسان لم يكن تشريفاً بل كان حقيقياً ولا يستلزم منه محال، بخلاف إطلاق الابن فإنّه يستلزم الجنسيّة والله تعالى منزّه عنها، لما يترتّب عليها من الفساد فافهم.

ولمقام الخلّة آثار عظيمة، منها: استجابة الدعاء، فإنه ليس معنى الخلّة الحقيقيّة إلا استجابة دعاء الخليل من خليله، وقد كانت دعوات خليل الرحمن التي ذكرها عزّ وجلّ في القرآن الكريم كلها مستجابة.

ومنها: أن الخليل لا يرى لنفسه شيئاً في مقابل مخلوقات الله تعالى وعباده، بل يجعل نفسه مظهراً يرى فيها سائر مخلوقات الله تعالى، ولذا ترى أنّ إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يدعو في دعواته الكريمة إلاّ لأهل الإيمان مطلقاً، كما حكاها عز وجل في كتابه العزيز، قال تعالى: محكياً عنه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴿٤١﴾﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٤١].

ومنها: ما جعله الله أباً الأنبياء لما له عليه السلام عند الله تعالى شأن عظيم وجاه رفيع.

ومنها: أمر الناس باتّباع ملته عليه السلام، كما تقدم في سورة البقرة.

ومن الجنّات الممنوحة للمؤمنين في هذه الدنيا جنّة المؤانسة بأقسامها ـ مؤانسة ذكر، ومؤانسة قرب، ومؤانسة شهود ـ وتحصل هذه الجنة بالتوجه إليه بالإخلاص والذكر بتمام أقسامها، كما مر في أحد

مباحثنا العرفانيّة، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [سورة الرعد، الآية:٢٨]، ولها مراتب ومنازل.

ومنها: جنّة الخشوع، ولا تحصل هذه الجنة إلا من استكمل عنده نعمة الهيبة والمعرفة وفاز بجنّة اللقا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٠٧ ـ ١٠٩]، ولها مراتب، فمنها الخضوع والخشية وغيرها.

ومنها: لذّة المناجاة والتملّق عند بابه، فهي من الجنات التي أظهرها الله تعالى في هذه الدنيا ولا يعرفها إلاّ أهلها من الأولياء والصالحين.

ومنها: جنّة الرغبة والرهبة ـ كما تقدّم البحث عنهما ـ إلى غير ذلك من الصفات الحسنة التي توجب رقي النفس وراحتها وتصل إلى مرتبة يستوحش صاحبها من الدنيا وأهلها ويأنس بالله تعالى وبأوليائه، كما حصل لهمام عند خطبة الإمام علي عليه السلام، ولعلّ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة النساء، الآية: ١٢٤] الأعم من الجنة في الآخرة والجنة في الدنيا من الصفات الحسنة والحالات الصالحة التي تختص بالأبرار وتكون مشابهة لحالات المؤمن في جنة الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا﴾ [سورة البقرة، الآية:٢٥]،

وللبحث مجال واسع، نسأل الله تعالى أن يوفقنا له بعد رفع هذه المصائب التي حلّت بهذه الأُمّة بحق محمد وآله الطاهرين[١].

(١) ن.م، ج٩، ص٣٣١ ـ ٣٣٦.

في لزوم إزالة الحجب لتلقي الفيوضات الإلهية

السلوك إلى الله تعالى له عقبات وحجب لا بد من رفعها وإزالتها لتستعد النفس لتلقي الفيوضات الربوبية وأول درجات السالكين تخلية النفس من رذائل الصفات ومن أهمها الارتداد الذي هو الرجوع من الله إلى النفس البهيمية والركون إلى الشهوات وهو من أهم الحجب الظلمانية التي تطفأ نور العقل الذي به يتغلب على النفس ويرشدها إلى ما فيه سعادتها وكيف لا يكون كذل فإن فيه جماع رذائل الصفات ففيه حب الذات وإيثارها على خالقها، وفيه ترجيح ما سواه عز وجل وفيه تولي أعداء الله الذين هم حجب ظلمانية وعوائق في طريق الاستكمال، وفيه المبارزة مع الرب بإذلال المؤمن وإعزاز الكافر، وفيه فقدان الطمأنينة في النفس والثقة بالله تعالى وبالآخرة هو حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة، ولا ريب أن كل واحد من تلك الأمور هي حجب تستتبع ظلمات بعضها فوق بعض حتى تصل إلى درجة لم يكد يقدر أن يصلح نفسه فيكون بقاء مثل هذا الذنب العظيم مضراً لنفسه، وموجباً لقسوة القلوب والانهماك في الذنوب، والغفلة عن الله والبعد عن حضرته ولكن لا يشعرون وحينئذ فسدوا وأفسدوا ولا يقوم المجتمع

المشتمل منهم بالمهمة التي أرادها الله عز وجل له فإذا لم يرجع عن غفلته ويصلح شأنه فإن الله يبدله بآخرين لهم نفوس قدسية وحالات انقطاعية إلى الله عز وجل يصلحون لأن يكونوا مرشدين لغيرهم فقد أفنوا ذواتهم الشريفة في حب الله ووصلوا إلى حد اليقين فهم في الله وبالله وإلى الله واستبدلوا بتلك الحجب والظلمات أنواراً أشرقت على نفوسهم فأفيضت منهم على غيرهم فلم يصدر منهم إلا الخير المحض فصاروا أعلاماً لهدايته وأبواباً لرحمته وسبلاً للسالكين إلى مرضاته وأمناء الله على خلقه ومناراً يقتدي بهم الصالحون من خلقه وليس لهم غرض في حياتهم الكريمة إلا إيصال الخلق إلى الله وكيف تأخذهم في الله لومة لائم فهم على خير ولم يصدر منهم إلا الخير عندهم الخلق مظاهر صفاته العليا، فلم يخطر في بالهم إلا الحضور في ساحة قربه ولم يكن لهم شغل شاغل إلا التقرب إليه والطاعة له عز وجل وبالجملة فإنه بقدر عظم الخسران الحاصل من الارتداد والرجوع عنه تعالى تكون السعادة في الفناء والحضور لدى جنابه فإن البديل إنما يقوم مقام ما أراده الله من خلقه واستغني عن المبدل عنه لخلوه عن ما يوجب القرب لديه ـ أعاذنا الله تعالى منه ـ وهذا سر إلهي من أسرار العصيان والطغيان والرجوع عن الله، اللهم ألهمنا التوفيق واملأ قلوبنا حباً لك وشوقاً إليك وارزقنا الجهاد في سبيلك وتصفية نفوسنا من العلائق السيئة كلها، وخلصنا من شوب التعلق بغيرك حتى لا نؤثر إلا رضاك، وهم لم يصلوا إلى هذه الدرجات ولم يحصلوا على تلك الفضائل من الصفات إلا بطي مراحل في سيرهم وسلوكهم إلى الله عز وجل، ففي

البداية خليت نفوسهم من الرذائل وآثروا الرجوع إلى الله واستقاموا على ذلك حتى استعدت لتلقي الفيض فأحبهم الله وقربهم إليه وأحبوه فتعلقت به فكانوا مظاهر رحمته كما أحبوا المؤمنين لأنهم من مظاهر رحمته ولكنهم كانوا قهارين على الكفرة الذين طردوا من ساحته فاتصفوا بصفاته وتفانوا في الصفات ثم لم يرجعوا عن الجهاد والحركة من الصفات إلى الذات فتفانوا في الذات ولم يشغلهم عنها شيء فلم تأخذهم في الله لومة لائم إذاً لا إرادة للمؤمن إلا بما أراده الله تعالى فلا يريد إلا الخير، والبحث نفيس وله تتمة تأتي إن شاء الله تعالى(١).

---

(١) ن.م، ج١٢، ص٣٤.

الحجب والموانع
من نيل الأسرار الربانية

الحجب والموانع في طريق الوصول إلى معرفة الباري عز وجل كثيرة وهي مختلفة كمية وكيفية فبعضها تتعلق بالقول وبعضها تتعلق بالأعمال والأفعال والجوارح وبعضها تتعلق بالجوانح والقلوب والنيات، لكل واحدة منها آثار وضعية شخصية ونوعية والآيات الشريفة المتقدمة جمعت بين الأقسام الثلاثة فكانت الآثار عظيمة مهولة لم تتعلق بالأفراد فقط بل شملت النوع فقد ورد في ابتداء الآيات المباركة ذلك الحجاب الذي أسدله اليهود على أنفسهم بالتقول على الله تعالى فقد بهتوا بهتاناً عظيماً واقترفوا إثماً كثيراً حيث قالوا (يد الله مغلولة)، وإن كان ذلك لم يصدر عن جميعهم وحتى لو صدر من بعضهم ولم يعتقد بما يقوله فهو إثم عظيم إذ فيه نسبة التجسيم إلى الله عز وجل وإبطال قدرته وقيومته على خلقه ولا أظن أن من يعتقد بالألوهية ينكر ذلك عن إلهه فكيف بالواحد الأحد، ولعظمة هذا القول الأثيم غلت أيديهم واستحقوا الحرمان الأبدي من المعنويات والنعم الإلهية وحرموا إلى يوم القيامة من الفيوضات الربانية والأسرار الإلهية ولعنوا فأبعدوا عن مصدر الرحمة ومنبع كل خير، كل ذلك سبب مقالتهم تلك وقد أكد عز

وجل أن هذا القول منهم هو السبب في ذلك، ولا غرو فإن اللسان في الإنسان من أهم أسباب الحرمان، فقد ورد عن نبينا الأعظم ﷺ وقد سئل عن زلات اللسان فقال: (وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم) والسر في ذلك واضح فإن اللسان مفتاح القلوب والمقال دليل النوايا والسرائر فلا بد أن يكون في سبيل الخير وزمامه بيد العقل لئلا يخرج عن الاستقامة المطلوبة ويحرّم الإنسان عن كل خير فالآية الشريفة ترشد المؤمن إلى هذه الخصيصة المهمة فلا يغفل عن نفسه ولا يصدر منه ما يستوجب البعد والحرمان ولذا كان الأنبياء والحكماء ومن كمل إيمانه لا يتكلم إلا بقدر الضرورة، وبعد التفكر وملاحظة الخصوصيات لئلا يترتب على مقاله أثر سيء، وقد ورد في الدعوات المأثورة الاستعاذة بالله الكريم من زلات اللسان وهفواته، فيجب أن لا يغفل عن عظيم الأثر المترتب على الأقوال وكفى ما في هذه الآيات الشريفة من التنبيه والوعظ وبما ورد فيها من الزواجر والوعد والوعيد.

وأما ما يتعلق بالأعمال والأفعال فهو السعي إلى الفساد فإن من اختل فيه القول وساءت سريرته ونواياه وبعد عن كل خير لا محالة أنه يسعى إلى الفساد وبكمال جهده فقد انسلخ من الصلاح لما عليه من اقتراف الخطايا والآثام وخرج عن ربقة الإنسان الذي أكرمه الله عز وجل وأنعم عليه فجعله هادياً مهدياً إن استمر على فطرته واستقام على الطريقة، وأما إذا عتى عن أمر ربه وطغى في عصيان خالقه وأضل عن سواء السبيل فلم تكن الهداية مبتغاه ولا الطاعة مسعاه لا محالة يكون ضالاً مضلاً فينخرط في الفساد ويسعى فيه، وقد عدّ عز وجل بعض

أنواع الفساد الذي هم عليه الذي فيه الظلم على النوع وإفساد النظام وهو إيماد نار الحرب التي فيها هلاك الحرث والنسل لعظيم مقالهم وأفعالهم فغلت أيديهم، واسسلاء الحسد على قلوبهم واكتوائهم بنارها فتعدت بنارها تلك النار فأوقدوها في الحرب لإطفاء نور الهداية وطمس الفطرة بإلقاء الشكوك والشبهات ورمي الناس في اللهو والباطل، والحسد الذي هم عليه لم يكن من ذلك الذي يمكن السيطرة عليه ويكبح جماحه فإن الإنسان إذا توغل في الطغيان والكفر ولم يكن يريد ما أنزل الله عز وجل إلا بعداً عن الخير والهداية فانقدح فيه نار العدوان واستقر في القلوب البغضاء والشنان فلم يكن له قلب سليم لينتفع بالمواعظ وينزجر بالزواجر وكل ما ورد في هذه الآية الشريفة فيها من الترتيب الدقيق في التدرج من الأدنى إلى العظيم والأعظم والأدهى والأمر فلا يغفل الإنسان عن نفسه ويتركها من دون رقابة في الأقوال والأفعال ولا يصلح النوايا والسرائر فإذا كان كذلك وأدركته التوفيقات الربانية وهذب نفسه بالإيمان وأتقى الموبقات والآثام وعمل بما أنزل الله من الأحكام ومنها الولاية التي وردت في روايات المقام وهي روحها فاستعد لتلقي الفيوضات من مالك الملك والملكوت فمسح عنه أدران الذنوب وأزال حواجب القبول وفاز بالقرب وحلّ في دار الخلد عند مليك مقتدر وأنعم عليه بأنواع النعم فصلح وصلح النظام به، ويستفاد من الآية الشريفة ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أن العمل بما علم يورث الفوز بالسعادة الدنيوية والأخروية وإن العمل بما أنزله الله يستدعي

صلاح نظام العالم وتدل على ذلك جملة من الشواهد العقلية والنقلية، ففي الحديث عن نبينا الأعظم ﷺ (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) فإن العمل يورث استنزال البركات الإلهية ويستوجب الثبات والرسوخ في العلم، فالآيات الشريفة من جلائل الآيات في السير والسلوك إلى الله عز وجل وقد ابتدأت بسرد بعض الحجب الظلمانية التي تكدر النفس وتحط من درجاتها السامية ولكنها اختتمت بالتحلية بالفضائل وتزكيتها بالكمالات العلم والعمل وعروجها إلى قوس الصمود فكان ختامها مسكاً وفي ذلك فليتنافس المتنافسون[١].

---

(١) ن.م، ج١٢، ص١٥٩.

بعض العادات التي توجب طمس نور الفطرة

الآية الشريفة[١] تحكي عن عادة جاهلية فيها نوع من التصرف في سلطان الله عز وجل وإرادته التشريعية، وقد جمعت تلك العادات الذميمة بين الحماقة والجهل وعدم الاهتداء والاعتماد على هدى صحيح ليسترشد الإنسان به في جميع أعماله وتصرفاته وقد وصف عز وجل القوم الذين كانوا يفعلون تلك الأمور بأوصاف تدل على هبوط منزلتهم، فهم أسراء بين الجهل وعدم التعقل لما هم فيه وما تتطلبه إنسانيتهم والتقليد المميت لفطرتهم والمموه لعقولهم فصاروا كالأنعام لا يدركون ما يفعلون في أمثالهم، فطوراً يسيبونها تائهة وأخرى يجعلونها وصيلة وثالثة تكون حامية ورابعة تكون بحيرة، وهذه كلها صفات ذميمة ترجع إلى تقييد النفس التي شرفها الله بكرامته وحباها من عظيم لطفه فإذا جعلت النفس إلى أدنى مستوى لها في الكمال بحيث لا تسمع إلا المخالفات بشق أذنها لها سابت في مراتع الشهوات من دون

---

(١) ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أن ترى عليها رقيباً وسرحت في الالتذاذ بالمخالفات وركنت إلى الدنيا فقطعت كل آمالها عن الكمالات وتمنت المزيد من المعاصي والآثام ووصلت بعضها ببعض فسوفت التوبة والاستغفار والتهيؤ للاستكمال فلا يكون لها حام يحميها من المزال فوسوس لها الشيطان وألقى الشبهة بأنه لا معنى للمجاهدات والعمل بالشريعة الغراء واعتمدت على التقليد فلا اهتدوا لعدم تعقلهم ولا اعتمدوا على ركن وثيق فإن كانت هذه عادة جاهلية واحدة كانت في الأنعام وقد أثرت في النفس التي أراد لها الله عز وجل الكمال والوصول إلى مقام الأنس فما بالك في سائر العادات المهلكة وقد حذر الله عز وجل تلك لعظيم أثرها في النفس والحط من منزلتها ويكفي النداء الربوبي لهم بأنهم لا يعقلون وتوصيف آباءهم بأنهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون فإن درك الحقيقة والرجوع إلى النفس التي على قدر معرفتها تكون معرفة الباري عز وجل يحتاج إلى هذين الأمرين العلم والاهتداء والتعقل لما يفعله وفهم ما يلقى عليه وهما الركيزتان اللتان يعتمد عليهما السالك والعارف وبدونها لا يمكن الوصول إلى الحقيقة مهما حاول فإنه يضيع العمر في طلب المحال[١].

(١) مواهب الرحمن، ج١٢، ص٥٢١.

نعمة الامتحان والابتلاء

نعم الله تعالى على العبد كثيرة لا تعد ولا تحصى منها التكاليف الشرعية التي هي من الكمالات الإنسانية بحد نفسها ومنها الامتحانات الإلهية والابتلاءات الربانية التي تصقل جوهر النفس وتكشف عن حقيقتها فإنه عند الابتلاء يكرم المرء أو يهان وليست أثقالاً عليها لتئن تحت وطأتها كما يزعم بعض من لا بصيرة له، فإن أمر النفس غريب وهي صعبة المرام لا تسلس لقائدها بسهولة فلا بد من زجرها آناً بعد آن، فلو خليت وطبعها خرجت عن قيادة صاحبها وتخبطت خبط عشواء وأوردته المهالك العظام، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: (أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك) لأن العدو إذا أكرمته خضع ونسي ما كان عليه من العداوة فصار كأنه ولي حميم بخلاف النفس فكلما أكرمتها تمردت وخرجت عن الطاعة وتمادت في الطغيان فلا بد من زجرها بالزواجر ودوام مراقبتها وتسلم زمامها ولا يمكن للإنسان وحده أن يقوم بهذه المهمة الصعبة والعسيرة جداً لكنها ليست بالمستحيلة لئلا يلزم محذور الجبر الذي ينادي به بعض من لا خبرة له بل هو وسيلة من أعرض عن الكمالات وانهمك في الرذائل والطغيان، ولقد قامت الشرائع الإلهية خير قيام بتذليل الصعاب للإنسان فسنت قواعداً وأحكاماً لجميع

مجالات الحياة التي تحنوا إليها النفس وترغب فيها وتزيد في طغيانها فكانت من أعظم النعم الإلهية، ولما لم يكن أفراد الناس على وتيرة واحدة فأتم عز وجل تلك النعم بالابتلاءات التي هي من أهم الزواجر والذواكر للنفس الطامحة إلى التبطر في العيش والتمني في البقاء اللذين هما من أهم الموبقات المهلكات ومن ذلك يعلم أن الابتلاء سُنَّةٌ من السنين الإلهية التي يرجع خيرها إلى الإنسان نفسه، وقد ورد في الحديث (لم يستكمل إيمان العبد حتى يعلم أن الابتلاء نعمة من ربه).

وقد ذكر عز وجل في الابتلاء الذي له من الأهمية بمكان ويكشف عن ذلك عظمة البيت الحرام وشرفه الكبير وأهميته في التقرب إلى الله تعالى، فالمكان والزمان والحال كله من الحرام لتحصل حالة الانقطاع وتتجرد النفس عن علاقتها المادية وتحشر إلى الله، وفي الآيات إشارات لأصحاب السير والسلوك ومن يهتم بترويض النفس ومن يريد معرفتها والطالب للحقيقة والرجوع إلى خالقها، فإن من عرف نفسه فقد عرف ربه، فإن أول قدم يضعه في هذا المقام الإحرام عن زخارف الدنيا وزبرجها ومنع النفس عنها، فإنه مما لا بد منه في هذا المجال ذي المسلك الصعب فإن خلع النفس من الموانع وأبعادها عن الغفلة والركون إلى الدنيا أمر مهم لا يمكن التغاضي عنه، فإذا أراد شخص السير إلى محال قدسه والإحرام لزيارة كعبة الوصول فإنه يبتلى لا محالة بالمقاصد النفسانية والصيود الشيطانية فإن على قدر عظمة القصد والغاية تكون ابتلاءات المسير، وهذه إما أن تكون كامنة في نفس الإنسان مما تناله الأيدي أو هي من الأمور المادية المحيطة به مما تناله الرماح

القاتلة وقد اتفقا على الصد من تكميل النفس بالكمالات والوقوف أمام مسيرها الاستكمالي وسلوك الطريق المستقيم فلا بد من اجتياز تلك الابتلاءات وزجر النفس عن الاقتراب إلى ما يوجب التنزل إلى الدركات حتى يصل إلى درجة الشهود ويظهر الغيب المشهود ويكون على خوف شديد مما يجري حوله مما يوجب الصد عن ذكر الله تعالى والغفلة عن النفس وخالقها، وللخوف آثار عجيبة في تهذيبها ولولاه لما أمكن الوصول إلى دار الحبيب والتزود بلقياه، وهو كامن في كل فرد لكن الحجب التي يصنعها الإنسان من أفعاله وعقائده تكون مانعة من تأثيره فيخلد إلى الأرض وينسى آيات ربه ويصدر ما يصدر منه من الموبقات، ومن هنا يظهر سر قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ﴾ فإن الخوف يستتبع الخشية والهيبة في الحضور وتتجلى الذات وتنصقل النفس وتذوب في الصفات، فما أشد تأثير الخوف في مقام السير والسلوك ولذا ترى أن الأنبياء العظام والأولياء الكرام كانوا على خوف شديد من جميع الجهات، من النفس التي قد تنبو وتبطل جميع الأعمال والمجاهدات التي مضت عليها برهة من عمرهم، ومن الدنيا التي تكون فاتنة خداعة تأتي لحظة يفتتن بها فيخرج عن طور العبودية، ومن الأولاد والأموال التي قال عنها عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، فإذا ذهب الخوف ابتلى بعذاب الحرمان وبعد عن ساحة الرحمن وبقي في ذل الاحتجاب والهوان وأما إذا تحقق وانتشر على الأعضاء والجوارح حصلت الهيبة والخشية ممن يعلم الغيب وتهيأ لقنص الكمالات واستعد لنيل المقامات فيحرم عليه قتل ذلك الصيد في حال التهيؤ إلى الملاقاة

ونيل الدرجات بالإحرام الحقيقي والابتعاد عن الرذائل والسيئات فكيف يصح في حكم العقل قتل مثل هذا الصيد حينئذ وهو الذي تهيأ من طول المجاهدة وذاق مرارة الحرمان طوراً من الزمان وذاب فؤاده من طول الهجران فإذا مشى قاصداً لارتكاب الحظوظ النفسانية وإعطاء النفس هواها فلا بد زجرها وقهر تلك القوة التي ارتكب بها في قتل هذا الصيد من قوى النفس البهيمية بجزاء معين هو مثل ما قتل الذي يتعين بالرجوع إلى من يحكم بذلك ممن وصل إلى درجة اللقاء واجتاز تلك الحجب وعرف كيفية الوصول وأذن له بإرشاد من يريد السلوك من عينه الحبيب على بابه حاجياً فيقدم له الهدي ويتوب إلى الله مما ارتكبه فيفني نفسه حق الفناء ويسترد تلك القوى البهيمية بالصدقة والصيام لترويضها على القيام بما يريد الله عز وجل، ولو عاد إلى ما نهي عنه فينتقم الله تعالى منه بإقصائه عن تلك الدرجات وإبعاده عن قربه فيضل حيران تهوى به الريح إلى مكان سحيق فكيف يمكنه الرجوع إلى حمى الحبيب حينئذٍ.

ولكن ليعلم أنه لا يمكن السير والسلوك إلا بعد التزود بالمعرفة والعلوم الحقيقية والمعلم الذي يرشد الإنسان إلى طرق استكماله ومن ذلك يصرف أهمية أهل الذكر في الرجوع إليهم وقد أحل الله تعالى له صيد البحر ونيل المعارف والرجوع إلى عالم الحقيقة والتزود من بركاته لمن أراد السفر إلى الله تعالى ولكنه محروم والحالة هذه من العلوم المادية التي هي صيد البر التي تبعد الإنسان عن خالقه العظيم المنان الذي هو مقصد كل عارف مفتون وسالك مجذوب ولا بد من المراقبة ودوام التقوى في هذا السفر المضني المبارك الذي به يتم الحشر إليه عز

وجل أخيراً ويتم البقاء، فلا بد من الاجتهاد في السلوك وطي المراحل وإزالة الموانع والوقوف عند من جعله الله قياماً للعباد والتزود بمظهر جلاله وكبريائه فيتجلى عز وجل له بقدر ما حصل له من الاستعداد وما فني من نفسه من الأغيار حتى يصل إلى درجة لا يمكن أن ينالها إلا الصِدّيقون المقربون فيحصل فيه الفناء وتموت في أنفسهم جميع الأغيار ويتحقق الموت الحقيقي ولكن في زمن خاص وهو الشهر الحرام الذي يحرم فيه الالتفات إلى مقتضيات النفس وتنعدم فيه صفاتها ويستعد لنيل الواردات التي ترد القلب وما يحصل له من التجلي والفناء التي بمنزلة الهدى وتقاد إلى مولاها التي هي القلائد لانقيادها إلى بارئها وأما صاحبها فهو وانِ فني في الحب من دون غفلة بل من صعقة الشهود إلا أنه لا يغيب عن بارئها وخالقها فإنه يعلم ما في السموات وما في الأرض وإن الله بكل شيء عليم وأن علمه محيط بكل شيء يعلم ما تصبوا إليه النفوس ومقدار زكاتها واستعدادها وسيرها وسلوكها والتفاتها ويعطي كل واحد بمقدار استعداده وقابليته، والآيات الشريفة وإن وردت في إحرام الحج والسفر إلى الكعبة بيت الله الحرام وقد بين عز وجل فيها ما هو المطلوب في الاستعداد لهذا السفر المبارك بهذا الميدان المادي فما بالك بالسفر المعنوي الحاصل من انتقال النفس من عالم المادة إلى العالم الذي كان مأنوساً فيه فإن الطريق المسلوك فيه أطول وأشد وعورة وأعظم امتحاناً وابتلاءً لعظم المقصود فيه رزقنا الله تعالى التوفيق والهداية[١].

---

(١) ن.م، ج١٢، ص٤٥٩.

مهلكات النفس وما يوجب الاطمئنان

الآيات الشريفة[١] تبين مظاهر سخط الله تعالى وموجبات لعنه وعذابه لأنها من عمل الشيطان الذي هو مصدر الغواية والضلال وقد بين عز وجل ما يترتب عليها من الآثار الوصفية التي تعتبر من مهلكات النفس وانحطاطها إلى أدنى الدرجات، وكيف لا تكون كذلك وهي التي تصدر عن ذكر الله تعالى الذي تطمئن به قلوب المؤمنين بل هو أمل العارفين والروح الذي يضفي للموجودات بهاءً وعظمة ربه حياتها، فلا يستغني السالك إلى الله تعالى عنه وأن الصد عنه يوجب هلاكه لأن فيهم البعد عن ساحة جلاله، كما أن تلك المهلكات توجب المنع عن الصلاة التي هي قرة عين الأنبياء والمرسلين أو معراج الأولياء والصالحين وفيها سمو الروح واتصالها برب العالمين وفناؤها فيه، فلا يكون الصاد عنها إلا عدو استكلب على الإنسان ليحرمه عن ملاقاة الحبيب والالتذاذ بمناجاته وتكميل النفس بملاقاته وإبعادها بالغفلة التي تحط الإنسان عن

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قدرة وتمسخ قلبه، ولعل في إتيان الذكر ثم الصلاة لبيان درجات العارفين ومقامات السالكين فبعضهم اقتصر على ذكر الله تعالى الذي هو روح الموجودات وبه حياتها والبعض الآخر تعدى عن ذلك ووضع قدمه في ديار الحبيب وتمنى ملاقاته والحضور لدى جنابه، وكلا المقامين لا بد له من الحب الإلهي ليحق له الدخول في هذا السلك، فإذا كان الخمر والميسر يسلبان الحب مكن بين القلوب ويبدلانه بالعداوة والبغضاء فينشغل القلب بنيرانها وينغفل عن ساحته القرب وتحليته بالكمالات كيف لا يترتب عليه الصد عن ذكر الله تعالى فيكون ترتب الصد على العداوة والبغضاء من ترتب المقتضى على المقتضي، هذا في سكر الخمر وثمالتها والميسر الذي يلهي عن ذكر الله، فما بالك بسكر الدنيا الناشىء من حبها الذي هو من أمراض النفس الخطيرة فيسلب لب الإنسان ويفقده صوابه ولحب الدنيا وسكرها مظاهر كثيرة، فقد يحصل من المال أو الجاه والرياسة، وقد يدخل في أمور دقيقة عند السالكين والعارفين وقد يغفل عنها فتظهر على نواياه أو أقواله وأفعاله فإن لم يعالجها يرجعه إلى أسفل السافلين، ولذا كان الأنبياء والمرسلون يتعوذون بالله منهما ويتوبون ويستغفرون الله مما قد يصدر منهم في أطوار حياتهم المعنوية فإن الأمر دقيق جداً والإنسان في اختبار وامتحان مستمرين، وكانت سيرة الأئمة الأطهار عليهم السلام في تعاملهم مع الدنيا على حذر شديد وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «والله لقد نزلت الدنيا عندي منزلة الميتة متى اضطررت إليها أكلت» فإن جمالها الفاتن يخلب القلوب ويصد السالك المجذوب.

وقد نقل عن بعض العرفاء في حق منه كان مشغولاً بنفسه وزاهداً عن الدنيا ومفاتنها مدة طويلة لما عرضت عليه القضاء فقبلها قال: إنه كان يضمر حب الدنيا مدة أربعين سنة وهو صحيح فإنه يبقى في مكنون النفس مدة طويلة ويكون صاحبها مشغولاً في جهة أخرى.

ولعل في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ إشارة إلى هذا الأمر الدقيق فلا بد من التقوى والرجوع إلى الإيمان دوماً والشدة في ذلك بدوام المراقبة أوانه إرشاد إلى مراتب الإيمان ومنازل المؤمنين وليعرف كل واحد منهم منزلته فيقوم بها على الوجه المطلوب ليمكنه التجاوز إلى منزلة أخرى كما ورد عن الصادق عليه السلام (الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البين نقصانه ومنه الزائد رجحانه).

ولا تكون منازل الدرجات إلا لأجل اختلاف المؤمنين في الاستعداد لتلقي الفيوضات الإلهية الناشىء من تفاوتهم في الأعمال وصفاء النفس وبعدهم وقربهم من معدن العظمة والكبرياء، وفي الخبر (أن التقوى على ثلاثة أوجه، تقوى في الله وهي ترك الحلال فضلاً عن الشبهة، وهي تقوى خاص الخاص وتقوى من الله وهي ترك الشبهات فضلاً عن الحرام وهي تقوى الخاص وتقوى من الله وهي ترك الشبهات فضلاً عن الحرام وهي تقوى الخاص وتقوى من خوف النار والعقاب وهي ترك الحرام وهي التقوى العام، ومثل التقوى كماء يجري في النهر ومثل هذه الطبقات الثلاث في معنى التقوي كأشجار مغروسة على حافة

ذلك النهر من كل لون وجنس وكل شجر منها يمتص الماء من ذلك النهر على قدر جوهره وطبعه ولطافته وكثافته ثم منافع الحلق من تلك الأشجار والثمار على قدرها وقيمتها، قال الله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ فالتقوى لطاعات كالماء للأشجار، ومثل طبائع الأشجار في لونها وطعمها مثل مقادير الإيمان، فيكون التغيير والاختلاف يرجع إلى شيء مستور عن الناس مع كون المادة واحدة ويدل عليه قوله ﷺ (الناس معادن كمعادن الذهب والفضة) مع كون مادة الناس ومحل تكوينهم إنما هو المني والرحم وكذلك سائر المخلوقات من الجماد والنبات والملائكة، فإن منشأ تكوينهم شيء واحد مع الاختلاف العظيم فيما بينهم، فالآية المباركة من جلائل الآيات التي يستفاد منها أبواب كثيرة في العلم والعمل والتقوى وفيها إشادات لطيفة ودقائق ربانية لذوي البصائر في مقاماتهم الرفيعة ليكونوا على حذر مما يوجب صدهم عن ما فيه حياتهم بالآخرة وهلاكهم، كما أنها ترشدهم إلى التزود بالتقوى وبقائهم على مراقبة تامة وتطميعهم في مثل الدرجات العالية والمقامات الرفيعة فيا لها من آية عظيمة في السير والسلوك فلا تغفل عنها والله المستعان[١].

---

(١) مواهب الرحمن، ج١٢، ص٤١٧.

مراتب الذكر

من أجلّ مقامات العارفين مقام الذكر، بل هو من أعظم مظاهر حبّ الحبيب لمحبوبه، فإن «مَن أحب شيئاً، أكثر من ذكره»، ومن علامات الحبيب الاستهتار بذكر حبيبه، وقد قالوا: إنّ المحب إذا صمت هلك، والعارف إذا نطق هلك، لأن الأول مجبول على ذكر الحبيب، والثاني مأمور بستر الأسرار، ونسب إلى سيد الساجدين عليه السلام.

يا ربّ جوهر علمٍ لو أبوحُ بهِ   لَقيلَ لي أنتَ ممّن تَعبد الوَثنا

والذكر ـ عندهم ـ على أقسام ثلاثة:

الأول: ذكر اللسان المستمد من القلب.

الثاني: ذكر القلب مع عدم حركة اللسان، ويسمى مناجاة الروح والاستجماع للمذكور بالكلية، وهذا ذكر الخواص.

الثالث: ذكر السر، ومعناه غيبة الذاكر في المذكور ـ في الجملة ـ فكأن المذكور يكون هو الذاكر، وهذا ذكر أخصّ الخواص. ومثّلوا لكلّ ذلك بأمثلة مذكورة في محالها، كما بيّنوا لكلّ واحد منها ثمرات ونتائج.

ولو أضفنا إلى ما ذكروه من الأقسام، ذكر عامة الناس الذي يقوم بالجارحة اللسانية فقط من دون استمداد من القلب، تصير الأقسام أربعة، ولعلّهم لم يذكروا هذا القسم لتنزّههم عن مثل هذا الذكر.

ثم إنّ ذكر الذاكر إنما يتقوّم بحبّه للمذكور، ولولاه لم يذكره، والمذكور قد يحبّ الذاكر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، بل حبّه لجميع خلقه مما أثبتته الأدلة العقلية ـ كما برهن في الفلسفة الإلهية ـ والنقلية، فيقع التجاذب في البين لكلّ من الحبيبين، وبعد تحقّق مراتب الحضور بينهما كيف يتحقق التخالف؟! لأن ذكر الحاضر من تمام الجهات قبيح، قال الشاعر:

أما ترى الحق قد لاحت شواهده ... وواصل الكلّ من معناه معناكا

والبحث نفسي جداً، لو وجدت لهذا العلم الشريف حملةً.

---

(١) آل عمران، الآية ٣١.

أهمية التربية

يتضمن قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ أهم المناهج في تربية الإنسان في استكماله، ومثله في القرآن الكريم كثير.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى بعض الأصول المهمّة في هذا المنهج ـ كما هو دأبه عزّ وجلّ في القرآن الكريم ـ فعلى الإنسان الجد والاجتهاد في التفريع عليها، وتطبيقها على مجالات الحياة.

ولا ريب في أهمية التربية والتعليم وارتباطهما الوثيق بالإنسان، ودخلهما في جميع جوانب حياته، وبهما يستكمل الفرد وينال السعادة في الدارين. ولا يمكن لأي فرد من أفراد الإنسان الاستغناء عنهما في أي دور من أدوار حياته، وبهما يقوم النظام الاجتماعي، ولا يوجد أمر آخر يكون له هذا الاتّصال بالواقع الإنساني وتكون له هذه الشمولية، وهما قرين الإنسان منذ أول الخليقة في جميع أدواره، ولا يعقل بالنسبة إليه تعالى إهمال هذا الجانب المهمّ في الإنسان، مع علمه عزّ وجلّ بما يترتب على إهماله من الآثار، ولم يشرّع شريعة إلاّ لتهذيب الناس وتكميلهم وإيصال الفرد إلى السعادة.

ومنهج التربية والتعليم ـ كسائر المناهج والعلوم ـ قد طرأ عليه تغييرات ولم يصل إلى حدّه الفعلي إلاّ بفضل جهود العلماء والمربّين، ووضع النظريات العلمية، مما أوجب التغلّب على كثير من الصعاب.

وللتربية والتعليم مناهج متعدّدة، وقد وضعوا في كلّ واحد منها كتباً ورسائل كثيرة جداً.

وأهم تلك المناهج هو: المنهج العقلي، والمنهج المادي، والمنهج التجريبي، وجميع هذه المناهج قاصرة عن الإيصال إلى المطلوب، إلاّ المنهج الإسلامي المبيّن في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، والسبب في قصورها عدم كفاءتها في رفع المشكلات الإنسانية إلاّ في حدود معيّنة وصلت إليها أفكارهم القاصرة، ولذا نرى الاختلاف والتناقض فيها بخلاف المنهج الإسلامي، الذي يصدر عن منبع محيط بكلّ الجهات وفي كلّ زمان.

ويمتاز هذا المنهج القرآني عن غيره بوجوه عديدة أهمها:

الأول: أن المنهج التربوي والتعليمي في الإسلام ليس مادياً صرفاً، ولا عقلياً بحتاً، بل هو يشمل الجانبين، ويعطي لكلّ جانب حقه.

الثاني: أنّه يراعي الجانب التطبيقي، ويعطي للعمل أهميته ويهتم بالمربّين والمعلّمين قبل كل شيء، فهو يأمر بالتزكية وإتيان العمل الصالح، ولا يكتفي بالجانب النظري فقط.

الثالث: أنّه يهدف الكمال الإنساني، ويبغي سعادة الفرد والمجتمع، ووضع لكلّ ذلك أسساً وقواعد لا يمكن التخلّي عنها.

الرابع: أنه عامّ يشمل جميع مراحل الإنسان، وجميع جوانب حياته، بل يشمل مرحلة ما بعد الموت أيضاً بحسب الآثار.

الخامس: أنّه مرتب ترتيباً دقيقاً، يبتدىء بالتلاوة ثم التزكية، فالتعليم وطلب الحكمة، والتجاوز عن هذا الترتيب لا يوصل إلى ما يريده الإسلام.

وفي القرآن الكريم إشارات إلى كلّ واحد من الأمور المتقدّمة، وفي السنّة الشريفة شرح ذلك، ويأتي في الآيات المناسبة التعرّض لها إن شاء الله تعالى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ * ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع والنقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إن لله وإنا إليه راجعون * أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

الآيات متّسقة منتظمة، كلها وردت في سبيل استكمال الإنسان، ولذّة النداء والخطاب في أوّلها ترفع عن العبد ثقل التكليف.

وقد بيّن سبحانه وتعالى فيها أن الإنسان في طريق استكماله وإشاعة الحقّ ومقارعة الباطل، يقترن أنحاء من البلاء والمحن في الأنفس والأموال، ولا يمكن التغلب عليها إلاّ بالصبر والتوجّه إليه تعالى في كلّ أمر. وقد لطف سبحانه وتعالى على عبيده بما يهوّن

عليهم احتمال المكاره، ويخفّف عنهم عظم المصاب، بما أعدّه سبحانه للصابرين من البشارة العظمى، ولمَن قتل في سبيله الأجر الجزيل.

ولا يسعنا في ذلك إلاّ أن نقول بما قاله الإمام زين العابدين عليه السلام في صحيفته: «ولو دلّ مخلوق من نفسه على مثل الذي دللت عليه عبادك منك، كان موصوفاً بالإحسان ومنعوتاً بالامتنان ومحموداً بكلّ لسان».

فهذه الآيات المباركة تكفي في عظمة الموحي والموحى إليه والوحي، لكلّ مَن كان له سمع أو ألقى السمع وهو شهيد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

قد ورد هذا الخطاب في القرآن الكريم في ما يقرب من تسعين مورداً، وفيه من التحبّب والملاطفة مع عبيده ما لا يخفى، والمنساق من سياقه تلبّس المخاطب بالإيمان في الجملة، وهو يقتضي أن يكون الخطاب مَدَنياً لا مكّياً. وتقدّم ما يتعلّق به في الآية ١٠٤ من هذه السورة، فراجع.

قال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

الصبر هنا مقاومة النفس مع ما يرد عليها من المكاره والأذى، وحذف متعلّقه يفيد العموم ـ كما هو المعروف في العلوم الأدبية ـ أي استعينوا بالصبر في جميع أموركم فإنه مفتاح النجاح، وهو في كلّ شيء حسن، ولا يتعلّق بشيء إلاّ وصار محبوباً، فهو أُمّ الفضائل والجامع لجميع جهات استكمال الإنسان، إذا كان الصابر مراعياً لتكاليف المولى.

والاستعانة بالصبر استعانة بأهم الأسباب المؤدية إلى المطلوب، وأعظم السبل في نيل المقصود، والحاجة إليه في تأييد الحقّ ومقارعة الباطل واحتمال المصائب، معلوم لكلّ أحد، وآثاره ظاهرة لكلّ فرد، وتقدّم ما يتعلّق به في الآية ٤٥ من هذه السورة.

وأما الاستعانة بالصلاة، فإنها استعانة بأبرز مظاهر العبودية لرب العالمين، وأهم أبواب مناجاته تعالى، والاستغاثة به عزّ وجلّ، لما تشتمل على عظيم الآثار، فإنها معراج المؤمن، وإنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبها يحصل للنفس سكونها واطمئنانها عن الحوادث الواردة عليها، لأن فيها ارتباط بعالم الغيب المحيط بهذا العالم - والإنسان خلق من ذلك العالم، وفإذا طابقت سنخية الذات مع العمل يحصل الانقطاع عن العلائق، ويشتد الارتباط مع ربّ الخلائق، فينتظم النظام على الوجه الأصلح.

وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ: إذا حزّ به أمر - أي اشتد عليه - فزع إلى الصلاة»، وتقدّم نظير هذه الآية في هذه السورة آية ٤٥، إلاّ أن في الأولى مدح سبحانه الصلاة، وفي هذه مدح الصبر وبشّر الصابرين.

والوجه في التكرار، التأكيد على أهمية الصبر والصلاة في تنفيذ الأمور وتكميل النفوس، وتوطينها لاحتمال المكاره وتحصيل السعادة في الدارين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

لفظ «مع» يأتي بمعنى الجمع والمصاحبة في الجملة، ويختلف اختلافاً كبيراً بحسب الموارد والخصوصيات، ويستعمل في الخالق والمخلوق، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[(١)]، وقال تعالى حكاية عن نوح: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٢)].

والمعيّة نحو ارتباط حاصل..

تارة: بين الخالق والمخلوق حدوثاً وبقاءً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[(٣)]، ويعبّر عنها بالمعيّة القيّوميّة، وتلازمها المعيّة الزمانية والمكانية، والجامع ما ذكره علي عليه السلام: «مع كلّ شيء لا بالمجانسة، وغير كلّ شيء لا بالمباينة».

وأما معيّة المخلوق مع خالقه فيعبّر عنها بعبارات مختلفة، أولها العبودية وآخرها الفناء في الله تعالى، ونتيجة الجميع البقاء بالله تعالى.

وأخرى: تحصل من عونه ونصرته وتوفيقه، وتسبيب أسباب الخير، ومنها معيّته تعالى مع الصابرين والمُتّقين والأنبياء والصالحين، فتكون معيّته تعالى لهم من جهتين جهة قيّوميّته تعالى، وجهة فعله وعنايته ونصرته لهم. وهناك معان أخرى للمعيّة تأتي في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) التوبة، الآية ١٢٣.
(٢) الشعراء، الآية ١١٨.
(٣) الحديد، الآية ٤.

المراد من القول هو الأعم من الاعتقاد والتعبير بالألفاظ، فاستعمل في الجامع.

والقتل إزهاق الروح عن الجسد إذا لوحظ فيه الإضافة إلى الفاعل. وأما إذا لوحظ فيه الإضافة إلى المقتول فيصح التعبير عنه بالموت أيضاً. هذا بحسب الشايع المتعارف وإلاّ فيصح إطلاق القتل بالنسبة إلى الجنين الذي لم تتعلق به الروح بعد كما ورد في بعض أحاديث دية الجنين.

كما لا يختص بإزهاق روح الإنسان بل يشمل الحيوان أيضاً قال تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[١] والنصوص في هذا الإطلاق مستفيضة من الفريقين.

بل يطلق القتل على إزالة المعارف الحقّة عن النفوس المستعدة أو دفعها عنها. فإنَّ مّن تسبب في جهل الناس بالمعارف الإلهية فقد قتلهم شر قتلة لأنه أزال حياتهم الأبدية السرمدية كما يأتي التفصيل.

وقد ذكر القتل ههنا بهيئة المضارع، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾[٢] بهيئة الماضي، ولا فرق بينهما من هذه الجهة، لما ذكرناه من القاعدة الكلية المؤيدة بالدليل العقلي بانسلاخ الأفعال عن الزمان بحسب ذاتها والخصوصيات الزمانية تستفاد من القرائن الخارجية.

(١) المائدة، الآية ٢. (٢) آل عمران، الآية ١٦٩.

والسبيل هو الطريق الذي فيه السهولة، ويستعمل في كلّ ما يتسبب به إلى المطلوب ـ خيراً كان أو شراً ـ قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[1].

وقد ذكرت جملة «سبيل الله» في القرآن الكريم ما يزيد على ستين مورداً وهو يدل على سعته وشموله وعظمته وأهميته، وتقدم الفرق بينه وبين الصراط في سورة الحمد عند قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وقد ذكر في القرآن الكريم والسنّة المقدّسة بعض المصاديق: مثل بذل النفس في إحياء كلمة التوحيد وتأييد الحق وقمع الباطل، وبذل المال للضعفاء، وإفشاء الأخلاق الحسنة بين الناس، وخدمة الوالد، وصلة الأرحام، وإغاثة اللهفان، وعون الضعيف وغير ذلك مما لا حد له ولا حصر، وتقدّم قول: «إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق».

والمراد به في المقام الجهاد لإعلاء التوحيد ونصرة الحق ومقارعة الباطل وقمعه.

وذكر القتل في سبيل الله بعد قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ من باب ذكر أهم الأفراد وأعظم الأمور التي لا بد من الاستعانة بالصبر فيها، يعني إن الله تعالى مع كل صابر خصوصاً هذا القسم من الصابرين فإنه آخر درجة التصبر والاصطبار، فيمنحهم الله تعالى المعونة والأجر الجزيل.

---

(١) الأعراف، الآية ١٤٦.

قال تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾.

أي: لا تقولوا: في شأن مَن قتل في سبيل الله أنهم أموات مفقودون عن الحسن ذهبوا إلى دار الفناء بل هم أحياء حياة أبدية ولكن لا تشعرون بها، لأن حياتهم في غير هذا العالم المحسوس المدرك بالمشاعر.

والمراد بالحياة هنا الأعم من الحياة في عالم البرزخ والحياة الحقيقية لأجل إحياء الدين، والحياة في الذكر واللسان، نظير ما ورد عن علي عليه السلام: «هلك خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلبو موجودة» وهو من باب ذكر بعض الأفراد الذي لا يبقى لا من باب الحصر.

وقد ذكر المفسرون في معنى الحياة هنا ما لا يرجع إلى محصّل كما يأتي تفصيل الكلام فيها.

أقسام الحياة

الأول: الحياة الدنيوية الظاهرية المتقومة بتدبير النفس في البدن وإعمالها للقوى الظاهرية والباطنية في الجسم الدنيوي فقط.

الثاني: الحياة الذكرى عند الناس بعد ارتحال النفس عن البدن كما في العظماء والأكابر الذين خلدت أسماؤهم في التاريخ تعظيماً لجهودهم في العلم والأعمال الخيرية الصادرة منهم في حياتهم.

الثالث: الحياة الأبدية الخالدة التي لا يعلمها إلاّ الله تعالى.

وظاهر الآية المباركة والنصوص الواردة في حياة المقتول في سبيل الله، هو القسم الأخير، لفرض أنه بذل نفسه ونفيسه في سبيل الحي القيوم الأزلي الأبدي، طلباً لرضائه وامتثال أمره، ولا تحديد في هذه الحياة، كما بالنسبة إلى القسمين المتقدّمين. وتتبع هذه الحياة، الحياة بالمعنى الثاني، فما عن بعض المفسّرين من أنّ المراد خصوص القسم الثاني فقط، تخصيص للعموم بدون وجه.

إن قيل: مثل هذه الحياة ثابتة لكلّ فرد من أفراد المؤمنين ومعلومة لهم، فلا وجه لتخصيصها بالشهيد.

يقال: إنّ أصل الحياة بعد الموت وإن كانت ثابتة للمؤمنين ومعلومة لهم، لكن المستفاد من مجموع الآيات الشريفة والنصوص الواردة في حياة الشهيد، أن فيها مزايا خاصة فوق أصل الحياة بمراتب كثيرة، كما يدلّ عليها قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١].

والخطاب في الآية عام، لا يختصّ بطائفة خاصة، لا المشافهين ولا غيرهم، لما ثبت في علم الأصول من أن الخطابات الواردة في الشريعة المقدسة ـ خصوصاً ما ورد منها في القرآن الكريم ـ من قبيل القضايا الطبيعية الشاملة لجميع الأفراد.

فَمَن قال باختصاص الخطاب في المقام وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٢] بطائفة خاصة.

لا وجه له، إذ لا دليل عليه، بل هو مخالف لطريقة العرف والعقلاء في محاوراتهم، ولا سيما هذا الخطاب الوارد في مقام الترحّم على العباد، والترؤّف بهم.

والقتل في سبيل الله تعالى هو الشهادة في سبيله تعالى، والشهيد مشتقٌ منها، إلاّ أنّ الأول باعتبار أصل الحدوث، والثاني باعتبار الثبوت، والشهيد من أسماء الله تعالى، وهو بمعنى الحضور الفعلي بالنسبة إلى جميع ما سواه، ولعلّ إطلاق الشهيد على مَن قتل في سبيل

(١) آل عمران، الآية ١٦٩.
(٢) آل عمران، الآية ١٦٩.

الله تعالى، إنما هو لأجل حضوره لديه عزّ وجلّ متلبّساً بما عاناه من الصعاب والاضطهاد، أو حضور الملائكة لديه مبشّرين له بأعلى المقامات وأرفع الدرجات التي أُعدت له، ويصحّ الحمل على المعنى العام أي حضوره لديه للانتصار، وحضور الملائكة لديه لبشارته بالجزاء، والمراد من حضوره تعالى هو توجّهه الخاص به.

فالشهادة هي السفر من الخلق إلى الحقّ، ولا تختصّ بخصوص مَن بذل دمه في سبيل الله، بل تشمل كلّ مَن تحمّل الأذية مطلقاً في سبيله عزّ وجلّ، وفي جملة من الأحاديث: «المؤمن شهيد ولو مات في فراشه»، إلاّ أن للشهيد الذي بذل دمه أحكاماً خاصة، ويأتي تتمة الكلام في الآيات المناسبة.

والآية تدلُّ على تجرّد النفس، وهو حقّ لا ريب فيه، كما ثبت بالأدلة الكثيرة، وهو المستفاد من الكتب السماوية والقرآن المبين والنصوص المتواترة من السُنّة الشريفة، ويأتي في البحث الفلسفي تفصيل الكلام فيه.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾.

مادة: (بَلا) تأتي بمعنى الامتحان والاختبار، وتقدّم ما يتعلّق بها في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾[1].

والشيء من الألفاظ العامّة الشاملة للقليل والكثير، والجواهر والأعراض.

(١) البقرة، الآية ١٢٤.

والخوف توقّع المكروه ـ مظنوناً كان أو معلوماً ـ بعكس الرجاء، فإنه توقّع المحبوب كذلك.

والمعنى: لنمتحنكم بشيء من الخوف من العدو، أو بشيء من الجوع.

ولم يذكر سبحانه وتعالى متعلّق الامتحان ولا مورد الخوف والجوع، تعميماً للاختبار والامتحان في كلّ زمان ومكان، وبالنسبة إلى كلّ شخص.

ولهما مراتب كثيرة يحتمل أن يكون الامتحان بالنسبة إلى كلّ مرتبة بما تقتضيه المصلحة الإلهية.

قال تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾.

النقص يأتي بمعنى الخسران، وهو في مقابل التمام.

والمراد من الأموال الأعمّ من الأعيان والمنافع، وما يهتم الإنسان بحفظه، فيشمل الحيوان والعبيد وكلّ ما يبذل بإزائه المال.

كما أنّ المراد بالأنفس كلّ ما يتأثر الإنسان بفقده وورد النقص عليه ـ سواء كان من النقص في قوى النفس أو عروض الموت عليها ـ فيشمل النفس والأقارب والأصدقاء.

والثمرات جمع ثمرة، وهي وإن كانت داخلة في الأموال غالباً، لكن أفردها سبحانه وتعالى لتشمل ما ينبت في الأرض بالطبيعة، مما لا يملك لها فعلاً وينتفع بها الإنسان، كالمرعى، وجملة كثيرة من النباتات التي لها منافع هامة للإنسان وتكون غذاءً للحيوان.

ويصحّ أن يراد بالثمرات ـ مضافاً إلى ما ذكرناه ـ ثمرات القلوب أيضاً، وهي الأولاد، كما يعبّر عنهم بها كثيراً، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون: نعم. فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد».

والآية تشير إلى ملازمة ما تقدم من الأمور لدار الدنيا، المعبّر عنها في الفلسفة بـ(دار الكون والفساد)، كما أنها تفيد بأن الإيمان بالله تعالى لا يتقضي سعة الرزق ودفع الآلام ورفع المخاوف، بل إن ذلك يجري حسب قانون السببيّة، وما سنّه الله تعالى في عباده، وإنما يجريها حسب المصالح والحِكَم، ولذا نرى أن المؤمن يرى من البلاء ما لا يراه غيره، ليعلم مقدار صبره، أو يكمل إيمانه بها، ويتهذّب بالأخلاق الفاضلة.

ثم إنّ اختبار الناس من قبله تبارك وتعالى إنما يكون لأجل حكم ومصالح متعددة منها: توطني النفس على المصائب، وتهذيب النفس وتكميلها، والتأدب بمقاومة الحالات، وإتمام الحجّة، والتمييز بين الصابر وغيره، وقوة البصيرة، وصفاء السريرة، وتعلّم اللاحقين من السابقين كيفية مجاهداتهم واستقامتهم في الدين، وما يترتب على ذلك من البشارة العظمى والأجر الجزيل كما في ذيل الآية الشريفة.

ولا أثر لهذا الامتحان بالنسبة إلى علمه عزّ وجلّ، فإن الناس قبل الامتحان وبعده في علمه التام الأزلي على حدّ سواء.

ولأجل ذلك لا يختص الاختبار ببعض الأفراد دون بعض، بل يشمل جميع أفراد الإنسان، حتى الأنبياء والأولياء، بل نقول إن ذلك من سنن الحياة الإنسانية.

نعم، تارة: يكون الامتحان لإتمام الحجّة على نفس الممتحن (بالفتح)، كما مرَّ وهذا هو القسم الشايع.

وأخرى: يكون لأجل إتمام الحجّة على الناس بأن هذا الشخص خرج عن الامتحان وقابل للنبوّة والإمامة، كما بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام.

وأما بالنسبة إلى سيد الأنبياء، فإنه حاز مرتبة الجمع، ويجلّ عن ذلك، فإنه صلى الله عليه وآله أول الخلق كان كاملاً ومكمّلاً، وأن «آدم ومن دونه تحت لوائه يوم القيامة»، ولو كان عيسى وموسى عليهما السلام حيّين لم يسعهما إلاّ اتباعه كما ورد في الحديث، وروى الفريقان أنه قال: «لي مع الله حالات لا يسعني فيها ملك مقرّب، ولا نبي مرسل»، وعلى فرض وقوع الامتحان فإنما يكون لتثبيت علوّ مقامه عند الناس، كما عرفت آنفاً.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

أي: وبشر الصابرين على تلك المصائب الذين رضوا بقضاء الله تعالى وقدره، وسلموا أمورهم إليه، ولم تصدّهم المحن والمصائب عن شكر الله تعالى ولا عن عبادته وطاعته.

وإنما أطلق سبحانه وتعالى البشارة، لعدم إمكان تحديد المبشّر به

بحدّ معين، فإنه يختلف باختلاف مراتب الصبر والرضا، والمناط هو أهلية الصابر لتحمّل البلاء والمحن، خصوصاً إذا اقترن مع الرضا والتسليم، فإنه يكون حينئذٍ من أعلى الفضائل وأسناها، كما قال عزّ وجلّ.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

مادة (ص و ب) تستعمل في كل ما يصيب الإنسان من الخير والشر قال تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾[٢].

واستعملت المصيبة في كل ما يؤذي الإنسان في نفس، أو مال أو أهل. ولكن اختصت عند العرف بالنائبة فقط، وفي نصوص كثيرة أن كل ما يؤذي المؤمن فهو مصيبة حتّى انقطاع شسع نعله، والشوكة تدخل في بدنه، فتكون المصيبة في الشريعة بمعناها في اللغة من مطلق الإصابة.

والرجع والعودة بمعنى مصير الشيء إلى ما كان عليه أولاً نظير قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾[٣].

---

(١) التوبة، الآية ٥٠.
(٢) النساء، الآية ٧٩.
(٣) الأعراف، الآية ٢٩.

أي: إنّ كل ما لنا من الحياة والنِّعَم هو من عند الله تعالى وملك له، فهو اعتراف بالملكية له تعالى ذاتاً وتدبيراً وتسليماً ورضاءً بقضائه وحكمته.

وقول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرار بالرجوع إليه تعالى والجزاء على الأعمال. وفيه تسلية لكل مصاب ومظلوم وتوعيد لكل جائر وظالم.

والمعنى: وبشر الصابرين الذين يقولون: إنّا لله وإنّا إليه راجعون المعبرين بلسان مقالهم عن الإيمان بالقضاء والقدر والتسليم لأمره.

وقوله ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرار بالمبدأ والمعاد لله تعالى بالمطابقة، وحيث إنّ مبدأ الكل ومرجعهم يستلزم وحدة الذات والفعل وإلا لزم الخلف، فهذه الآية تدل على توحيد الذات وتوحيد الفعل بالملازمة، ولعظمة هذه الجملة قال نبيّنا الأعظم ﷺ: «أعطيت هذه الأمة شيئاً لم يعطه الأنبياء قبلهم وهو إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

والرجوع إلى الله تعالى إما غير اختياري أو اختياري، والأول هو المعاد الذي دلّت عليه جميع الكتب السماوية خصوصاً القرآن الكريم الذي أكد في هذا الموضوع تأكيداً بليغاً. وهو من الموضوعات التي ينبغي التأكيد عليها لأن به يثبت المبدأ ووحدانيته وإذا ثبت المبدأ ثبت المعاد لا محالة.

وأما الثاني أي الرجوع الاختياري إليه عزَّ وجلَّ فهو أن يهيىء الإنسان نفسه للحضور لدى الحي القيوم العالم بالسرائر والضمائر

حضور مجازاة لما فعل وعمل لا مطلق الحضور إذ الجميع حاضر لديه تعالى بهاذ النحو من الحضور.

وبعبارة أخرى: إن هبوط الإنسان من الحل الأرفع الأعلى إلى الحضيض الأسفل لا يوجب أن ينسى الإنسان ما نزل منه وأن يتدنّس بما وقع فيه، ولا بد له من التفكّر بالعروج والصعود وهذا هو الاسترجاع العملي ولا ينفع مجرد الاسترجاع القولي. وللاسترجاع العملي مراتب كثيرة ومقامات شريفة فصّلها العرفاء في كتبهم العرفانية.

قال تعالى: ﴿أولئك علهيم صلوات من ربهم ورحمة﴾.

بيان لبعض مراتب البشارة بعد ذكر الوصف الذي يستحقون به البشارة.

والصلاة هي التحية، والتزكية، والبركة والثناء الجميل، والجمع باعتبار الكثرة والتعدّد من نوع واحد أو أنواع متعددة حسب مراتب المصيبة وشدّتها.

وأما الرحمة فهي مطلق النعمة عاجلها أو آجلها. وإنما أتى بالجنس تعميماً لكل رحمة يكون المورد قابلاً لها في العاجل وهي حسن العزاء والتوفيق للرضا والتسليم بالقضاء، وفي الآجل من المغفرة والأجر الجزيل، فهو تعالى رحيم بهم أي رحمة مما يجدون أثرها في هذه الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

الإهتداء إصابة طريق الحق في الدنيا، والجنَّة في العقبى فهم المستعدون لنيل سعادة الدارين. ولا ريب في تحقق الاهتداء في الإسترجاع القلبي العملي.

وإتيان الجملة الإسمية المعرّفة الطرفين، والتأكيد بضمير المنفصل يؤكّد أن هذه الأوصاف لا تكون إلاّ في مَن صبر وسلّم الأمر إلى الله تعالى واعترفوا بأنهم لله وأنهم إليه راجعون[١].

(١) مواهب الرحمن، ١٦٤ ـ ١٩٥، ج (٢).

بحث عرفاني

كلّ مَن أحب شيئاً وعشقه لا يحلف بمحبوبه ومعشوقه إلا نادراً، بل لا يحلف به في الأمور المهملة، وإذا حلف يبرّ بحلفه ولا يحنث ولو أدى إلى بذل النفس والنفيس، والله تعالى أحب الموجودات إلى خلقه، وهو تعالى يطلب من خلقه أن يكونوا عباداً له عزّ وجلّ، يأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه، مطيعين له يراقبونه في جميع أمورهم، وتنظيم نظام العبودية يقتضي أن لا يبادروا إلى الحلف به.

كما لا يحلف أحد بمحبوبه فإنّه تعالى المحبوب الحقيقي لكلّ موجود، ولو حلفوا به فإنّ عبوديتهم له عز وجل تقتضي الوفاء به بكلّ ما أمكنهم(١).

(١) م ـ ن، ص٣٤٢ ـ ٣٥١، ج (٣).

الدعاء في القرآن

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

تحريض للدعاء بأسلوب بليغ، يشعر بالعطف والحنان والمحبّة، وترغيب الإنسان بالوصول إلى الفيض المطلق وغاية الكمال، وهي الرشاد، وفي الآية الشريفة تلميح لبعض شروط الدعاء، التي إذا توفرت تجعل الدعاء مستجاباً، وفي تعقيب شهر رمضان بهذا الخطاب فيه من الحثّ على الدعاء في هذا الشهر، وأنّ له اختصاصاً به والقبول فيه، ممّا يخفّف ثقل التكليف بالصوم فيه، وهذا ممّا دلّت عليه السنّة المقدّسة، ففي بعض الأخبار: «مَن فاته الدعاء في شهر رمضان، فلنتظر يوم عرفة، ومَن فاته الدعاء فيه، فلينتظر شهر رمضان المقبل».

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾.

السؤال: طلب معرفة شيءٍ واستدعاؤها، أو طلب مال.

وفي الأوّل يتعدّى إلى المفعول الثاني بنفسه تارة، وبحرف الجرّ أخرى، تقول: سألته كذا، وسألته عن كذا، قال تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ

ٱلْأَنفَالِۖ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾[3].

وإذا كان لطلب المال يتعدّى إليه بنفسه أيضاً، وبـ(من) أخرى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾[4].

والمعروف أنّ الطلب إذا كان من العالي إلى السافل، فهو أمر، وإذا كان بالعكس فهو سؤال، وإذا كان من المساوي فهو استفهام، وقد ذكرنا في الأصول أنّه لا كلية في ذلك.

ويختلف الدعاء عن السؤال في أنّ الأخير بمنزلة الغاية للأوّل.

والعبد، والعبودية، والعبادة: بمعنى التذلّل والخضوع، وتقدّم في سورة الحمد ما يتعلّق به.

وللعبد في القرآن دلالات:

الأولى: في مقابل الحرّ، وهو الذي يباع ويشتري كسائر الأمتعة، وله أحكام خاصة في الإسلام، مذكورة في الكتب الفقهية، قال تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ﴾[5].

الثانية: المخلصون من عباده تعالى، الذين لهم مع الله جلّ جلاله

(١) الأنفال، الآية ١.
(٢) البقرة، الآية ١٨٩.
(٣) المعارج، الآية ١.
(٤) الأحزاب، الآية ٥٣.
(٥) البقرة، الآية ١٧٨.

حالات، وله عزّ وجلّ معهم عنايات، ولهم في القرآن قصص وحكايات، وهم الذين استثناهم الشيطان عن غوايته، فقال تعالى حكاية عنه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١]، لأنهم اتّخذوا الله تعالى بذاته الأقدس معبوداً لأنفسهم، بتمام عنى العبودية الحقيقية، فاتّخذهم الله تعالى عباداً لنفسه، ومدحهم بأبلغ المدائح، ولعلّ أرقّها قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[٢].

الرابعة: عبدٌ لله تعالى، ولكنه يطيع الشيطان ويتّبعه، قال تعالى حكاية عنه: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا﴾[٣]، سواء كان مسبوقاً بالكفر ثم آمن كذلك، أم لم يكن، والجميع عبيده عزّ وجلّ، لكثرة رأفته وعنايته بخلقه، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾[٥]، مع أنهم كانوا من سحرة فرعون، فإنّ المنساق من هذه الآيات أن مجرد الإيمان بالله جلّت عظمته في مقابل الكفر به، يكفي في شمولها له، وهو مقتضى الرحمانية والرحيمية المطلقة له عزّ وجلّ.

وفي الكلام من العناية واللطف ما لا يخفى.

---

(١) ص، الآية ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) الفرقان، الآية ٦٣.
(٣) النساء، الآية ١١٨.
(٤) الحجر، الآية ٤٩.
(٥) الشعراء، الآية ٥٢.

قال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

القرب معلوم.

والقريب من أسماء الله الحسنى ـ وجميع أسمائه المقدّسة حسنى، وإنّما الوصيف إضافي، لا أن يكون حقيقياً ـ وهو إما أن يلحظ بالنسبة إلى الذات المقدّسة، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾(٢)، ويبيّن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(٣)، وقد فصّل ذلك في الفلسفة تفصيلاً دقيقاً، لعلّنا نشير إليه في ضمن المباحث الآتية.

أو يلحظ بالنسبة إلى رحمته الواسعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٤).

ويطلق القرب بالنسبة إلى المكان، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾(٥)، وهو كثير في القرآن.

وأخرى: بالنسبة إلى الزمان، قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾(٦).

وثالثة: بالنسبة إلى الفعل، كالتصرّف وغيره، قال تعالى: ﴿وَلَا

---

(١) هود، الآية ٦١.
(٢) سبأ، الآية ٥٠.
(٣) الحديد، الآية ٤.
(٤) الأعراف، الآية ٥٦.
(٥) التوبة، الآية ٢٨.
(٦) الأنبياء، الآية ١.

نَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾[١]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا نَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾[٣].

ورابعة: بالنسبة إلى النسب، كقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾[٥].

كما يطلق ويراد به القرب المعنوي من طرف الخلق، قال تعالى: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾[٨].

والقرب المعنوي: إما من الله تعالى بالنسبة إلى خلقه، ويصحّ أن يعبَّر عنه باللطف، والعناية، والرعاية، والقدرة، ونحو ذلك.

وإما من المخلوق بالنسبة إليه عزّ وجلّ، وهو حالة انقطاع إلى الله تبارك وتعالى، بحيث لا يعلم حقيقتها إلا المتقرّب إليه جلّت عظمته والعبد المتقرَّب منه، ولا يحيط بها إلاّ الله عزّ وجلّ، ولكلّ ما ذكرناه مراتب كثيرة.

والمراد بقربه تعالى - في المقام -: القرب باللطف والرحمة

---

(١) الإسراء، الآية ٣٤.
(٢) الإسراء، الآية ٣٢.
(٣) الأنعام، الآية ١٥١.
(٤) النور، الآية ٢٢.
(٥) النساء، الآية ٣٦.
(٦) النساء، الآية ١٧٢.
(٧) آل عمران، الآية ٤٥.
(٨) المطففين، الآية ٢٨.

والإجابة، الذي لا حدّ له ولا نهاية، لا أن يكون قرباً زمانياً أو مكانياً، فإنَّه تعالى يجلّ عنهما، وهو محيط بهما بالإحاطة القيّومية الحقيقية.

وربما يكون القرب فيه من قبيل قرب العلّة الحقيقية من المعلول المحتاج إليها، حدوثاً وبقاءً، وقد ورد في بعض الدعوات المأثورة عن الأئمّة الطاهرين عليهم السلام: «يا جاري اللصيق، يا ركني الوثيق»، كما ورد في بعض مخاطبات الله تعالى مع موسى بن عمران: «يا موسى أنا بدّك اللازم».

وكيف كان، وفيه الكناية اللطيفة، فإنّ فيه تمثيلاً لحاله في سهولة إجابة دعائه، وسرعة إنجاح حاجة مَن سأله، بحال مَن قرب مكانه.

قال تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾.

مادة (ج و ب) تأتي بمعنى القطع، ولها استعمالات كثيرة في القرآن بهيئات مختلفة، والجواب يطلق غالباً في مقابل السؤال.

والسؤال إن كان لطلب المقال، فجوابه المقال، وإن كان لطلب المنال، فيكون جوابه المنال.

ومن الأول قوله تعالى: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾[١].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾[٢]، أي أعطيتُ سؤلكما.

---

(١) الأحقاف، الآية ٣١.

(٢) يونس، الآية ٨٩.

والاستجابة: التحرّي والتهيؤ للجواب، يعبَّر بهما عن الإجابة، لعدم الانفكاك بينهما غالباً، لا سيما بالنسبة إلى الغنيّ المطلق والرحيم بعباده في جميع العوالم.

فهذه المفاهيم الثلاثة: أي: الدعاء، والإجابة، والاستجابة، من المفاهيم الإضافية بالنسبة إليه عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٣].

فالآية الشريفة في المقام تشتمل على علل الحكم، أي: أنّ الدّاعين لكونهم عباد الله، فإنّ الله قريب منهم، وقربه إليهم موجب لإجابة دعواتهم، وذلك أنّ عباده ملك له بالملكية الحقيقية، وهذه هي المقتضية لكونه قريباً منهم على الإطلاق، وإلا فإنّ ما سواه تعالى فقير بحدّ ذاته، وإنّما يملك بالملكية الاعتبارية بتمليك الملك الحقيقي للأشياء له، وهو الله سبحانه وتعالى، فلو لم يشأ الملكية لم يملك أحد، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[٤].

ثم ذكر سبحانه أنّ استجابة الدعاء منوطة بأمرين:

أحدهما: أن يكون الداعي داعياً بحسب الحقيقة، كما يدلّ عليه

---

(١) غافر، الآية ٦٠.
(٢) آل عمران، الآية ١٧٢.
(٣) الرعد، الآية ١٨.
(٤) فاطر، الآية ١٥.

قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِۖ﴾، فلا بد للداعي الذي يدعو لحاجته أن يكون عالماً بحقيقة الدعاء، صادقاً عليه التوجّه إلى الله جلّ شأنه، ومتوجّهاً إليه صادراً عن معرفة بحكمته وسعة رحمته، دون ما يدور في اللسان مع الغفلة عنه تعالى، وترشد إلى ذلك الآيات التي تدلّ على استجابة السؤال إذا كان عن فطرة، مثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[1]، وذلك لأنّ الاستحقاق كان بحسب الذات، فالسؤال كان عن الفطرة، ومن ذلك يظهر السرّ في إطلاق السؤال دون الدعاء على السؤال الصادر عن الفطرة، وإن لم يكن للسان فيه عمل، وهذا بخلاف الدعاء.

والأمر الثاني ما ذكره تعالى بعد ذلك:

قال تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى﴾.

أي أنّهم إذا أرادوا الإجابة والاستجابة، وإذا كان الله تعالى قريباً منهم، لا يحول بينه وبين دعائهم شيء، فلا بد لهم من الاستجابة فيما دعاهم إليه، والعمل بما أمرهم من الإيمان والعبادات، التي فيها صلاحهم وسعادتهم ورشدهم، ولا بد لهم من الإيمان بما يتّصف به من الصفات الحسنى، ولا بد لهم من المعرفة بأنه قريب يجيب دعوة الداع.

قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

الرشاد: ضد الغي. أي أنّ الأعمال والدعاء إذا صدرت عن روح

(١) الرحمن، الآية ٢٩.

الإيمان، يكون صاحبها راشداً مهتدياً، وقد تقدّم الوجه في إتيان كلمة (لعلّ) في أمثال المقام.

بحوث المقام

بحث أدبي

الآية الشريفة تشتمل على مضمون رفيع، بأحسن بيان، وأرق أسلوب، وأبلغ خطاب يلقى إلى السامع، وهو يُشعر بالعطف والحنان، واستقرار النفس بأنّ خالقها قريب منها، يسمع دعاءَ مَن يدعوه بكلّ ما يدعوه، وهي تتضمّن من الأنحاء الأدبية ما يلي:

الالتفات عن خطاب المؤمنين بأحكام الصيام إلى خطاب الرسول ﷺ، وفيه من التذكير لهم بالدعاء والطاعة، والتنويه بشرف الرسول ﷺ وعظمته.

إلقاء صيغة التكلّم للدلالة على كمال العناية بالدعاء والمدعوّين.

دلالة قوله تعالى: ﴿عِبَادِى﴾ على كمال الرأفة والاعتناء بالخلق، والاهتمام بالأمر، ولو قال: (خلقي أو الإنسان) وما أشبههما، لما أفاد ذلك.

إتيان الصيغة المؤكّدة في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ دون الفعل، للدلالة على ثبوتها ودوامها، كما أنّه حذف الواسطة ولم يقل «فقل إني قريب»، ليدلّ على أنّ الإجابة منحصرة فيه تعالى.

إتيان الفعل في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾، للدلالة على استمرار الإجابة وتجدّدها.

ويأتي في البحث الدلالي وجه إتيان ضمير المتكلّم مفرداً.

بحث دلالي

يستفاد من الآية الشريفة أمور:

الأوّل: إتيان ضمير المتكلّم المفرد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾، للدلالة على مزيد العطف والعناية، ومن سنّته جلّ شأنه في القرآن الكريم أنّه إذا كان في مقام إظهار الاقتدار والكبرياء والهيمنة، يأتي بضمير الجمع غالباً، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾[١]، وقوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾[٢]، وقوله عزلّ وجلّ: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا في ليلة القدر﴾[٥]، وغير ذلك ممّا هو كثير.

وإذا كان في مقام الامتنان والرأفة والتحنّن وإظهار المعيّة، يأتي بضمير المفرد، قال تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٦]،

---

(١) ق، الآية ٤٣.
(٢) يس، الآية ١٢.
(٣) الأحزاب، الآية ٧٢.
(٤) الدخان، الآية ٣.
(٥) القدر، الآية ١.
(٦) طه، الآية ٤٦.

وقال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾[1]، وفي المقام قال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾، فهو مشعر بالتوجّه والألفة، وتهييج الشوق ـ كأنّه ممّا يشبه اختلاط المتكلّم مع المخاطبين ـ ما لا يدركه الإعلام، ويقصر دون بيانه الأعلام.

الثاني: الوجه في إلقاء الخطاب إلى الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾، لأنّه ﷺ قائد الأمة ورأسها ورئيسها، بل إنّ ذلك ثبات له بالنسبة إلى جميع الخليقة، للإشارة إلى أنّ الدعاء لا بد من وروده من بابه، وهو خاتم الأنبياء، فإنّه الواسطة في الفيوضات الإلهية، وخاتمة جميع المعارف الربوبية، فهو الخاتم لما سبق، والفاتح لما استقبل.

وفيه نحو تعليم للناس في أن يسألوا أمهات الأُمور الدينية من النبي ﷺ، أو مَن يتبع طريقه علماً وعملاً، مع أنّ أسرار الحبيب لا يعرفها إلا الحبيب.

الثالث: أنّ شأن العبد بالنسبة إليه عزّ وجلّ هو الدعاء، وقد وعد تعالى الإجابة إن كان الدعاء جامعاً للشرائط، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[2].

وأما السؤال عن كنهه وذاته سبحانه وتعالى، فهو مرغوب عنه، إذ لا يدرك الممكن كثيره، ولا ينفع قليله، بل ربما يضر، ولذا ورد النهي

---

(١) طه، الآية ١٤.
(٢) آل عمران، الآية ٩.

في السنّة عن التعمّق في ذاته تعالى، ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، ولا معنى للسؤال عمّا هو قريب حاضر.

ومن العجائب أن أكون مسائلاً عن حاضرٍ لا زلت أصحبه معي

الرابع: تكريم الداعي السائل بالإضافة التشريفية المعبودية في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾، وفيه من الأدب ما لا يخفى، وتعليم للعلماء باحترام السائل عن الحق.

الخامس: تضمين الأمر بالدعاء معنى الإجابة في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾، فإنّه بشارة باستجابة الدعاء، ثم التأكيد بقوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾، فإنّه سواء كان خاصاً بخصوص هذه الآية، أم عاماً لجميع التشريعات، فإنّه يدل على تحقّق مفاد الآية، واتباع ذلك بقوله تعالى: ﴿لعلهم يرشدون)، وهو تأكيد آخر، ولبيان أن الدعاء سبب الرشد، الذي هو إصابة الحق والخير، وإليه يشير قول نبينا الأعظم ﷺ: «إنّ أعجز الناس مَن عجز عن الدعاء، وأبخل الناس مَن بخل عن السلام».

السادس: أنّ قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِّ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾، يدلّ على شروط استجابة الدعاء، أحدها سيق لبيان الموضوع، وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِّ﴾، فإنّه معلوم ممّا قبله، ولكنّه ذكر لأجل التنبيه على أنّه ليس كلّ مَن يدعو الله لحاجة هو داعياً لله بحقيقة الدعاء، لفقد الانقطاع وعدم التوجّه إليه تعالى، فلا يكون هناك مواطاة بين القلب واللسان، ولا يكون دعاء، بل التبس الأمر على الداعي، فيسأل ما يجهله، أو ما

لا يريده لو انكشف الأمر له، أو يكون سؤال لكن لا من الله تعالى وحده، ولذا ورد أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب لاه، متعلّق بالأسباب المادية، أو الأمور الوهمية، فلم يكن دعاؤه خالصاً لوجه الله تعالى، فلم يسأله بالحقيقة.

وهذا هو المستفاد من مجموع الآيات الواردة في الدعاء والأحاديث الشارحة لها.

السابع: أنّ إفراد الضمير في (عنّي) و(إنّي)، و(أُجِيبُ)، فيه إشارة إلى أنّ إجابة الدعاء منحصرة به تعالى، ولا دخل لغيره فيها، لأنّه تصرّف من عالَم الملكوت الأعلى في عالَم الملك الأسفل، ولا يليق بذلك غيره عزّ وجلّ.

نعم، الاستشفاع والتوسل بعباد الله الصالحين، الذين جعلهم الله تعالى واسطة الفيض لديه شيء آخر، لا ربط له بإجابة الدعاء، كما لا يخفى.

مع أنّ الحنان والرأفة وجذب الداعي إلى مقام القرب يقتضي توحيد الضمير، لئلا يعرض على قلب الداعي هيبة العظمة، فتشغله عمّا يحتاجه من قليل أو كثير.

كما أنّ في تكرار ضمير الإفراد في (عنّ)، و(إنّي)، إشارة إلى أنّ المسؤول عنه نفس القريب المجيب وعينه، ولا فرق إلا بالإضافة الاعتبارية. فإنّه إذا أضيف إلى السائل يكون مسؤولاً عنه، وإذا أُضيف إلى نفسه الأقدس يكون قريباً مجيباً، وإن كانت إضافته من صفات فعله

لا من صفات ذاته، وفي المقام سرّ آخر، لعلّه يظهر في الآيات المناسبة.

بحث روائي

في الكافي: عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أفضل العبادة الدعاء».

وفي عدّة الداعي: عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادة الدعاء، وإذا أذن الله لعبد في الدعاء فتح له أبواب الرحمة، إنّه لن يهلك مع الدعاء أحد».

أقول: الروايات في فضل الدعاء وآدابه وكيفيته كثيرة متواترة بين المسلمين، يأتي التعرّض لبعضها في البحوث الآتية.

في تفسير العياشي: عن ابن أبي يعفور، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾، قال عليه السلام: «يعلمون أنّي أقدر على أن أعطيهم ما يسألون».

أقول: يريد عليه السلام أنّه ليس المراد بهذا الإيمان الإيمان بأصل التوحيد في مقابل الشرك، بل الإيمان باستجابة الدعاء.

وفي المجمع: عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾، أي: «وليتحققوا أني قادر على إعطائهم ما سألوه»، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، أي: «لعلهم يصيبون الحق، أي يهتدون إليه».

أقول: يظهر وجهه ممّا سبق.

وعن ابن عباس: «قالت اليهود: كيف يسمع ربّنا دعاءنا، وأنت تزعم أنّ بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغلظ كلّ سماء ذلك؟ فنزلت الآية: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلم يرشدون﴾».

وروي أنّ قوماً قالوا للنبي ﷺ: «أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد ربنا فنناديه؟ فنزلة الآية المباركة».

وروي أنّ سبب نزولها: «أنّ النبي ﷺ سمع المسلمين يدعون الله بصوت رفيع في غزوة خيبر، فقال لهم النبي ﷺ، أيّها الناس أربعوا على أنفسكم، فإنّكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً، إنّكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم».

أقول: يمكن أن تكون جميع هذه الأخبار معتبرة كلّ بحسب طائفة وقوم، فتختلف باختلاف الجهات.

أما الأوّل: فبحسب مزاعم اليهود، حيث زعموا أنّ سمعَ الله يكون كسمعنا، يحجب بالحجاب، ولكنّه باطل، لأنّ المراد بسمعه تبارك وتعالى: العلم بالمسموعات، والإحاطة بها، كما في جملة من الروايات، ولذا لا يشغله سمع عن سمع، لأنّ علمه الإحاطي يشتمل على جميع ما سواه.

أما الثاني: فيكشف عن جهلهم بالحقائق.

وأما الأخير: فهو ناشٍ عن سوء أدبهم، فإنّ الآية المباركة ترشد إلى نبذ بعض العادات السيئة التي كانت سائدة عندهم، فيكون مثل قوله

تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٢].

بحث علمي

الدعاء من أقوى الأسباب في نجح المطلوب، وأعظمها في نيل المقصود، ومن أشدّ روابط القرب إلى المعبود، ولا ينفكّ عنه الإنسان في جميع مراحله وأطواره، وجميع نشآته، سواء بلسان الاستعداد والفطرة، أم بلسان المقال، ولا يخلو كتاب إلهيّ من الحثّ عليه، وهو العبادة التي أُمرنا بإتيانها، والراغب عنه عدّ من المستكبرين عن رحمة الرحمن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٣]، وعن السجّاد عليّ بن الحسين عليه السلام في صحيفته الملكوتية، بعد ذكر الآية المباركة: «فسمّيتَ دعاءَك عبادةً، وتركه استكباراً، وتوعّدت على تركه دخول جهنم داخرين، فذكروك بمنّك وشكروك بفضلك، ودعوك بأمرك، وتصدّقوا لك طلباً لمزيدك، وفيها كانت نجاتهم من غضبك وفوزهم برضاك»، والبحث في الدعاء من جهات كثيرة، نذكر في المقام الأهم منها، ويأتي المهم في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

---

(١) النور، الآية ٦٣.
(٢) الحجرات، الآية ٤.
(٣) غافر، الآية ٦٠.

فضل الدعاء

للدعاء فضل كبير، وقد أُمرنا به في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وقد عبّر عنه بالعبادة في الآية الشريفة المتقدّمة، ويكفي في فضلها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾(١)، فهو سبب اعتناء الله تعالى بخلقه، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾(٢)، فإنّه كفى فضلاً في أنه تعالى بنفسه الأقدس، يجيب دعوة الداع من دون واسطة في البين، وقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٣)، حيث رتّب الاستجابة على الدعاء، وهذا من عظيم الفضل.

وأما السنّة: فقد وردت روايات كثيرة متواترة من الفريقين في فضل الدعاء، واستحبابه مطلقاً:

فعن النبي ﷺ فيما رواه الفريقان: «الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدّين، ونور السماوات والأرض».

(١) الفرقان، الآية ٧٧.
(٢) البقرة، الآية ١٨٦.
(٣) غافر، الآية ٦٠.

وعن الصادق عليه السلام: «الدعاء يردّ القضاء، بعد ما أُبرم إبراماً».

وعن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: «عليكم بالدعاء، فإنّ الدعاء والطلب إلى الله عزّ وجلّ يرد البلاء وقد قدّر وقضي، فلم يبق إلا إمضاؤه، فإذا دعي الله وسئل صَرْفَ البلاء، صَرَفه».

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ الدعاء يردّ القضاء المبرم وقد أُبرم إبراماً، فأكثر من الدعاء، فإنه مفتاح كلّ رحمة، ونجاح كلّ حاجة، ولا ينال ما عند الله إلا بالدعاء، فإنّه ليس من باب يكثر قرعه إلا أوشك أن يفتح لصاحبه».

وفي الكافي، عن أبي عبد الله عليه السلام: «عليكم بالدعاء، فإنّكم لا تتقرّبون بمثله، ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تدعوا بها، إنّ صاحب الصغار هو صاحب الكبار».

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى يعلم ما يريد العبد إذا دعاه، ولكنه يحبّ أن تبث إليه الحوائج، فإذا دعوت فسمِّ حاجتك».

وفي الكافي: عن ميسر عن الصادق عليه السلام: «يا ميسر، ادع ولا تقل: إنّ الأمر قد فرغ منه، إنّ عند الله عزّ وجلّ منزلة لا تنال إلا بمسألة».

وعن الصادق عليه السلام أيضاً في رواية ابن القداح: «الدعاء كهف الإجابة، كما أنّ السحاب كهف المطر».

وعن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام: «الدعاء هو العبادة، التي قال

الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ادع الله عزّ وجلّ، ولا تقل إنّ الأمر قد فُرغ منه».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الدعاء تِرس المؤمن، ومتى تكثر قَرع الباب يفتح لك».

وعن أبي عبد الله عليه السلام في رسالة طويلة إلى أصحابه: «أكثروا من أن تدعوا الله، فإنّ الله يحبّ من عباده المؤمنين أن يدعوه، وقد وعد عباده المؤمنين الاستجابة، وإليه مصير دعاء المؤمنين يوم القيامة، لهم عملاً يزيدهم في الجنّة».

وعن الباقر عليه السلام: «ولا تمل من الدعاء، فإنّه عند الله بمكان».

وعن علي عليه السلام: «الدعاء مخ العبادة».

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادة الدعاء، وإذا أذن الله لعبد في الدعاء، فتح له أبواب الرحمة، إنّه لن يهلك مع الدعاء أحد».

وعن الرضا عليه السلام: «عليكم بسلاح الأنبياء، فقيل: ما سلاح الأنبياء؟ قال عليه السلام: الدعاء».

وعن الصادق عليه السلام: «الدعاء أنفذ من السنان».

وعن العبد الصالح عليه السلام: «الدعاء جُنّة منجية، تردّ البلاء وقد أُبرم إبراماً».

وعن علي عليه السلام: «الدعاء مفاتيح النجاح ومقاليد الفلاح، وخير

الدعاء ما صدر عن صدر نقي وقلب تقي، وفي المناجاة سبب النجاة، وبالإخلاص يكون الخلاص، فإذا اشتدّ الفزع فإلى الله المفزع».

وقال نبيّنا الأعظم ﷺ: «ألا أدلُكم على سلاح ينجيكم من أعدائكم، ويدرّ أرزاقكم؟ قالوا: بلى. قال: تدعون ربكم بالليل والنهار، فإنّ سلاح المؤمن الدعاء».

وعنه ﷺ: «ادفعوا أبواب البلاء بالدعاء»، إلى غير ذلك من الأخبار المذكورة في كتب الفريقين.

حقيقة الدعاء

الدعاء: هو الوسيلة بين العبد وخالقه، واتّصال من عالَم المُلْك بعالَم المَلكوت، الذي هو من أهم الأسباب الطبيعية الاختيارية الواقعية، لنجح المطلوب والنيل إلى المقصود، فإنّه كما تترتّب المسبّبات على الأسباب المقتضية لها، فإنّ قانون السببيّة الذي جعله الله تعالى وسيلة لتحقّق المسبّبات الوجودية من دون أن يكون في البين فيض من الأسباب مستقلّة من دون الله تعالى، كذلك فإنّ للإنسان شعوراً باطنياً وحسّاً وجدانياً، أنّ له ملجأ يأوي إليه في حوائجه ليقضيها، وأنّ له سبباً معطياً، لا ينضب معينه، وهو مسبِّب الأسباب، وهو ليس كالأسباب الظاهرية التي يمكن أن يتخلّف عنها أثرها. وهذا الشعور الباطني يكن أن يشتدّ عند فرد، بحيث لا يرى للمسبّبات إلا سبباً واحداً، وينقطع عن أي سبب دونه، فيعتصم به، ولا يتخلّى عنه، ويتوكّل عليه في كلِّ حوائجه، فتنكشف لديه الأشياء على حقائقها، ويرى زيف الأسباب.

نعم، قد يعرض على هذا الشعور الباطني والحسّي الوجداني بعض الظلمات والأوهام، فيوجب طمس هذا النور الفطري أو خفائه،

تبعاً لشدّة ما يتخيّله وضعفه، فيتخيّل خلاف ما هو المركوز في فطرته، وهذا لا يختصّ بهذا النور الفطري، بل يشمل جميع ما يتعلّق بالفطرة والشعور الباطني، ولذا قد يرجع ويفيء إلى فطرته عند تزاحم المشاكل وعدم نفع أي سبب في رفعها، كما ورد في قضية مَن ركب البحر، فانكسرت به السفينة وأيقن بالهلاك، فعند ذلك يدعو مَن ينجيه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[١].

ولا يُستفاد من ذلك أنه حينئذٍ لا يمكن تخلّف المدعو عن الدعاء، إذا كان الأمر كذلك، فإنّ أمر الدعاء والمسبّبات الظاهرية في ذلك سواء، فإنّه كثيراً ما كانت هناك عوامل تثبّط الأسباب وتمنعها عن الأثر، فكذلك في الدعاء، فإنّ هناك موانع كثيرة عن تحقّق المدعو به، قد ندركها، وقد لا ندركها، بل الأمر في الدعاء أشدّ، لفرض أنه ارتباط مع عالم الغيب غير المتناهي الخارج عن الحس، فلا بد أن تكون الأسباب الموصلة إليه أدقّ وأرقّ، وهذا محسوس في عالَم الماديات أيضاً، فإنّ كلّما كان الشيء ألطف وأدقّ، كان السبب الموصل إليه كذلك.

فحقيقة الدعاء هي الشعور الباطني في الإنسان بالصلة والارتباط

---

(١) يونس، الآية ٢٢.

بعالَم لا مبدأ له ولا نهاية، ولا حدّ ولا غاية لسعة رحمته وقدرته وإحاطته بجميع ما سواه، فوق ما نتعقّل من معنى السعة والإحاطة والقدرة، يقضي له حوائجه، بحيث يجعل المدعو تحت قدرة الدّاعي جميع وسائل نجح طلباته، فيقع التجاذب بين الموجودات الخارجية وبين قلب هذا الداعي، فيصير موجداً وفاعلاً لما يدعو به، فيتّحد الداعي والدعوة والمدعو به في بعض المراتب، ولا تحصل هذه المرتبة إلا لمَن انسلخ عن ذاته بالكلية، وفنى في مرضاة الواحدية الأحدية، فلا يرى في الوجود سوى المدعو، سواء كان ذلك ملكة أم حالاً، فيتّحد العاقل والمعقول، كما أثبته بعض أكابر الفلاسفة، ولعلّه المراد من الاسم الذي هو غيب الغيوب والسرّ المحجوب، فروح الدعاء هي ارتباط الداعي مع الله عزّ وجلّ بالشرائط المقرّرة المذكورة في محالها.

ما أُورد على الدعاء:

بيّنا أنّ حقيقة الدعاء هي ارتباط خاص بين الإنسان وعالَم لا مبدأ له ولا حدّ، ولكن أُورد على الدعاء إيرادات كثيرة، أهمّها هي:

الأوّل: ما عن الماديين الذين ينكرون الغيب، أي: ما وراء المادة من المبدىء الحي الأزلي، وإنكار ربط الحوادث به، وارتباط العالَم بالمادة فقد على نحو العلّية التامة، ولذلك أنكروا الدعاء والتوسّل إليه في نيل المطلوب ونجحه.

ويردّه: ما أثبته جميع الفلاسفة من وجود مبدىء غيبي، وأنّ الحوادث جميعها مستندة إليه، وأنّ الشرائع الإلهية قد أثبتت ذلك

بألسنة مختلفة، وتفصيل البحث موكول إلى الفلسفة الإلهية وعلم الكلام. وأنّ المادة والجهد من قبيل المقتضيات، لا العلل التامة، ولذلك لا بد من التوسّل إليه، والإفاضة منه بعد السّعي والجد، لتمهيد السبيل للنيل إلى المطلوب.

الثاني: أنّ المبدىء موجود، وأنّه حيّ أزليّ، ولكنّ الحوادث الجزئية الخاصة غير مستندة إليه، بل أصل حدوث العالَم وخلقه في الجملة ينتهي إليه بخلافها، وقد تشعّب عن هذا الرأي مذاهب:

منها: ما عن اليهود كما حكاه الله تعالى عنها: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[١].

ومنها: ما نسب إلى بعض، من أنّ مناط الحاجة الحدوث في الجملة فقط دون البقاء، حتّى قال: «لو جاز على الواجب العدم، لما ضرّ عدمه وجود العالَم».

وهناك مذاهب أخرى قد تعرّضوا لها كلّ في محله، ولذلك أنكروا الدعاء، وقالوا إنّه لا يسمن ولا يغني من جوع.

ويردّه: ما أثبتوه بالأدلة العقلية من أنّ مناط الحاجة الإمكان، وهو حليف ما سوى الله تعالى، حدوثاً وبقاءً، في جميع الأزمنة والأمكنة، وإذا كان كذلك، فلا بد من التوسّل إليه، والإفاضة منه، لفرض الافتقار إليه في ما سواه تعالى، بلا فرق في تلك المذاهب.

---

(١) المائدة، الآية ٦٤.

الثالث: أنّ الحوادث معلومة عنده جلّت عظمته، ولا تغيّر في العلم، فلا تغيّر في الحوادث أيضاً، فلا مجال للدعاء حينئذٍ في الحوادث بعد فرضَ تعلّق علمه تعالى بها.

ويردّ.. **أولاً**: أنّ هذا مبنيّ على كون علمه تعالى علّة تامّة منحصرة لمعلوماته عزّ وجلّ، وهو باطل عقلاً ونقلاً، كما ثبت في الفلسفة الإلهية، وسنتعرّض في الآية المناسبة له إن شاء الله تعالى.

وثانياً: العلم تعلّق بها متغيّراً، فالتغيّر في المعلوم بالعرض، لا في العلم والمعلوم بالذات، إذن لا إشكال في صحة التوسّل إليه تعالى، والدعاء للنيل إلى ما هو الصالح.

الرابع: أنّ الحوادث التي ترد على عالمنا مقدّرة ومقضية أزلاً، ولا تغيّر ولا تبدّل في القضاء والقدر، فلا معنى للدعاء والتوسّل بعد نزول الحادثة، وقد عبِّر عن هذا الإيراد بتعابير مختلفة أخرى.

ويردّه: أنّ القضاء والقدر من مراتب فعله جلّ شأنه، وليسا في مرتبة الذات، وفعله تعالى قابل للتغيّر مطلقاً، وقد ورد في بعض الروايات أنّ الدعاء يردّ القضاء وقد أُبرم إبراماً، فيصحّ التوسّل إليه لأجل زوال الحادثة، أو تغيير الحال.

الخامس: أنّ الدعاء من قبيل تحقّق المعلول بلا علّة، وهو محال كما ثبت في محله.

ويرده: أنّ الدعاء لا ينافي قانون العلّية والمعلوليّة، أو سائر

نواميس الطبيعة، بل إنّه يكون سبباً لتحقق المسبب المستند إلى سببه الخاص.

السادس: أن الآيات الشريفة الدالّة على الحثّ على العمل، ونيل الأجر به، تنافي سبل الدعاء، مثل قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[٣]، وغيرها من الآيات المباركة، فإنّ ظاهرها حصر التأثير في العمل، وأنّ الأجر منحصر فيه.

ويردّه.. أولاً: أنه لا تنافي بين تلك الآيات المباركة وبين ما أمر بالدعاء، مثل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٥]، لأنّ الدعاء بلا عمل لا أثر له، وإنّه ممّا لا يستجاب، كما يأتي في الروايات.

وثانياً: أنّ الدعاء بنفسه عمل خاص وتوجّه إليه تعالى، فلا تنافي بين ما دلّ على الترغيب بالعمل، وبين أن يأمر بالدعاء.

وهناك دعاوى أُخرى نسبت إلى مَن لم يعتقد بالدعاء، أدلّتها موهونة جداً، أعرضنا عن ذكرها.

---

(١) التوبة، الآية ١٠٥.
(٢) الكهف، الآية ٣٠.
(٣) النجم، الآيتان ٣٩ ـ ٤٠.
(٤) الأعراف، الآية ٥٥.
(٥) غافر، الآية ٦٠.

الدعاء ارتباط روحي

ذكرنا أنّ حقيقة الدعاء هي الاتصال بمبدىء لا نهاية لعظمته وقدرته ومالكيته وقهّاريته، والتوسّل إليه بالترابط الروحي بين الداعي والمدعو، يلتمس منه الداعي نجح مطلوبه، وقضاء حاجته، فيلهم الله تعالى الداعي ما يرشده إلى مطلوبه، فيكون الدعاء ضرباً من التأثير الروحي، وذلك يتوقّف على معرفة الله جلّ شأنه رب الأرباب وله السلطان التام، وأنّ جميع الأسباب راجعة إليه عزّ وجلّ، والإذعان بأنّها الواسطة في التأثير فقط، وأنّ المؤثّر هو الله وحده، وإلى ذلك يشير ما ورد عن رسول الله ﷺ: «لو عرفتم الله حقّ معرفته، لزالت لدعائكم الجبال».

والوجه في ذلك واضح، فإنّ الجهل بمقام الربوبية العظمى، والاعتقاد بقانون السببيّة التامة في الأسباب والمسبّبات الخارجية، يوجب البعد عن ساحة الرحمن، والإذعان بحقيقة التأثير للأسباب العادية، وينتهي إلى الغفلة عنه، ويقابل ذلك التوجّه إليه ومعرفته تبارك وتعالى، فإنّ مقتضى مالكيته جلّت عظمته لجميع ما سواه، وربوبيته العظمى لها، واستغناؤه عزّ وجلّ عن الكلّ، واحتياج الكلّ إليه، هو

سؤال الكلّ منه عزّ وجلّ، ودعاؤه له بلسان الحال والاستعداد، لأنّ مناط السؤال والدعاء إنّما هو الحاجة، وهي من لوازم الإمكان. وكلّ ممكن، سواء كان من المجردات، أم الماديات بجواهرها وأعراضها، جميعاً داع له، وسائل منه بلسان الافتقار إليه، والانقهار لديه، وإن لم نفقه سؤال كثير من الممكنات.

نعم، السؤال، والدعاء القصدي الاختياري، والتوجّه الفعلي من شؤون الإنسان، فإنّ له شأناً ومنزلة عنده تعالى، يحبّ السماع إليه، فيلتذ أولياء الله تعالى بالدعاء والمناجاة، ويبتهج الله جلّت عظمته بذلك ابتهاجاً، لا يحيط به غيره، ففي الحديث: «إنّ الله يعلم حاجتك، وما تريد، ولكن يحبّ أن تبثّ إليه الحوائج، فإذا دعوت فسمّ حاجتك»، وفي أخبار كثيرة أنّ الله تعالى قد يؤخّر إجابة دعاء عبد، لأن يسمع صوته وتضرّعه، ويعجّل إجابة بعض الدعوات، لأنّه تعالى لا يحبّ سماع صوت داعيه وتضرّعه.

ولكن ذلك لا يوجب إلغاء ناموس العلّية والمعلولية بين الأشياء، بل قد أثبتنا في المباحث السابقة أن هذا القانون حقّ لا ريب فيه، وأنّه «أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها»، إلا أنّ الدليل العقلي أثبت الواسطة لها دون الانحصار، والدعاء داخل تحت هذا القانون، وأنّه من طرق العلّية للأشياء، والتقريب بين الأسباب والمسبّبات، واقعاً وإن لم ندركه ظاهراً، وإليه يشير ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: «ثم جعل في يديك مفاتيح حزائنه، بما أذن لك

فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته، فلا يقنطنك إبطاء إجابته».

شروط الدعاء

للدعاء شروط كثيرة جداً، مذكورة في القرآن الكريم والسنّة المقدّسة، وهي تنقسم إلى شروط الصحّة، فلا يصحّ الدعاء بدونها، وشروط كمال له.

أما شروط الصحة فهي:

الأول: الإيمان بالله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[١].

الثاني: الإخلاص في الدعاء وعقد القلب عليه، وحسن الظن بالإجابة، قال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾[٢].

وفي الكافي: عن الصادق عليه السلام: «إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه شيئاً إلا أعطاه، فلييأس من الناس كلّهم، ولا يكون له رجاء إلا

(١) البقرة، الآية ١٨٦.
(٢) يونس، الآية ١٠٦.

عند الله، فإذا علم الله ذلك من قلبه لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه»، وعن الصادق عليه السلام: «إذا دعوت فأقبل بقلبك، وظنّ حاجتك بالباب»، وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «لا يقبل الله دعاء قلب ساه».

وفي الكافي: عن سليمان بن عمرو، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ الله عزّ وجلّ لا يستجيب دعاءً بظهر قلب ساه، فإذا دعوتَ فأقبل بقلبك، ثم استيقن بالإجابة».

وفي نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ العطيّة على قدر النية».

وفي عدّة الدّاعي: عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله قال الله: «ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السموات وأسباب الأرض من دونه، فإن سألني لم أعطه، وإن دعاني لم أجبه. وما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي إلا ضمّنت السموات والأرض رزقه، فإن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته، وإن استغفرني غفرت له»، والحديث ظاهر في أنّ إجابة الدعاء منوطة بالإخلاص.

وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، فلا يظن بي إلا خيراً»، وهو ظاهر في أنّ في التردد واليأس لا تكون إجابة، فلا بد من العزم على السؤال.

وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»، إلى غير ذلك من الأخبار، وقد تقدّم الوجه في ذلك أيضاً، بأنّ في الإعراض والسهو والغفلة لا تتحقّق حقيقة الدعاء.

الثالث: اليأس من غير الله تعالى، لأنّه ربّ السموات والأرض، عنده مفاتيح الغيب، يعطي لمَن يريد، ويمنع عمّن يريد، والعلم بأنّه تعالى إنّما يقضي الحوائج حسب المصلحة، فإنّ الإنسان لا يعرف الحقائق ويجهلها، وربما يسأل ما هو شرّ وأنّ الله تعالى يبدّله إلى الخير، وربما يسأل الخير فيؤخّره، إذ المصلحة في التأخير، ففي نهج البلاغة عن عليّ عليه السلام: «وربما أُخّرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيء فلا تؤتاه وأُوتيت خيراً منه، عاجلاً أو آجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلربّ أمر قد طلبته فيه هلاك دينك أو أُوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، وينفى عنك وباله، والمال لا يبقى لك ولا تبقى له».

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزّ وجلّ: مَن سألني وهو يعلم أنّي أضرّ وأنفع، استجبت له»، وذلك لأنّ إجابة دعاء الداعين لا بد أن تكون على طبق الحكمة البالغة والعناية التامة، المحيطة بالحقائق، كلياتها وجزئياتها، لا على طبق مشتهيات الداعين والسائلين، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[١]. فإنّ الإنسان كثيراً ما يهتم بشيءٍ حتى إذا ما تحقّق وجده ضاراً، أو يكره شيئاً حتّى ما إذا تحقّق وجده نافعاً، وهذا وجداني محسوس لدى كلّ فرد، فالدعاء بما يتخيّله الإنسان أنّه نافع شيء، وما هو الواقع الذي في

(١) البقرة، الآية ٢١٦.

علمه تعالى شيء آخر. فإنّ التسرّع في إجابة الدعاء وقضاء الحوائج بلا تأمل في اللوازم والملزومات والآثار، نقض في الحكمة، وهو محال بالنسبة إليه تعالى.

نعم، نفس الدعاء والمسألة من سنّن العبودية، ولا بد من تحقّقها من العبد، وأما الاستجابة فهي منوطة بالحكمة البالغة والعلم الأزلي.

الرابع: أن يكون المراد خيراً ممكناً، بأن لا يكون من المحالات الذاتية أو العادية، وممّا لا نفع له؛ أو ممّا يضرّ بحال الآخرين، أو نهى عنه الشارع ونحو ذلك، فإنّ مثل هذا الدعاء ممّا لا يستجاب، وذكل لأن الله تعالى: «أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها»، وقد تقدّم في أحد المباحث السابقة أنَّ المستحيلات وإن كانت تحت قدرته تعالى، ولكنّه عزّ وجلّ لم يفعلها، لاستلزامه نقض الحكمة، ففي الحديث عن علي عليه السلام: «اثنوا على الله عزّ وجلّ وامدحوه قبل طلب الحوائج، يا صاحب الدعاء لا تسأل ما لا يحل ولا يكون».

وفي الكافي: عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «لا تمل من الدعاء، فإنّه من الله بمكان، وعليك بالصبر وطلب الحلال، وصلة الرحم»، إلى غير ذلك من الروايات.

الخامس: طيب المكسب والعمل الصالح، ففي الحديث عن الصادق عليه السلام: «مَن سرّه أن تستجاب دعوته، فليطب مكسبه»، وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر: «يا أبا ذر، يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح، يا أبا ذر، مثل الذي يدعوه بغير عمل، كمثل

الذي يرمي بغير وتر، يا أبا ذر، إنّ الله يصلح بصلاح العبد ولده وولد ولده، ويحفظه في دويرته، والدور حوله ما دام فيهم».

وعن زرارة عن الصادق عليه السلام: «الداعي بلا عمل، كالرامي بلا وتر».

وفي عدّة الداعي: «إنّ الله أوحى إلى عيسى: قل لظلمة بني إسرائيل: لا تدعوني والسحت تحت أقدامكم، والأصنام في بيوتكم، فإنّي آليت أن أُجيب مَن دعاني، وإنّ إجابتين إياهم لعناً عليهم حتى يتفرّقوا».

وفي الحديث القدسي: «لا تحجب عنّي دعوة، إلا دعوة آكل الحرام».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لرجل حين ما قال له: أحبّ أن يستجاب دعائي، فقال صلى الله عليه وآله: «طهّر مأكلك، ولا تدخل بطنك الحرام».

السادس: أداء مظالم الناس وحقوقهم، فقد ورد عن الصادق عليه السلام: قال الله عزّ وجلّ: «وعزّتي وجلالي، لا أُجيب دعوة مظلوم دعاني في ظلمة، أو لأحد عنده مثل تلك المظلمة».

وفي عدّة الداعي: «أوحى الله إلى عيسى: قل لظلمة بني إسرائيل: إنّي لا أستجيب لأحد منهم دعوة، ولأحد من خلقي عندهم مظلمة»، وتقدّم في بحث التوبة ما يتعلّق بالمقام.

شروط الكمال للدعاء

تقدّم أنّ من الشروط في الدعاء هي شروط الكمال له، ولا ريب في حسن مراعاتها في هذه الحالة، التي يرغب الداعي استجابة دعواته، وهي كثيرة.

الأول: الطهارة من الحدث والخبث، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[١].

الثاني: الدعاء بالمأثور عن المعصومين، لأنّه تكلّم مع الله عزّ وجلّ، كما أنّ القرآن تكلّم الله مع العبد، فينبغي في الدعاء أن يكون مأثوراً، ومستنداً إلى الشرع، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[٢]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[٣].

وعن صدر المتألّهين(قدس الله نفسه الشريفة): «فكما أنّ أجساد البشر تكرّم بكرامة الروح، فكذلك أصوات الكلام، تكرّم وتشرّف بشرافة الحكمة التي فيها»، فلا بد للدعاء من نزوله من محل أمين،

(١) البقرة، الآية ٢٢٢.
(٢) فاطر، الآية ١٠.
(٣) الحج، الآية ٢٤.

ومهبط شريف، وإرساله من نفوس زكيّة ذكية، حتّى يناسب الخطاب مع العظيم، كما تدلّ عليه روايات كثيرة.

نعم، فرق بين الدعاء والمسألة، فإنّ الأخيرة لا يشترط فيها ذلك، بل يكفي بكلّ ما جرى على اللسان، حتّى يوجّهه تعالى إلى الطريق الصحيح، أو يقضي حوائجه ويحلّ مشاكله، قال زرارى للصادق عليه السلام: «علّمني دعاء، فقال عليه السلام: إنّ أفضل الدعاء ما جرى على لسانك»، والمراد به المسألة وطلب الحاجة.

الثالث: أن يكون الدعاء بالأسماء الحسنى وغيرها من أسماء الله تعالى، فعن الرضا عليه السلام، عن آبائه عن عليّ عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لله عزّ وجلّ تسعة وتسعون اسماً، مَن دعا الله بها استجيب له، ومَن أحصاها دخل الجنّة»، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، وعن الصادق عليه السلام: «وأكثر من أسماء الله عزّ وجلّ، فإن أسماء الله كثيرة».

الرابع: تقديم تمجيد الله والثناء عليه، والإقرار بالذنب والاستغفار منه، ففي الكافي: عن الحارث بن المغيرة قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إياكم إذا أراد أحدكم أن يسأل من ربّه شيئاً من حوائج الدنيا والآخرة، حتّى يبدأ بالثناء على الله عزّ وجلّ، والمدح له، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله، ثم يسأل الله حوائجه».

وعن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً: «إنّما هي

المدحة، ثم الثناء، ثم اللاإقرار بالذنب، ثم المسألة، إنّه والله ما خرج عبد من ذنب إلا بالإقرار».

وعن علي عليه السلام: «السؤال بعد المدح، فامدحوا الله عزّ وجلّ، ثم اسألوا الحوائج، أثنوا على الله عزّ وجلّ وامدحوه قبل طلب الحوائج»، والمراد بالثناء والتمجيد، مطلق ما يكون ثناءً وتمجيداً.

الخامس: أن يشتمل على ذكر محمد وآل محمد، لأنّهم وسائط الفيض ووجهاء الخلق، ففي الكافي: عن أبي عبد الله عليه السلام: «كل دعاء يدعى الله عزّ وجلّ به، محجوب عن السماء حتى يصلّي على محمد وآل محمد»، وعن هشام بن سالم، عن الصادق عليه السلام: «لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلّي على محمد وآل محمد».

وعن صفوان الجمال، عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً: «كلّ دعاء يدعى الله عزّ وجلّ به، محجوب عن السماء حتّى يصلّي على محمد وآل محمد».

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: صلاتكم عليّ إجابة لدعائكم، وزكاة لأعمالكم».

السادس: أن يكون الدعاء بعد الانقطاع إليه عزّ وجلّ، ورقة القلب والبكاء، ففي الكافي: عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام: «إذا رقّ أحدكم فليدعُ، فإنّ القلب لا يرقّ حتّى يخلص».

وعن الصادق عليه السلام: «إذا اقشعر جلدك ودمعت عيناك، فدونك دونك فقد قصد قصدك».

وعن سعد بن يسار: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي أتباكى في الدعاء وليس لي بكاء، قال عليه السلام: نعم، ولو مثل رأس الذباب».

وعن عنبسة العابد عن الصادق عليه السلام: «إن لم تكن بكّاءً فتباك».

وقد اعتبر بعض العلماء (رحمهم الله تعالى) أنّ بعض مراتب الانقطاع التام إليه عزّ وجلّ إذا كانت الحالة جامعة للشرائط من الاسم الأعظم، وقد جربت ذلك في بعض أسفاري إلى بيت الله الحرام بعد انقطاع الرجاء إلا منه.

فكان ما كان ممّا لست أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

السابع: الدعاء في الأوقات المعيّنة، وهي كثيرة، منها السَحَر وآخر الليل، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «خير وقت دعوتم الله الأسحار».

وعن الصادق عليه السلام: «مَن قام من آخر الليل فذكر الله تناثرت عنه خطاياه، فإن قام من آخر الليل فتطهّر وصلّى ركعتين وحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله، لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، إما أن يعطيه الذي يسأله بعينه، وإما أن يدخر له ما هو خير له منه».

ومنها: الصباح والمساء، فعن الصادق عليه السلام: «إنّ الدعاء قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، سنّة واجبة مع طلوع الشمس والمغرب».

ومنها: عند نزول المطر، وزوال الشمس، وهبوب الرياح، وقتل الشهيد، وقراءة القرآن، والآذان، وظهور الآيات. ففي الكافي: عن زيد الشحام، قال أبو عبد الله عليه السلام: «اطلبوا الدعاء في أربع ساعات:

عند هبوب الرياح، وزوال الأفياء، ونزول المطر، وأول قطرة من دم القتيل المؤمن، فإنّ أبواب السماء تفتح عند هذه الأشياء».

وعن الصادق عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «اغتنموا الدعاء عند أربع، عند قراءة القرآن، وعند الآذان، وعند نزول الغيث، وعند القتاء الصفين للشهادة».

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «كان أبي إذا كانت له إلى الله حاجة، طلبها في هذه الساعة، يعني زوال الشمس».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَن أدّى لله مكتوبة، فله في إثرها دعوة مستجابة».

ومنها: الأزمنة المتبرّكة، مثل ليلة الجمعة، وليالي القدر، وشهر رمضان، وشهر رجب، وليلة النصف من شعبان، وليلة عرفة ويومها، والعيدين، وغيرها ممّا هو كثير كما في كتب الأدعية.

الثامن: الدعاء في الأمكنة المتبرّكة، مثل الحرم الإلهي المقدّس، والمسجد الحرام، ومسجد النبيّ صلى الله عليه وآله، وعند الأئمة الكرام، أو المساجد الأربعة وغيرها من المساجد.

التاسع: الدعاء بعد تقديم الصدقة وشمّ الطيب، فعن الصادق عليه السلام: «كان أبي إذا طلب الحاجة طلبها عند الزوال، فإذا أراد ذلك قدّم شيئاً فتصدّق به، وشمّ من طيب، وراح إلى المسجد ودعا في حاجته بما شاء الله».

العاشر: مراعاة الأدب، وتجنّب اللحن في الدعاء، ففي عدّة الداعي عن أبي جعفر الجواد عليه السلام قال: «ما استوى رجلان في حسب ودين قط، إلا كان أفضلهما عند الله عزّ وجلّ أأدبهما، قال: قلت: جعلت فداك، قد علمت فضله عند الناس في النادي والمجالس، فما فضله عند الله عزّ وجلّ؟ قال: بقراءة القرآن كما أُنزل، ودعائه الله عزّ وجلّ من حيث لا يلحن، وذلك أن الدعاء الملحون لا يصعد إلى الله عزّ وجلّ».

ويمكن أن يستفاد ذلك من كراهة اختراع الدعاء من نفس الداعي، فإنّ في الدعوات المأثورة عن نبيّنا الأعظم والأئمّة الهداة غنىً وكفاية، فهم أعرف بالأدب مع الله تعالى، وكيفية التكلّم معه من سائر الرعية، لأنّهم سدنة الملك وعيبة علم الله وخزّان وحيه.

الحادي عشر: رفع اليدين حال الدعاء، ففي عدّة الداعي: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يرفع يديه إذا ابتهل ودعا، كما يستطعم المسكين».

وعن محمد بن مسلم قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾. قال عليه السلام: الاستكانة هي الخضوع والتضرّع رفع اليدين والتضرّع بهما».

وعن الباقر عليه السلام: «ما بسط عبد يده إلى الله عزّ وجلّ، إلا استحيى الله أن يردّها صفراً، حتّى يجعل فيها من فضله ورحمته ما يشاء، فإذا دعا أحدكم فلا يرد يده حتى يمسح بها على رأسه ووجهه»،

والروايات في رفع اليدين والتبصبص بالأصابع كثيرة، مروية عن الفريقين. وكلّ ذلك من جهة حصول الخضوع والخشوع للدّاعي، وتقرّبه إلى المدعوّ، لا لأجل أنّه تعالى يختصّ بمكان دون مكان وزمان دون آخر.

الثاني عشر: الدعاء سرّاً، ففي الكافي: عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «دعوة العبد سراً، دعوة واحدة تعدل سبعين دعوة علانية»، والوجه في ذلك لأنّه أحفظ في الإخلاص، وأبعد عن شوائب الرياء.

الثالث عشر: العموم في الدعاء، فإنّه آكد في الاستجابة، ففي الكافي: عن ابن القداح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا دعا أحدكم، فليعُمَّ، فإنّه أوجب للدعاء».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَن صلّى بقوم فاختصّ نفسه بالدعاء دونهم، فقد خانهم»، وقد وردت روايات كثيرة على أنّ دعاء المؤمن لأخيه المؤمن مستجاب، وأنّ للداعي مثل ما يدعو لأخيه وأكثره.

الرابع عشر: لبس الداعي خاتم عقيق أو فيروزج، فقد روى ابن بابويه عن الصادق عليه السلام: «ما رفعت كفّ إلى الله أحبّ من كفّ فيها عقيق».

وفي عدّة الداعي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزّ وجلّ: إنّي لأستحيي من عبدي، يرفع يده وفيها خاتم فيروزج فأردّها خائبة».

الخامس عشر: أن يكون الدعاء لتكميل النفس، والحوائج الشرعية وسؤال المغفرة ورضوان الله ونِعَم الجنة، أي يكون جامعاً للدنيا والآخرة، بحيث يكون نفعه غير منقطع، وأثره لا يضمحل، وفي الدعوات المقدّسة المأثورة من ذلك شيء كثير، منها: ما يسمّى بدعاء الفرج، وهو مذكور في كتب الأدعية.

ثم إنّ الدعاء مطلوب لنفسه، ومحبوب لذاته، ولا تختصّ محبوبيته بوقت دون وقت، ولا مكان دون آخر، ولا بلغة دون أخرى، بل هو محبوب في جميع الأحوال والأوقات والأمكنة.

نعم، لبعض الأيام والليالي والأمكنة المقدّسة، دخل في مراتب فضله، لا في أصل صحته ومحبوبيته، وإذا توفرت شروط صحة الدعاء، وشروط كماله، ووقع الدعاء مورد الاستجابة، فإنّه قد يوجب التغيير في العالَم، ممّا يوجب تحيّر ذوي الألباب، ولا ريب في ذلك كما مرّ، فإنّ الدعاء عظيم أثره، لأنه حضور العبد الذليل لدى المولى الجليل، وتوجّه نحو التوحيد الفطري، فلا تغفل عنه، ولا تعرض بوجهك عنه، فإنّ المحروم مَن حرم من الدعاء، ولا تجعل للشيطان على عقلك سبيلاً بشبهاته، فإنّه عدو للإنسان، يحاول أن يجنّب العبد عن الدعاء، لأنّه من أعظم السبل في ردّه، والله الهادي وهو المولى ونعم النصير.

مراتب السلوك

لا ريب في أنّ أقوى مراتب سلوك السالكين إلى الله جلّت عظمته، وأهم مقامات سيرهم وسفرهم، إنّما هو السفر من الخلق إلى الحقّ، أي: التوجّه التام، بحيث ينقطع عمّا سواه تعالى، وهو السير في الحقّ بالحقّ.

وهذا السفر الروحاين يصحّ أن يعبَّر عنه: بأنّه سفر من المحدود من كلّ جهة إلى غير المحدود من جميع الجهات، وعطف وحنان ممّن لا حدّ لرحمته وحنانه وعنايته، إلى ما هو المحتاج على الإطلاق، وهذا السفر، وهذه الرحمة والعطف، يتحقّقان في حقيقة الدعاء مع الإيمان بالله جلّت عظمته، وبما جاء به نبيّنا الأعظم ﷺ، لأنّ هذه الحقيقة مع ذلك عبارة عن تخلّي النفس عن جميع الرذائل، وطهارة روحية عن جميع الصفات الذميمة والأهواء الشريرة، وارتباط روحي مع عالم الغيب.

وإن قلت: إنّها تجلّي الرحمة الرحيمية والرحمانية بالنسبة إلى الداعين.

أو قلت: إنّها عروج النفوس المستعدّة عند الانقطاع عمّا سوى

رب العالمين إلى أعلى الدرجات التي أُعدت لها، ولذا قال تعالى: ﴿مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾[١]، وقال الصادق عليه السلام كما تقدّم: «الدعاء مخ العبادة»، ولذا كان الأنبياء والأوصياء والعلماء العارفون بالله تعالى، يواظبون عليه أشدّ المواظبة في جميع أحوالهم، حالاً ومقالاً.

وهناك أمور أخرى مهمة مرتبطة بالدعاء، نتعرّض لها في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

بقي هنا أمران:

الأول: الفرق بين الدعاء وغيره من الأسباب المؤثّرة، مثل السحر والعين مثلاً، فإنّ الأول ـ أي الدعاء ـ تأثير غيبي في عالم الشهادة، كما مرّ، ولما سواه تأثيرات من هذا العالم وفيه، وهي غير مرتبطة بعالم الغيب والملَكوت أصلاً، بل بعضها منهي عنه شرعاً.

الثاني: أنّ الدعاء إنّما يؤثر بحسب معتقدات الداعي، فربما يكون الدعاء الصادر من الذي لا يعتقد بالمبدأ يؤثر بحسب معتقده، وهو خلاف الواقع، قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾[٢]، وتدلّ عليه السنّة المقدّسة، بل التجربة، ويأتي التعرّض لها في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى[٣].

---

(١) الفرقان، الآية ٧٧.

(٢) الرعد، الآية ١٤.

(٣) مواهب الرحمن، ٤٧ ـ ٧٦، ج (٣).

مقام التوكل

التوكّل: فضيلة من الفضائل السامية وخُلق كريم من مكارم الأخلاق وخصلة حميدة، ومنزل شريف من منازل الإيمان، ومقام رفيع من مقامات الموقنين، بل أفضل مقامات الإنسانية الكاملة، به يظهر المؤمن صدق إيمانه وثبات اعتقاده، ويجتمع فيه كثير من الفضائل والخصال الحميدة، فهو قرين الصدق والعز والاستعانة بالله العظيم وغيرها، وبه ينتظم العلم والحال والعمل. وكفى به فضلاً ومنقبة أن الله تعالى يحبّ المتوكلين، وهو من أخلاق الأنبياء العظام، ولمكانته السامية فقد أمر به عزّ وجلّ نبيّه الكريم ﷺ بالتحلّي به في عدّة مواطن من كتابه الكريم، وقد ورد في فضل التوكّل ومدحه والترغيب إليه من الكتاب الكريم والسُنّة الشريفة الشيء الكثير، ونحن نذكر في هذا البحث ما ورد في التوكّل من الفضل، ومعنى التوكّل، وحقيقته، وشروطه، وآثاره.

فضل التوكّل:

قد ورد في مدح التوكّل وفضله والترغيب إليه والحثّ على التحلّي به في الكتاب الكريم والسنّة الشريفة ما يبهر منه العقول.

التوكّل في الكتاب الكريم:

وردت مادة (وكل) في القرآن المجيد على ما يناهز السبعين موضعاً، وغالب استعمالاتها تدلّ على مدحه والترغيب إليه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٣).

وقد ورد قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٤)، في عدّة مواضع، وكذا قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٦)، ويستفاد منه أن الإيمان منوط بالتوكّل، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٧)، وهذه الآية المباركة تبيّن حقيقة التوكّل على ما ستعرف.

ويستفاد من الآيات الواردة في شأن الأنبياء أن التوكّل كان من سيرتهم، وأنّه فضيلة مشتركة بينهم، قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام والذي معه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٨)، وقال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن

---

(١) الطلاق، الآية ٣.
(٢) الأنفال، الآية ٤٩.
(٣) آل عمران، الآية ١٥٩.
(٤) آل عمران، الآية ١٦٠.
(٥) إبراهيم، الآية ١٢.
(٦) المائدة، الآية ٢٣.
(٧) الشورى، الآية ٣٦.
(٨) الممتحنة، الآية ٤.

شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[١]، وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢]، وقال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[٣]، وقال تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤]، وقال تعالى حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٥]، وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾[٦]، وقد تحدّث سبحانه وتعالى عن جمع من الرُّسل عليهم السلام وحكى عن شأنهم، وذكر أن التوكّل من عمدة صفاتهم ومن سيرتهم، وهو والصبر قرينان لديهم، قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٧].

---

(١) يوسف، الآية ٦٧.
(٢) يونس، الآيتان ٨٤ ـ ٨٥.
(٣) الأعراف، الآية ٨٩.
(٤) هود، الآية ٥٦.
(٥) هود، الآية ٨٨.
(٦) يونس، الآية ٧١.
(٧) إبراهيم، الآيتان ١١ ـ ١٢.

ويكفي من فضله أن الله تعالى قد أمر به نبيّه الكريم ﷺ في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(١)، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٣)، والمستفاد من جميع ذلك أن التوكّل فضيلة سامية، وأنّه من أعلى مقامات التوحيد، وهو يدلّ على كمال إيمان المؤمنين، ولذا كان من صفات الأنبياء الكرام والمؤمنين المخلصين، بل هو توحيد عملي يكشف عن درجة الإيمان وشدّة اعتمادهم على الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٤). ويستفاد منه أن التوكّل أجلى برهان وأحكم علامة على ثبات عقيدة المؤمن ورسوخ التوحيد في قلبه، لأنّه لا يرى لغيره عزّ وجلّ سلطة وشأناً، فهو خاضع له يطلب منه وحده تهيئة الأسباب وتدبيرها، قال تعالى في الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٥)، وسيأتي مزيد بيان.

---

(١) النساء، الآية ٨١.
(٢) التوبة، الآية ١٢٩.
(٣) آل عمران، الآية ١٥٩.
(٤) الأنفال، الآية ٢.
(٥) النحل، الآية ٩٩.

التوكّل في السنّة الشريفة

وردت أحاديث كثيرة عن نبيّنا الأعظم ﷺ والأئمة الهداة عليهم السلام تدلّ على فضل التوكّل على الله، وجميعها ـ سواء القولية والفعلية ـ تحكي سيرتهم التي تدلّ على شدّة اعتمادهم على الله تعالى وتفويضهم الأمر إليه وتحريض الناس عليه، ففي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن انقطع إلى الله عزّ وجلّ كفاه الله كلّ مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب، ومَن انقطع إلى الدنيا وكّله الله إليها».

وقال ﷺ: «لو أنّكم تتوكّلون على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

وقال ﷺ: «مَن سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده».

وروي عن الصادق عليه السلام: «أوحى الله تعالى إلى داود: ما اعتصم عبد من عبادي بي من خلقي عرفت ذلك من نيّته، ثم تكيده السماوات والأرض ومَن فيهن، إلاّ جعلت له المخرج من بينهنّ، وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلق عرفت ذلك من نيّته إلاّ قطعت أسباب السماوات والأرض من يديه وأسخت الأرض من تحته، ولم أُبال بأي وادٍ هلك».

وعنه عليه السلام: «أن الغنى والعزّ يجولان، فإذا ظفران بموضع التوكّل أوطنا».

وعن الكاظم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ قال: «التوكّل على الله على درجات، منها أن تتوكل على الله في أمورك كلّها، فما فعل بك كنت عنه راضياً، تعلم أنّه لا يألوك خيراً وفضلاً، وتعلم أن الحكم في ذلك له، فتوكّل على الله بتفويض ذلك إليه وثق به وفي غيرها».

وقال الصادق عليه السلام: «مَن أُعطي ثلاثاً لا يمنع ثلاثاً، من أُعطي الدعاء أُعطي الإجابة، ومَن أُعطي الشكر أُعطي الزيادة، ومَن أُعطي التوكّل أُعطي الكفاية، ثم قال: أتلوت كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾». إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الدالّة على فضل التوكّل ومدحه والترغيب إليه، وإنّه خُلق كريم يجب على المؤمن التحلّي به، ويدلّ عليه العقل أيضاً.

معنى التوكّل:

التوكّل مشتق من الوكالة، يقال: وكّل فلان الأمر إلى غيره، أي: فوّضه إليه واكتفى به لاعتماده عليه أنّه ينجزه ووثق به، ويسمّى المفوّض إليه متّكلاً ومتوكّلاً عليه.

وأمّا الوكيل: فإنّه فعيل يأتي بمعنى المفعول ـ وهو الذي يوكّل الأمر إليه أو موكول إليه الأمر، ويأتي بمعنى الفاعل فيكون بمعنى

الحافظ والناصر والرقيب والمطّلع، لأنّه الذي يرعى الأمور ويحفظها ويتعهّدها وينصر مَن يركن إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[(١)]، ولأنه هو الذي يتعهّد الأمور التي وكّلت إليه من عباده، وناصره وحافظه، والاسم التكلان (بضم التاء).

وإذا رجعنا إلى اللغة نرى أن التوكّل تارة يُطلق ويراد منه التولّي للغير، يقال: توكّلت لفلان، إذا صرت وكيلاً عنه وتولّيت له، ومنه الوكالة (بفتح الواو) أو (بالكسر على لغة)، وهي الوكالة المعروفة في الفقه. ويُطلق أخرى ويراد به الاعتماد على الغير والوثوق به.

والتوكّل على الله تعالى هو تفويض الأمر إليه عزّ وجلّ والاكتفاء به، ويشبه التوكّل التفويض من هذه الجهة، فهما يشتركان في تسليم الأمر إليه عزّ وجلّ، قال تعالى حكاية عن شعيب: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[(٢)]، أي: أُسلّم الأمور إليه عزّ وجلّ فهو الذي يكفيكها، وفي الحديث: أن النبي ﷺ كان يدعو فيقول: «اللهم إنّي أسلمت نفسي وفوّضت أمري إليك».

لكن التوكّل يزيد على التفويض في أنّه يتضمّن طلب النصرة منه، والوثوق بأنّه ينجزها، ويحفظ مَن يكل إليه أمره، والرضا بفعل الله عزّ وجلّ بعد الاعتراف بالعجز ولقصوره أمام عظمته وكبريائه.

---

(١) آل عمران، الآية ١٧٣.

(٢) غافر، الآية ٤٤.

حقيقة التوكّل

التوكّل على الله تعالى هو الاعتماد عليه عزّ وجلّ قلباً واطمئنان النفس به والوثوق بأنه لم يهمله، بعد الاعتراف بعجز الإنسان أمام قدرته وعلمه وإحاطته وقيموميته، والاعتقاد بأنّه تعالى هو الفاعل لا غيره، وأن لا ربّ غيره، فيعلم علماً قطيعاً بأنّه لا حول ولا قوة إلاّ بالله، يضع الأشياء في مواضعها بحكمته، وهو القادر على كل شيء في السماوات والأرض.

ومن ذلك يظهر السرّ في ذكره عزّ وجلّ العزّة والحكمة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، لأن الاعتقاد بأنّه حكيم يضع الأشياء في مواضعها، وعزيز قادر لا يمتنع عليه شيء إذا أراد فلا محالة يذعن المؤمن بأنه تعالى ناصره ومعينه وهو حسبه وكافيه، ويحصل له الاعتقاد بأن كل ما يسوقه إليه ربّه هو طيّب وكريم وحسن وخير ويعتمد عليه في جميع أموره، وتحصل الثقة بالله العظيم فيتوكّل عليه عزّ وجلّ.

فالتوكّل إنّما هو ارتباط عالم الشهادة المتناهية من كلّ جهة، بعالم الغيب غير المتناهي كذلك، ولذا نرى أنّه والتوحيد قرينان لا يتحقّق

أحدهما من دون الآخر، فمَن لا توحيد له لا توكّل له، ومَن لا توكّل له لا إيمان له، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

بل يمكن أن يقال بأن التوكّل طريق لمعرفة إيمان المؤمن، بل هو محقّق له، لأنّه لا يرى لغير الله تعالى أثراً، فالجميع مسخّر تحت إرادته، وإنّما جعل لها نظاماً معيناً أقام أمور العالم به، فتجري وفق قانون الأسباب والمسبّبات خاضعة له لا تتخلّف عنه، إلا أنّها عاجزة عن أي نفع وضرر، لأنّها لا تفعل شيئاً إلا بإرادته ومشيئته عزّ وجلّ، والمؤمن يذعن بهذا النظام الذي أقام الله تعالى هذا العالم به، ويطلب كلّ شيء عن طريق سببه ويعمل ويكافح على إيجاد الأسباب الظاهرية المنوطة بها المسبّبات ويطلبها وفق ما أمره الله تعالى طلباً تكوينياً أو تشريعياً، ولكنّه يعترف بالعجز أمام قدرة الله تعالى ويذعن بالجهل أمام المقادير التي قدّرها عزّ وجلّ، ويعلم بأن الأسباب الظاهرية التي عمل لأجلها شيء والمقادير والقضاء والقدر والأسباب الخفية التي يجهلها شيء آخر، وجميعها خاضعة له عزّ وجلّ، مسخّرة أمام إرادته ومشيئته، وهو عاجز عنها فيوكّل أمره إليه معتقداً بأنّه حسبه وناصره ومعينه.

ومن جميع ذلك يعلم بأن التوكّل لا ينافي الأسباب الظاهرية، بل الاعتقاد بها والعمل عليها من جملة أساسيات فضيلة التوكّل. ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(١).

(١) الشورى، الآية ٣٦.

ويستفاد من هذه الآية الشريفة أمران:

الأول: أن الإنسان لا يمكن له التغاضي عن متاع الحياة الدنيا الذي هو من نِعَم الله تعالى عليه، فهو الذي يقضي به مآربه ويحقّق مقاصده ويعيش عليه في هذه الحياة الدنيا، وأما ما عند الله فهو خير من هذا المتاع القليل في الكمية والكيفية، وإنّما جعل الله هذه الدنيا وسيلة لنيل ما هو أعظم منها، ولا يمكن تحصيل هذا المتاع إلاّ بأسباب خاصة معروفة يجري عليها نظام هذا العالم، فالتوكّل على الله تعالى والاعتماد على الأسباب الظاهرية قرينان، بل هي من طرق تحصيل التوكّل عليه عزّ وجلّ كما عرفت، ويدلّ عليه قوله ﷺ: «اعقلها ثم توكّل».

الثاني: أن التوكّل من شروط الإيمان الصحيح، بل هو من أعلى مقامات التوحيد، فإنّه التوحيد العملي الذي اعتنى به الله تعالى في كتابه الكريم واهتمّ به الأنبياء والمرسلون، فهو يبيّن الجانب العملي في الإيمان، لأنّ التوكّل وظيفة من وظائف القلب، فإنّ به تطمأن النفس ويسكن القلب، وبه يدخل المؤمن تحت الآية المباركة: ﴿يأيتها النفس المطمئنة * ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾[1].

وبالجملة: لما كن هذا العالم متقوّماً بالأسباب والمسبّبات الطولية والعرضية، ولا بد من انتهاء تلك إلى سبب غيبي وربوبية عظمى لا يعقل فوقها ربوبية وقيمومية كبرى ليس وراءها قيم أصلاً، فيكون الجميع مسخّراً تحت إرادته ومشيئته التامة، فلا الماديات تعوق مشيئته

(١) الفجر، الآيات ٢٧ ـ ٣٠.

ولا التكثّرات تمنع قهّاريته، ولا ريب في تحقّق ما ذكر في هذا النظام الأحسن، وآثار عظمته وإبداعه ووحدانيته ظاهرة في كلّ شيء، والتوحيد عبارة عن الاعتقاد بهذه الحقيقة، والتوكّل هو الاعتماد على مدبّر هذا العالم وخالقه وصانعه، فإن طابق الاعتقاد مع الواقع على ما هو عليه تتجلّى حقيقة التوكّل وإلاّ فلا توكّل.

ومن ذلك يظهر السر في ما ورد عن الأئمة عليهم السلام: «أن قول القائل: لولا أن فلاناً لهلكت، شرك، قيل له عليه السلام: فكيف نقول؟ قال عليه السلام: تقول لولا أن مَنَّ الله عليَّ بفلان لهلكت»، كما يظهر السرّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1]، فالتوكّل الحقيقي هو الاعتقاد باستناد الكلّ إليه عزّ وجلّ وانبعاث الجميع منه تعالى، ويستلزم ذلك الاعتقاد بتسبيب الأسباب والسعي في تحصيلها، فإنّ التوكّل بدون ذلك لا ثمرة فيه، بل هو لغو وباطل، فترجع حقيقة التوكّل إلى إرجاع الأمور ـ لا يتعلق بها عقولنا من تحصيل المقتضيات ـ إلى الله تعالى، لأنّه مسبّب الأسباب ومسهّل الأمور الصعاب.

ومن ذلك كلّه يظهر أن التوكّل عنوان التوحيد وهو داع إليه، فهما متلازمان، وبه ينتظم حال الإنسان وعلمه وعمله. وبما ذكرناه يرتفع الغموض من حيث أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتباعد عنها خلاف طريقة العقل والشرع، والتوكّل يرفع الغموض والعسر عن ذلك كلّه.

---

(١) يوسف، الآية ١٠٦.

شروط التوكّل

للتوكّل على الله تعالى شروط لا يتحقّق إلاّ بها، تظهر من التمعّن في ما ذكرناه في حقيقة التوكّل، وهي:

الأول: الاعتقاد بالله تعالى وأنّه الربّ القيوم المدبّر لجميع ما سواه، وأنّه العزيز لا يمنعه شيء، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها وفق إرادة وعلم بجميع الخصوصيات.

الثاني: الاعتقاد بأنّه لا فاعل في هذا العالم إلاّ الله تعالى، وأن ما سواه مربوب له ومقهور تحت قهّاريته العظمى، فهو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

الثالث: الإذعان بأن هذا العالم ينتظم بقانون خاص لا يمكن التخلّف فيه، وأن الله تعالى هو الذي جعل هذا القانون، وهو قانون الأسباب والمسبّبات، ولا يمكن فيه التغيير والتبديل ولا التخطّي عنه.

الرابع: تحصيل الأسباب والمعدّات والمقتضيات التي تقع تحت تصرّف الإنسان، والسعي في تهيئتها وإعدادها، وأمّا غيرها من الأمور

الخفية التي لا يعلمها إلا الله تعالى، فلا بد من الرجوع فيها إليه تعالى والتضرّع لديه في تحقيقها.

الخامس: حسن الظن بالله تعالى واستسلام القلب له عزّ وجلّ، والخضوع لديه في رفع الموانع والعوائق في ترتّب النتيجة على المقدّمات والمسبّب على الأسباب.

السادس: أن يكون التوكّل على مَن يكون قادراً على جميع الأمور ومستجمعاً لجميع الشرائط، وهو ينحصر في الله تعالى، قال عزّ وجلّ في عدّة موارد من كتابه الكريم: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[1]، وقال تعالى محكياً عن المؤمنين: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[2]، فينحصر التوكّل عليه عزّ وجلّ قال سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[3].

السابع: تفويض الأمر إلى الله تعالى وتوكيله في جميع الأمور والشؤون، فإنّه القادر على تحقيقها، يضعها وفق حكمته المتعالية، لأنّه العالم بحقائق الأمور وجميع خصوصياتها.

وإذا تحقّقت جميع هذه الشروط تحصل للإنسان راحة نفسية واطمئنان قلبي، فتحصل له حالة التوكّل عليه عزّ وجلّ ويدخل في زمرة المتوكّلين الذين يحبّهم الله تعالى، كما ورد في جملة من الآيات

---

(١) الأحزاب، الآية ٣.
(٢) آل عمران، الآية ١٧٣.
(٣) النساء، الآية ٨١.

الشريفة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢].

(١) آل عمران، الآية ١٥٩.

(٢) المائدة، الآية ٢٣.

درجات التوكّل

للتوكّل درجات ومنازل تختلف حسب شدّة اليقين وضعفه، وحسب كثرة الأمور المتوكّل فيها وقلّتها، وهي:

الأولى: أن يكون المتوكّل على درجة كبيرة من اليقين والثبات في العقيدة والخضوع والطاعة لله تعالى، بحيث لا يرى شيئاً إلاّ يرى الله تعالى معه يثق بكرمه وعنايته، ويعبّر بعض علماء الأخلاق عن هذه الدرجة بتوكّل خاص الخاص، وفي هذا المنزل يفوّض المتوكّل جميع أموره إلى الله تعالى ويرضى بحكمه، فيكون بين يديه تعالى كالميّت الملقى بين يدي الغاسل، ولعل الآية المباركة تشير إلى هذه الدرجة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[1]، فإن مَن اتقى الله تعالى ووثق به عزّ وجلّ وتوكّل في جميع أموره عليه عزّ وجلّ، اطمأنت نفسه بأنّ الله ناصره وهو حسبه، وهذه المرتبة عزيزة الوجود في الناس وتختصّ بالأنبياء وأولياء الله تعالى المخلصين له، وقد حكى الله جلّ شأنه عن الأنبياء والمرسلين في كتابه الكريم ما يشهد لذلك.

---

(١) الطلاق، الآيتان ٢ ـ ٣.

الثانية: أن لا يكون على الدرجة من اليقين والثبات في العقيدة والاطمئنان بما قسمه الله تعالى لعباده، ولكن يعتمد في أموره على الله تبارك وتعالى، يفزع إليه ويعتمد عليه ولا يترك الدعاء والتضرّع في كلّ مسألة وأمر، مثل الصبي الذي يفزع إلى أُمّه ويتعلّق بها وقد فنى في أُمّه ولا يرى غيرها، وفي هذه الحالة يفنى المتوكّل في الموكّل عليه ولا يلاحظ الواسطة، ويعبّر بعض علماء الأخلاق عن هذه الدرجة بتوكّل الخواص.

وتفترق هذه الدرجة عن الدرجة السابقة في أن المتوكّل في الأولى لا يرى شيئاً إلاّ الله تعالى قد وثق بكرمه ولطفه وعنايته، فربما يترك الدعاء والمسألة وثوقاً منه به عزّ وجلّ في قضاء الحوائج، كما قال إبراهيم الخليل عليه السلام: «حسبي من سؤالي علمه بحالي»، وفي هذه الدرجة لا يترك الدعاء والمسألة والتضرّع، وإلى هذه الدرجة يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1]، فقد توكّلوا في جميع أمورهم عليه عزّ وجلّ وأفنوا جميع حيثياتهم في الله تعالى وقد أعرضوا عن غيره.

الثالثة: أن يكون كثير الاعتناء بالأسباب، فيرى للتدبير والاختيار في تهيئة الأمور الأثر الكبير ولكن لا يترك التوكّل عليه عزّ وجلّ، وهو يعتمد على توكّله ويلتفت إليه دائماً في أموره لا يغضّ النظر عنه، وهذا هو الشغل الصارف عن الموكّل إليه، ولأجل ذلك اختلفت هذه الدرجة عن سابقتها في أن المتوكّلين في الدرجة الثانية يعتمدون على المتوكّل

---

(١) آل عمران، الآية ١٥٩.

عليه وحده، كما يعتمد على التضرّع لديه بالدعاء والابتهاء إليه عزّ وجلّ، وإلى هذه الدرجة يشير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

وتختلف أيضاً عن السابقة في أن هذه الحالة قد تدوم أياماً كثيرة أو في جميع الحالات لدى المؤمنين، بينما في الدرجة الثانية لا تدوم إلاّ أياماً قليلة.

وقد عبّر بعض العلماء (رحمة الله تعالى عليه) عن هذه الدرجة بتوكّل العامي، وربّما يكون توكّلهم في جميع الأمرو وربما يكون في بعضها.

وبالجملة: أن درجات التوكّل تختلف باختلاف قوة الإيمان بالله عزّ وجلّ والاعتقاد به تعالى وتفويض الأمور إليه والتسليم بقضائه وقدره والرضا بما قسمه على عباده، كما أنّها تختلف باختلاف تفويض جميع الأمور أو بعضها وشدّة الاعتماد على الأسباب وقوّة الاعتقاد بها.

---

(١) آل عمران، الآية ١٦٠.

آثار التوكّل

إذا حصل التوكّل على الله تعالى فإنّه يخلّف آثاراً كبيرة على المتوكّل، نحن نذكر بعضاً منها:

الأول: التوكّل يحقّق الإيمان ويزيد فيه ويثبت دعائمه في المؤمن، ويثبّت عقيدة التوحيد في قلبه، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

الثاني: التوكّل سبب إلى النصر والفوز بالمراد، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(٢).

الثالث: التوكّل يفتح أمام صاحبه طريقاً إلى الجنة فيدخل ويُرزَق فيها بغير حساب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٣).

---

(١) المائدة، الآية ٢٣.

(٢) الطلاق، الآية ٣.

(٣) العنكبوت، الآيتان ٥٨ ـ ٥٩.

الرابع: أن التوكّل يورث محبّة الله تعالى والرضا الإلهي للمتوكّل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1]، وكفى بذلك فخراً.

الخامس: التوكّل يجعل كلّ ما يسوقه الله تعالى إلى العبد حسناً طيباً وخيراً.

السادس: التوكّل يورث الاطمئنان في قلب المتوكّل والراحة في نفسه.

هذا موجز ما أردنا أن نذكره في هذه الفضيلة الكبيرة، وهو غيض من فيض، فإن كلّ ما يقال في هذا الخلق الكريم قليل، وكفى بذلك داعياً في التخلّق بهذه الفضيلة والمسارعة إلى هذا الخير العظيم[2].

---

(١) آل عمران، الآية ١٥٩.

(٢) مواهب الرحمن، ٦ ـ ٢٦، ج (٧).

الإخلاص

الأفعال الصادرة عن الإنسان في حقيقتها ـ تكون كالأشياء النامية ـ لها صورة خارجية وروح يمتاز بها عن أفعال سائر الحيوانات، فالإنسان الذي هو أشرف المخلوقات في عالم الإمكان مركّب في واقعه من جسم وروح، وكذا أفعاله لها صورة ـ وهي عبارة عن ما يشتخّص في الذهن من الكيفيّات، وهذا يعمّ جميع أفعال الحيوانات ـ وروح يتفرّد بها عن بقية الحيوانات، وهي أمر معنوي يحصل من التوجّه إلى الباري جلّ شأنه والسوق إلى الخالق جلّ عظمته ـ ولا ربط له بالإرادة ـ وأثره إفراد القلب له تعالى بارتباطه إلى ساحة كبريائه والتبرّي عن كلّ ما دونه تعالى، وهو الباعث لتحقّق الإضافة إليه تعالى، التي هي السبب لتحقّق الفعل خارجاً، وإذا وجد الفعل بدونها كان مجرّد صورة، كالأفعال التعليمية.

ويعبّر عنه في الكتاب والسنّة بالإخلاص في الأفعال العبادية أو المضافة إليه تعالى، المتفرّد بها الإنسان عن غيره، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ

(١) الزمر، الآية ٢.

لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1]، فكما لا قيام للأشباح إلاّ بالأرواح وإلاّ كانت ميتة ساقطة، كذلك الأعمال العباديّة، فلولا الإخلاص والروح المعنوي فيها كانت مجرّد شبح وهيكل. مراتب الإخلاص كدرجاتها تختلف حسب درجات الإيمان، كما يأتي.

حقيقة الإخلاص

وهي من الحقائق المحجوبة، ولا تعرف إلاّ بالأثر، ولا يمكن وصفها وإن أدركها العرفاء الشامخون فإنّها تشرق على القلب وتنوّر النفس ويتشرّف المؤمن بالإخلاص إلى أعلى مراتب الكمال بلذّة ذلّ العبودية له تعالى، وبه يخرق الحجب ويصل إلى معدن العظمة، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «أنّه سئل عن الإخلاص فقال ﷺ: حتى اسأل جبرائيل، فلما سأله قال: اسأل ربّ العزّة، فلما سأله قال له: هو سرّ من أسرار أودعه قلب مَن أحببت من عبادي، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده»، وعن سيد العرفاء أمير المؤمنين عليه السلام: «هو أن تعبد الله كأنّك تراه»، فحقيقة الإخلاص يدركها الخلّص من عباده، ولكنّها لا توصف، والإخلاص من أعلى مراتب التفويض.

درجات الإخلاص

كما أنّ للعبودية درجات، ولكلّ منها مراتب، ولكلّ مرتبة منزلة حسب درجات الإيمان ومراتب المعرفة ومنازلهما، وأنّ التقرّب لديه

---

(١) البينة، الآية ٥.

جلّ شأنه يحصل بجميعها، وأنّ أسمى المراتب وأعلى الدرجات قبوله عزّ اسمه بالعبودية ـ وإن كان للقبول مراتب أيضاً ـ فإنّه هو الفوز العظيم، فعن بعض العرفاء: «قيل له بعد وفاته ـ في الرؤيا ـ: كيف حالك مع الملكين (النكير والمنكر)؟ فقال: لما قالا لي: مَن ربّك؟ قلت لهما: اسألا ربّي، فإن قال: هو عبدي وأنا ربّه، يكفي، وإلاّ فلو قلت: هو ربّي وأنا عبده مراراً لا يفيد بلا قبوله»، كذلك الإخلاص له درجات، وفي كلّ منها مراتب، وفي كلّ مرتبة أنواع أهمّها وجامعها أقسام ثلاثة: إخلاص العوام، وإخلاص الخواص، وإخلاص أخصّ الخواص، وإن شئت قلت: مطلق الإخلاص، وإخلاص المحبّين، وإخلاص الموحّدين.

والأول: هو الإخلاص في العبادة لأجل الحظوظ ـ سواء كانت دنيويّة أم أُخروية ـ كحفظ البدن وسعة المال والقصور والحور.

والثاني: لأجل السعادة الأُخروية والدخول في الجنة دون الحظوظ الدنيوية.

والثالث: هو إخراج الحظوظ بالكلية، بل الإخلاص لأجل جنّة الشوق بالقرب له جلّت عظمته: «وفؤادي ليس فيه غيره».

ولكلّ من هذه الأقسام مراتب كما مرّ، وأنّ جميعها حسن إلاّ أن أسماها وأعلاها القسم الأخير، وفي دعاء كميل: «هب لي صبرت على حرّ نارك، فكيف أصبر على فراقك»، وعن سيد العرفاء المتألّهين الشامخين أمير المؤمنين عليه السلام: «إلهي عبدتك لا خوفاً من نارك ولا

طمعاً لجنّتك، بل رأيتك أهلاً لذلك فعبدتك»، وعن بعض العرفاء المتألهين:

ليس سؤلي من الجنان نعيماً غير أنّي أحبّها لأراكا

ولهذا القسم درجات ومراتب، نسأل الله العظيم الفوز بمرتبة منها، ولا تنال هذه النعمة الكبرى إلاّ لمَن عصمه الله تعالى وأمدّه بحقّ اليقين بالتجلّي له، وكشف الأسرار له بإفاضة العلوم عليه، وقرّبه إلى ساحته بخلع الأنداد عنه، وكرّمه بتطهير النفس بمخالفة الهوى ونبذ الأغيار، وشرّفه بالرقي إلى مقام عرفانه بالتوجّه إليه والقرب لديه.

منافيات الإخلاص

الصفات الحميدة تقابلها الحالات السيئة، وتفسدها الصفات المنافية لها، فالشجاعة مثلاً يفسدها الخوف؛ لأنّه ينافيها ولا يمكن الجمع بين المتنافيين في النفس وكذا القناعة ينافيها الحرص والجشع، كما أنّ الزهد ينافيه طول الأمل، وكذا غيرها من الصفات.

والإخلاص ينافيه أمور كثيرة؛ لأنّ سبب الإخلاص لله تعالى المعرفة والخوف، فإذا زال أحدهما لم يتحقّق الإخلاص. وأهمّ ما ينافي الإخلاص أمور:

منها: الريا ـ نستجير بالله العظيم منه ـ فعن نبيّنا الأعظم ﷺ عن الله تعالى في القدسيات: «انا أغنى الشركاء، مَن أشرك معي غيري تركته لغيري»، وعنه ﷺ: «أخوف ما أخاف على أُمّتي الشرك الخفي، وهو الريا»، وغيرهما من الروايات، وأنه دقيق جداً، «أدق من

دبيب النمل في صخرة ملساء»، وسببه حبّ الدنيا بأقسامه، وللتخلّص منه طرق كثيرة لا يسع المجال للتعرّض لها.

ومنها: العجب بالعمل، فإنّه مناف للإخلاص وقادح في كمال العمل، وقد ورد في ذمّه روايات كثيرة.

ومنها: الاستهانة بالعمل ـ تحقيره ـ كما دلّت عليه روايات كثيرة.

ومنها: الإيكال في الأمور على غيره تعالى، سواء كان على النفس أو غيرها.

ومنها: التعمّق في حكمة الأشياء والبحث عن حِكَم الأحكام الشرعية، فإنّه منافٍ للإخلاص، كما دلّ عليه بعض الروايات، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إيّاكم والغلو في الدين»، أي: البحث عن عللها وغوامض متعبّداتها، وعن بعض مشايخنا من أهل العرفان ادّعاء التجربة في ذلك.

ومنها: عدم الثقة بالله العظيم، فإنّ ذلك مناف للإيمان، فكيف بالإخلاص، وإنّه من المعاصي الكبيرة على ما فصّل في محلّه.

وهناك أمور أخرى منافية للإخلاص، ذكرها علماء الأخلاق ومشائخ العرفان في كتبهم ورسائلهم، ومَن شاء فليرجع إليها.

الفرق بين الرضا والإخلاص

تقدّم أنّ الإخلاص مراتب، أدناها مرتبة الرضا، بل هو كتمهيد له؛ ولذا أنّ الإخلاص يتضمّن الرضا ولا عكس، هذا كلّه في العبيد.

وأمّا رضائه تعالى، فهو عين محبّته، وإنّ محبّته عين إخلاصه، فلا يمكن التفكيك بينهما.

وممّا ذكرنا يظهر أنّ للرضا مراتب ودرجات، وأنّ أسماها هو التفويض، وأنّ أعلى مراتب التفويض الإخلاص، الذي هو مختصّ بالأولياء والصالحين.

وإنّ الصفات الحسنة المذكورة في الآية المباركة من الصدقة والمعروف، والإصلاح بين الناس، إذا كانت صادرة لابتغاء مرضاته تعالى وخالصاً لوجهه الكريم، كان ذلك مظهراً من مظاهر أسمائه، ويكون أدوم وأنفع للمجتمع ـ كما تقدّم ـ وإلاّ فالأمر إضافي[١].

(١) مواهب الرحمن، ص٢٧١ ـ ٢٧٨، ج (٩).

التوبة في القرآن

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا * وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

لما ختم سبحانه وتعالى الآيات السابقة بالتوبة، وبيّن أن بها تسقط العقوبة والحدّ الشرعي، ذكر عزّ وجلّ في هاتين الآيتين الشريفتين حقيقة من الحقائق الإلهيّة التي امتاز بها الإسلام عن سائر الأديان السماوية، فبيّن عزّ وجلّ حكم التوبة وأنّها حقّ من حقوق العبد على خالقه ومربّيه، وقد وصف نفسه بالرحمة وذكر شروط التوبة ومواردها. التي تقبل من الإنسان، والموارد التي لا تقبل.

كما بيّن عزّ وجلّ أن التوبة إنّما تكون وفق النظام الربوبي المتقن المبني على الحكمة والعلم.

والآية من الآيات المتعدّدة التي ترغّب العاصين إلى هذه الموهبة الربّانية وتحرّضهم إلى التوبة قبل فوات الأوان. وإنما ذكر عزّ وجلّ هذه الحقيقة ضمن الأحكام الإلهية، لما لها من الأهمية الكبرى في

تربية الإنسان وهدايته إلى السعادة والكمال، ولا تخلو الآيتان من الارتباط بالآيات الأخرى.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

بيان لحقيقة من الحقائق الإلهية التي كشف عنها القرآن الكريم بما لم يكشف عنها كتاب سماوي آخر، فإنّه بيّن حقيقة التوبة وشروطها ومواردها وآدابها وآثارها. ويمكن اعتبارها بحقّ من التعاليم المختصّة بهذا الكتاب العزيز، وأنّها لم تكن بهذه الخصوصية في سائر الشرايع الإلهية، وقد اهتمّ القرآن المجيد بها اهتماماً بليغاً حتى ورد ذكرها فيه بما يزيد على ثمانين مورداً، وسمّيت سورة من سور القرآن المجيد باسم التوبة.

والتوبة في نظر الإسلام من الأمور المعدودة التي لها جوانب متعدّدة، فهي عملية تربويّة تربّي الإنسان تربية دينية مبنيّة على الحقيقة دون الوهم والخيال، كما أنّها عملية إصلاحية، تصلح النفوس الفاسدة وتهذّبها وتزكيها وتصلح المجتمع وتجعله في المسار الصحيح، كما أنّها فضيلة أخلاقية، وهي من أجلّ مكارم الأخلاق. ونحن ذكرنا ما يتعلّق بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، فراجع الآية الكريمة.

(١) البقرة، الآيتان ١٥٩ ـ ١٦٠.

ومادة (توب) تدلّ على الرجوع، سواء استعملت بالنسبة إليه عزّ وجلّ أم استعملت بالنسبة إلى العبد، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾(١)، وتوبة الله تعالى على العبد هي الرجوع عليه بالرحمة والتوفيق وغفران الذنوب، وتوبة العبد هي الرجوع إلى الله تعالى بالندامة والانصراف عن المعصية.

والمستفاد من الآيات الواردة في هذا الموضوع أن توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالى:

إحداهما: التوفيق لها، لأن العبد محتاج بذاته وهو الفقير إليه عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾(٢)، فإذا وفّقه الله تعالى للتوبة، تاب ورجع إليه عزّ وجلّ بالندامة والانصراف عن المعصية.

الثانية: توبة الله تعالى عليه بالقبول والغفران، فتكون مطهّرة للعبد ممّا أصاب نفسه بسبب المعصية من القذارات والنجاسات المعنويّة، فيحصل بها التقرّب إليه عزّ وجلّ.

و(على) في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ تفيد اللزوم والثبوت، وهو يرادف الوجوب، وإنّما وجبت التوبة لأنها من أفراد رحمته التي أوجبها على نفسه، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾(٣)، واستعمال (على) في الوجوب واللزوم كثير ولا ضير في ذلك.

---

(١) التوبة، الآية ١١٨. (٢) فاطر، الآية ١٥. (٣) الأنعام، الآية ٥٤.

إلا ما يقال: من أن استعمال الوجوب بالنسبة إليه عزّ وجلّ أمر مستنكر، بل لا يصلح لأنّه لا سلطة على الله تعالى يوجب بها عليه، ولذا ذكر بعض المفسرين أن هذه العبارة وأمثالها التي هي ظاهرة في وجوب بعض الأشياء على الله قد جاءت على طريق العرب في التخاطب، ولا يفهم منه إلاّ أنّه واقع لا محالة.

ولا يخفى أن ذلك تطويل لا طائل تحته، وما ذكره أنّما هو تغيير في ظاهر اللّفظ، فلا مانع من إيجاب الله تعالى على نفسه أموراً تقتضيها حكمته المتعالية، وقد نطق بها القرآن الكريم وشهد بها العقل السليم من دون أن يكون لغيره سلطة عليه يوجب عليه شيئاً أو يكلّفه بتكليف، فإذا كانت التوبة من مصاديق الرحمة الإلهية التي وعد بها عباده، والله لا يخلف الميعاد، فيجب عليه قبول توبة عباده من هذه الجهة أيضاً.

ثم إن إطلاق الآية الشريفة يشمل جميع أقسام التوبة من الفكر والشرك والضلال وأنحاء الفسق والعصيان، إلاّ ما يستثنيه سبحانه وتعالى بعد ذلك.

نعم، تختلف أنحاء التوبة، ففي بعض المعاصي تكون بالإيمان بالله تعالى، وفي البعض الآخر تكون بأداء الحقوق، وفي ثالث بإيقاع الحدّ، وفي رابع باجتناب الكبائر، وفي خامس بالطاعة والمواظبة على الصلاة، وقد ذكرنا جميع ذلك في مبحث التوبة، فراجع آية ١٦٠ من سورة البقرة.

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾.

(للذين) خبر، و(التوبة) مبتدأ، و(على الله) متعلّق بما تعلّق به الخبر، وقيل غير ذلك، و(بجهالة) حال من فاعل (يعملون) والباء للسببيّة، و(السوء) هو العمل القبيح الذي يسوء فاعله بارتكابه، وهو لا يليق به سواءً كان كفراً أم معصية كبيرة أم صغيرة، و(الذين) عام يشمل المؤمن والكافر معاً، فالجملة تبيّن حالهما، لأنّهما معاً يعملان السوء. و(العمل) أعمّ من الجوارح أو عمل القلوب. والتعبير به ـ مع أن الكفر من أعمال القلوب ـ لبيان أن الكفر سيئة ومنشأ للأعمال السيئة.

والجهالة من الجهل مقابل العلم، والمراد بها إمّا عدم العلم بالموضوع أو الحكم أو هما معاً، قصوراً أو تقصيراً، وفي الكلّ لا يتحقّق العصيان حتى يتحقّق موضوع التوبة، لأن مقتضى ما هو المتواتر بين المسلمين عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «رفع عن أُمّتي ما لا يعلمون»، عموم الحكم لجميع أفراد عدم العلم. إلاّ أن يدعى الانصراف عن مورد التقصير، كما عن جمع من العلماء من تحقّق العصيان في الجهل التقصيري، وهو مقتضى ظاهر بعض الأخبار أيضاً، فلا تكون الجهالة في المقام بهذا المعنى بلا إشكال.

أو المراد بالجهالة في المقام فعل كلّ ما لا ينبغي صدوره عن العاقل المتوجّه إلى نفسه والعارف ـ ببصيرته ـ ما فيه صلاحه عن ما يسوؤه، كما في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾[١]، فما يصدر حينئذٍ عن الفرد

(١) يوسف، الآية ٨٩.

إنما يكون من داع نفساني غالب على ما تقتضيه القوة العاقلة، فيكون مغلوباً لنفس أمّارة وداعية شهويّة أو غضبيّة، وغواية الشيطان الذي يمني الإنسان بالسوء وحبّ العاجل والتغاضي عن الجزاء، فإن جميع ذلك توجب الغفلة والوقوع في الجهالة، فيغفل عن وجه قبح الفعل وذمّه مع كون الفاعل إنّما يفعل عن علم وإرادة، وعلى هذا تكون الجهالة قيداً توضيحياً، لكلّ معصية تصدر عن الهوى، وغلبة الشهوى والغضب، فتكون صادرة عن الجهالة، ولذا لو سكنت ثائرة الغضب وخمد لهيب الشهوة ورأى جزاء عمله عاد إلى العلم وزالت الجهالة وندم على فعلهن وممّا ذكرنا يظهر السرّ في قوله ﷺ: «كفى بالندم توبة».

هذا إذا لم يكن صدور الذنب عن المكابرة للحقّ وعناد معه، وإلاّ فإن ذلك يرجع إلى خبث الذات ورداءة الفطرة، ومعهما لا يرجع إلى الحقّ بالتوبة ويستمر على ذلك طول حياته، إلاّ إذا لحقته العناية الربّانية فيرجع عن عناده ولجاجته وتلحقه الندامة، وفي غير هذه الحالة لا يكون المعاند نادماً، وإن أظهر الندامة فإنّما يكون لحيلة يحتالها لنفسه فراراً عن الجزاء ونحوه، ويدلّ عليه رجوعه إلى غيّه ولجاجته لو ارتفعت الضرورة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1].

وممّا ذكرنا يظهر أن القيد يمكن أن يكون احترازياً أيضاً، فيكون المراد به أن لا يكون الذنب عن عناد ولجاجة واستعلاء على الله تعالى،

(١) الأنعام، الآية ٢٨.

ويشهد لذلك عدم تقييد عمل السيّئات بالجهالة في الآية التالية، فإن المنساق منها هو التعمّد والتجبّر على الله تعالى، كما يشهد قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، فالحالة التي تكون بين الموت وعمل السيّئة على أقسام:

الأول: أن يكون مبادراً إلى التوبة بعد عمل المعصية، فهذا تقبل التوبة منه.

الثاني: أن يكون بانياً على الطغيان والعصيان إلى أن يحضر بعض علامات الموت فيتوب حينئذٍ، والمنساق من الآيات الشريفة عدم قبول التوبة حينئذٍ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]، لأنّ التوبة إنّما تقبل في ظرف اختيار العبد وتمشّي القصد الجدّي منه، وهو لا يتحقق في وقت ظهور علامات الموت وورود الإنسان في الإشراف على أول منازل الآخرة وهو البرزخ، إذ لا اختيار له.

الثالث: ما إذا كان بانياً على التوبة بحسب الفطرة، ولكن تساهل فيها لغلبة الشهوات الدنيوية، حتى إذا حضر بعض علامات الموت التي لا تسلب الاختيار ويتحقّق منه القصد الجدّي في الطاعة والمعصية ويترتّب عليهما الآثار الشرعية والعرفيّة فتاب عن قصد، فحينئذٍ تقبل التوبة إن كانت جامعة للشرائط، كما تقبل وصيته، قال تعالى: ﴿كُتِبَ

---

(١) غافر، الآيتان ٨٤ ـ ٨٥.

عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾[١]، والروايات الدالّة على قبول التوبة حتى إذا بلغت النفس الحلقوم تختصّ بهذه الصورة، فتقبل التوبة لتحقّق موضوعها.

وبالجملة: بعد إرجاع بعض الآيات إلى بعض يستفاد منها أن عدم قبول التوبة إمّا لأجل عدم تحقّق الموضوع، كما في صورة العناد واللجاج، أو لأجل عدم تحقّق ظرفها وهو الاختيار والقصد للطاعة والمعصية، ونرجو منه جلّت عظمته أن يدخل عباده في قوله عزّ شأنه في القدسيات: «اغفر ولا أُبالي».

وقد ظهر من جميع ذلك أن الاحتمال الأول وهو كون القيد احترازياً، وإن كان أوفق للقواعد، فإن المعروف أن الأصل في القيود أن يكون احترازياً إلاّ أن كونه توضيحياً أوفق لسعة رحمته.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

القريب من الأمور الإضافية وله مراتب كثيرة، وقد استفاد العلماء من هذا اللفظ الفورية العرفية في التوبة، وهي في نفسها حسن، لأن العصيان حجاب بين العبد والمعبود ودرن للروح، والعقل يحكم بإزالة الدرن والنجاسة عن اللّباس والبدن فضلاً عن الروح، وهذا لا ينافي أن تكون الجملة إشارة إلى المسارعة وعدم

---

(١) البقرة، الآية ١٨٠.

التساهل، فيكون المراد من القريب الزمان القريب قبل ظهور الموت وبروز آيات الآخرة، بحيث لا يعدّ تساهلاً في أمر التوبة حتى تفوت الفرصة بحضور علامات الموت.

وبالجملة: المراد من قوله تعالى: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ التوبة في عهد قريب من قبل أن تموت الشهوات وتسقط دواعي المعصية، بل تكون في حال صراع النفس مع القوة العاقلة، فترغم النفس الأمّارة ويقلع عن المعصية ندماً، ويرغب في الطاعة شوقاً إلى رضاء الله تعالى وطلباً لعفوه وغفرانه، ويؤدّي حقوق الناس وحقوق الله سبحانه وتعالى لو كانتا عليه، ففي كلّ وقت صحّ إبراز ما في الضمير والإرادة الجدّية من القلب تقبل التوبة، كما عرفت آنفاً.

قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾.

أولئك اسم الإشارة الموضوع للبعيد، وهو مبتدأ وخبر جملة: «يتوب الله عليهم»، وعدّيت التوبة بـ(عليهم) لتضمّنها معنى العطف والرحمة، أي: أنّه تعالى يعطف عليهم بقبول التوبة ويعود بالرحمة.

وإنّما أشار إليهم بالبعيد إعلاماً بعلوّ قدرهم وتعظيم شأنهم، لأنّهم تابوا على حقيقة التوبة، والتفريغ بالفاء المفيدة لسببيّة ما قبلها لما بعدها، ولبيان أن قبول التوبة من مصاديق ذلك الوعد الذي قرّره تعالى في صدر الآية الكريمة.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: أن الله تعالى عالم بحقيقة الحال، فيعلم شؤون عباده

ومصالحهم، ويعلم المخلص في توبته، حكيم في أفعاله، قد وضع التوبة وفق نظام محكم، فلا تغرّه ظواهر الأحوال وصريف الأقوال.

وإنّما ذكر هذين الاسمين لبيان أهمية الموضوع وأنّه تابع لعلمه الأتمّ وحكمته المتعالية، يضع التوبة في مواضعها وهو أرحم الراحمين.

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

بيان لحال مَن لا تقبل توبتهم، وهم طائفتان:

إحداهما: لأجل عدم تحقّق موضوع التوبة منهم، وهم الذين يعملون السيئات دوماً ولا يتحقّق منهم الندم حتى إذا حضرهم الموت وانتفى أسباب العمل فلا داعي فيهم لعمل السيئات، لانقطاع آمالهم وموت شهواتهم، فلا تقبل توبتهم.

وإنما ترك عزّ وجلّ إعادة اسم الجلالة (على الله) لبيان انقطاع العناية الإلهية عنهم، وللإعلام بأن التوبة الصحيحة لا تقع منهم، لنفي موضوعها كما عرفت آنفاً.

وإنّما جمع عزّ وجلّ السيّئات وأفردها في الآية السابقة، وقال: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، للدلالة على إحصاء سيئاتهم الكثيرة العديدة، واستمرارهم على فعلها وإصرارهم على التكرار، بلا فرق بين أن تكون السيّئة المكرّرة من أنواع مختلفة أو من نوع واحد، فإن التكرار يوجب التعدّد لا محالة.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

أي: حتى إذا حضر الموت برؤية علاماته لاهية قلوبهم، والجملة تدلّ على استهانتهم بالتوبة واستحقارهم لموجبات الرحمة والمغفرة، فهم يدّعون التوبة حال العجز ولم تتحقّق حقيقتها عندهم، ولم ترغب نفوسهم عن الذنب، فإذا زال عنهم المهلكة عادوا إلى الذنب ورجعوا إلى المخالفة والعصيان، كما يخبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟﴾[1].

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾.

أي: أنّه في حال العجز واليأس يردّد على لسانه التوبة في تلك الحال فقط، من دون أن يكون ذلك من حاق نفسه.

والآية تدلّ على تحقّق التوبة اللّسانية مرّة واحدة بلا استمرار عليها، بخلاف الآية السابقة التي دلّت على الاستمرار المستفاد من هيئة المضارع في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، وهذه تؤكد ما ذكرناه آنفاً من أن التوبة منه ليست على الحقيقة، فإنّه التجأ إليها عند مشاهدة سلطان الآخرة وانقطاع أمله عن الدنيا بحضور الموت، ولذا ذكر عزّ وجلّ: ﴿قَالَ إِنِّى﴾، ولم يقل: (تاب) ونحو ذلك، تحاشياً عن تسمية ما قاله توبة، ونظير ذلك قوله تعالى حكاية عن المجرمين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[2].

---

(١) الأنعام، الآية ٢٨.

(٢) السجدة، الآية ١٢.

قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

بيان لحال الطائفة الثانية، وهم الذين يصدر عنهم الذنب عناداً ولجاجاً واستكباراً على الله تعالى، فلا توبة لهؤلاء، كما لا توبة لأولئك لأنّهم تمادوا في الكفر فماتوا وهم كافرون، فلم تصدر عنهم السيّئات بجهالة، بل عن عناد ولجاج، فإذا مات الإنسان على هذه الحالة لا تنفعه التوبة ولا نجاة له بعد الموت، وقد أكّد القرآن الكريم ذلك في مواضع متعدّدة، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[١].

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: أولئك الفريقان قد أعتدنا لهم وهيّانا لهم عذاباً أليماً مؤلماً، جزاءً لأعمالهم السيئة التي قدّموها في دار الأعمال. وقد ذكرهم باسم الإشارة للدلالة على بعدهم عن ساحة القرب والعناية الربّانية.

(١) البقرة، الآيات ١٥٩ ـ ١٦٢.

بحوث المقام

بحث دلالي

يستفاد من الآيات الشريفة أمور:

الأول: يستفاد من الحصر الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أن التوبة من الأمور المختصّة به عزّ وجلّ، ومن مظاهر ربوبيّته العظمى، ومن مصاديق رحمته الواسعة التي وسعت كلّ شيء، وهو ردّ على كلّ مَن يدّعي أن هذا الأمر يمكن أن يتصدّيه بعض الأفراد، إمّا ولي من أولياء الله تعالى، أو الكنيسة كما في الديانة المسيحية التي اعترفت لها غفران الذنوب حتى بلغ من إفراط الكنيسة أنها كانت تبيع صكوك الغفران بعدما كانت التوبة في هذه الديانة من الأمور غير النافعة للإنسان، لأن المسيح عليه السلام فدّى بنفسه لأجل خلاص الإنسان، على ما هو المعروف عندهم.

فالآية الشريفة ردّ على جميع المزاعم، فإنّها صريحة في أن التوبة من شؤون الباري عزّ وجلّ، وأنّها محصورة عليه تبارك وتعالى لا شأن لأحد غيره فيها.

الثاني: تدلّ الآية الشريفة على فضل التوبة، وأنّها من مظاهر

رحمته عزّ وجلّ وفضله العظيم، وقد منَّ بها على عباده، ومن المعلوم أنّه لا شيء يوجب رحمته عليه، ولكن لا ينافي ذلك وجوب هذا القسم من الفضل عليه بإيجاب من نفسه على نفسه لا من إيجاب غيره عليه، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في مبحث التوبة في سورة البقرة الآية ١٦٢.

وأما ما ذكره بعض المفسّرين من أن الله تعالى غير مجبور في قبول التوبة، لأنّ له الأمر والمُلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، واستدلّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُوا۟ كُفۡرًا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾[1]، وقوله تعالى، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزۡدَادُوا۟ كُفۡرًا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلًۢا﴾[2].

فإنّه يردّ عليه: أن الله تعالى قد وعد عباده بقبول التوبة ـ كما اعترف به هذا المستدلّ ـ وكلّ وعد منه عزّ وجلّ واجب الوفاء عليه، كما قال في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[3]، والآيات الشريفة التي استدلّ بها تدلّ على عدم قبول توبة المتمادي في الكفر، وهذا ما استثناه عزّ وجلّ من القبول في المقام أيضاً كما عرفت.

وكيف، فالآية الشريفة من الآيات التي تعتني بشأن العاصين، وتأمرهم بالتوبة من الشرك والضلال والسيّئات والمعاصي كلّها.

---

(١) آل عمران، الآية ٩٠.
(٢) النساء، الآية ١٣٧.
(٣) آل عمران، الآية ٩.

وللتوبة آثار عظيمة، فإنّها من سُبل الصلاح والتقوى، وتجلب السعادة وتزيل درن الشقاء والرذيلة من القلب الذي هو محل الصلاح والفساد معاً. وتصفي النفوس التي انكدرت بالعصيان، وتزيل الغشاوة عن القلوب، وترفع الموانع عن طريق سير الإنسان نحو السعادة والكمال، وتخلّص الناس من بوار الذنب وهلاك المعصية، وهي الوسيلة للفلاح، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

ومن آثار التوبة أيضاً أنّها تجعل قلب المذنب متعلّقاً بالرحمة الإلهية وتبعث روح الرجاء بعد انخماد نور النفس بظلمة الذنب، وتمحو الآثار السيئة التي تترتب على الحياة بسبب العصيان وعمل السيّئات. والآية المباركة تعدّ البشارة العظمى للمذنبين.

ثم إن للتوبة مظاهر مختلفة كالندم، والاستغفار، والانقلاع عن المعصية، وإتيان الطاعة، والتلبّس بالعمل الصالح، وأداء الحقوق، وغير ذلك ممّا ذكره علماء الأخلاق، وتقدّم في مبحث التوبة، وهي تبدّل السيّئات بالحسنات.

الثالث: يستفاد من الآية الشريفة أن التوبة أمر اختياري، فإنّها رجوع إلى الله تعالى بعد البُعد عنه بسبب فعل السيئة وإتيان المعصية، بالدخول في سلك الطاعة والعبودية بعد الإعراض عنه عزّ وجلّ، وذلك لا يتحقّق إلاّ في ظرف الاختيار، وكون العبد مخيّراً بين طريقي الصلاح

(١) النور، الآية ٣١.

والسعادة، والطلاح والشقاوة، وفي غير ذلك فلا توبة له، لما يدلّ عليه ذيل الآية الشريفة.

الرابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ أن كلّ ذنب يصدر عن جهالة قابل للعفو والغفران من الله تعالى، وبهذا القيد يخرج كلّ ذنب يصدر عن لجاج وعناد مع الحقّ واستكباراً على الله تعالى، وقد عرفت في التفسير أن الجهالة في المقام ـ وفي باب الأعمال على العموم ـ هي الغفلة عن وجه قبح الفعل وفساده، لغلبة الشهوة واستيلاء الهوى، ولكن ذلك لا يسلب نسبة الفعل إلى الفاعل، لأنّه صدر عنه عن علم وإرادة، كما يسمّى الشاب قليل التجربة جاهلاً، لأجل غلبة العواطف والنزوات الشهوانية عليه.

والخامس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أن المؤمن إذا صدر عنه الذنب ينبغي أن يبادر إلى التوبة بعده ولا يسوّف في ذلك، فهو في صراع مع النفس الأمّارة، وتوبة مستمرة يرجو رحمة ربّه، وهذا ينبىء عن حسن السريرة وشدّة الأمل بالله تعالى، ولعلّ ما ورد في بعض الروايات: «طوبى لمن كان له تحت كلّ سيئة توبة»، إشارة إلى ذلك، ويستفاد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾، أولويّة التوبة من الذنب من ترك الذنب رأساً، فإن الله تعالى مدح التائبين من الذنب وأدخلهم تحت رحمته وقرّبهم إليه. وقال بعض العلماء: إن ترك الذنب مطلقاً أحسن وأولى من ارتكابه ثم التوبة عنه، لأن الله تعالى مدح هؤلاء بما لم يرد في غيرهم، وهم المختصّون لمقام العبودية التشريفيّة.

ولكن، يمكن اختيار الأوّل لكثرة ما ورد من الترغيب إلى التوبة كتاباً وسنّة، وقد ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «التائب من الذنب كمَن لا ذنب له»، فيصير التائب من الذنب مساوياً له من هذه الجهة، أي: عدم الذنب، ويكون تذلّله ممّا في نفسه عند ربّه لتصوّره لما صدر منه من المعصية موجباً لترجيح هذا المقام بنفسه عند الله تبارك وتعالى.

نعم، مَن عصمه الله من الزلل كالأنبياء والأئمة الهداة عليهم السلام والأولياء، لهم مقام خاص وهبه الله تعالى لهم.

وفي حديث آخر: «لولا أنّكم تذنبون الله ثم تستغفرونه لذهب بكم، ثم يأتي بأقوام يذنبونه ثم يستغفرونه»، وهذا هو المطابق لما هو المتسالم بين أذواق المتألّهين من أن كلّ اسم من أسماء الله المقدّسة لا بد له من مظهر خارجي، ومن أسمائه جلّت عظمته التوّاب والغفور، ولا مظهر لذلك إلاّ بعد الذنب والتوبة.

مع أن حالة الندامة والاستحياء من الله تعالى من حالات العبد وأحسنها، ولا تتحقق تلك الحالة إلاّ بذلك.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ على وعد منه عزّ وجلّ للمذنبين بقبول توبتهم، وهو لا يخلف الميعاد. كما أنه يدلّ على أن التوبة الصحيحة الجامعة للشرائط تمحو الذنوب وتزيلها.

السابع: يمكن أن يكون المراد من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ موت الأمزجة والقوى، فمَن كانت معاصيه من سنخ أعمال الشهوة الجنسية ووصل إلى سن الأربعين مثلاً وترك تلك

المعاصي لأجل عوارض عرضت عليه، فلا توبة له حينئذٍ، وكذلك سائر القوى، لأنّه لا توبة بعد انتفاء القدرة على ارتكاب المعاصي، وهذا الاحتمال وإن كان مخالفاً لما استفدناه من الآيات المباركة، ولكنّه احتمال حسن يوجب المسارعة إلى التوبة والاستعداد لها في حال القدرة.

الثامن: إطلاق الآية الشريفة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾، يشمل التوبة من الشرك وجميع المعاصي، ويشمل أيضاً المؤمن والكافر إذا تاب عن كفره، فيكون إسلامه توبة لما صدر عنه في حال كفره، لقوله ﷺ: «الإسلام يجب ما قبله» وأما توبته عن معصية فيها حقّ الله في حال كفره، مع بقائه على الكفر فيشكل قبولها.

نعم، إذا كان الذنب من حقوق الناس كالسرقة وإيذاء الناس ونحوهما، فأرضى الناس، سقط هذا الذنب منه لزوال موضوعه، ويمكن أن يستفاد ذلك من مفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾، أن توبة الكافرين في حال حياتهم مقبولة، إلاّ أن يستظهر ذلك بخصوص إسلامهم.

التاسع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾، أن التوبة من الله تعالى تشمل العاصين من المؤمنين إذا استغفر لهم الأحياء ولو بعد مماتهم، بخلاف الكافر المعاند الذي مات على الكفر، بلا فرق بين أقسامه.

بحث روائي

في الكافي: عن جميل بن دراج، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إذا بلغت النفس هاهنا ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ لم يكن للعالم توبة، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾.

أقول: أراد عليه السلام بالعالم هو اللجوج المستكبر على الله تعالى، وإطلاق الآية الشريفة لا ينافي ما ذكرناه سابقاً، ويمكن أن يجمع بذلك بين ما ورد من عدم قبول التوبة حين ظهور علامات الموت، وما ورد من قبولها حينها، بحمل الأوّل على العالم العامد المستكبر على الله تعالى كفرعون ونحوه، والثاني على غيره.

وفي تفسير العياشي: عن أبي عمرو الزبيري، عن الصادق عليه السلام قال: «كل ذنب عمله العبد وإن كان عالماً به فهو جاهل حين خاطر لنفسه في معصية ربّه، وقد قال في ذلك تبارك وتعالى يحكي عن قول يوسف لإخوته: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾، فنسبهم إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله عزّ وجلّ

أقول: يشهد ذلك على ما قلناه في معنى الجهالة.

وفي تفسير العياشي ـ أيضاً ـ: عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا بلغت النفس هذه ـ وأهوى بيده إلى حنجرته ـ لم يكن للعالم توبة، وكانت للجاهل توبة».

أقول: يشهد ذلك على ما جمعنا به بين الروايات آنفاً.

وفي الكافي: عن محمّد بن مسلم، عن جعفر عليه السلام قال: «يا محمّد بن مسلم، ذنوب المؤمن إذا تاب عنها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله أنّها ليست إلاّ لأهل الإيمان، قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار في الذنوب وعاد في التوبة؟ فقال: يا محمّد بن مسلم، أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه فيستغفر الله منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟! قلت: فإن فعل ذلك مراراً، يذنب ثم يتوب ويستغفر؟ فقال: كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة، عاد الله تعالى عليه بالمغفرة، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإيّاك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله».

أقول: ورد في بعض الروايات إلى سبعين مرة، ويشهد لذلك تحذير الإمام عليه السلام الراوي في ذيل الرواية، ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، إذ المراد بالجميع الكثرة العددية، ثم إنّه قد ذكرنا الروايات الواردة في التوبة في مبحث التوبة، فراجع سورة البقرة الآية ١٦٠.

(١) الزمر، الآية ٥٣.

محبوبية التوبة

التذلّل لدى المعبود الحقيقي الجامع لجميع الكمالات غير المتناهيّة، والاعتراف بالقصور والتقصير عنده، محبوبان لديه عزّ وجلّ. والعبودية التي هي غاية مقامات العارفين وأولياء الله المخلصين، متقوّمة بهما، فإنّه لا ريب في تحقّق الارتباط بين الممكن والواجب، كالارتباط بين المعلول مع العلّة التامة، والمخلوق مع الخالق، والأثر مع المؤثّر بلا فرق في ذلك بين المجرّدات والمادّيات والأملاك والأفلاك، فإن جميعها متعلّقة بالإرادة الأزليّة حدوثاً وبقاءً وبزوالها ينعدم جميع ما سوى الله تعالى، ولا يبقى إلاّ وجهه الواحد القهّار، ولكن الإنسان يرتبط مع الله جلّ جلاله بارتباطين:

الأول: الارتباط العام القهري، الذي يعمّ جميع الخلق وما سواه تعالى.

الثاني: الارتباط الاختياري، أي: الطاعة والامتثال والانقياد، وهذا هو الأصل والأساس في علاقة الإنسان مع الله عزّ وجلّ، فإذا زال يبقى الارتباط الأول، وهو يعمّ الجميع ـ الحيوان والجماد ـ على حدٍّ سواء.

والإنسانية إنّما تظهر في الارتباط الثاني، ولا يزول إلاّ بالطغيان والعصيان، وحينئذٍ لا بد من التوبة والرجوع إلى الله تعالى ليعود

الارتباط إلى ما كان عليه وتستكمل به الإنسانية، وتزول الشقاوة وتحلّ محلها السعادة الأبدية، إذ القرب من ينبوع الحكمة والعلم والكمال المطلق يوجب بلوغ الإنسانية إلى الكمال ويتم به العقل والدين، كما أن البعد عنه يوجب زوال ذلك كلّه، فللتوبة الحقيقية دخل في استكمال الإنسانية والدين والعقل، ويكفي في فضلها أن فيها يتجلّى المبعود الأعظم للتائبين بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فالعبد يعترف بما هو مَن زي العبودية، والمعبود يظهر بما هو من شأن الربوبية الواقعية، ولذا ترى أن أحبّ حالات المتعبّدين إلى الله تعالى هي حالة الاعتراف بالتقصير، كما هو واضح في الدعوات المأثورة عن الأئمة الأطهار عليهم السلام، لا سيما الصحيفة الملكوتية السجادية على صاحبها ومنشئها عليه السلام، وليس الاعتراف بالتقصير مع عدم صدور ذلك عنهم كذباً، لأنّهم يعلمون أن تلك الحالة محبوبة لله عزّ وجلّ وتقرّبهم إليه تعالى، ويعترفون بذلك في جملة من دعواتهم الشريفة، وهذا كاشف عن اشتياقهم إلى هذا المقام من العبودية.

ثم إن ظاهر الآية الشريفة: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾، إنّما هو في الموت الطبيعي الذي هو مسير كلّ ذي حياة، وأما الموت الاختياري الذي هو غاية آمال العارفين وقرّة عين أهل التوقى واليقين، فهو فوق التوبة بمراتب كثيرة إذا وفّق له وليّ من أولياء الله تعالى بشرطه وشروطه[1].

(١) مواهب الرحمن، ص٣٣١ ـ ٣٤٥، ج (٧).

الصلاة وتزكية النفس

من أسباب تزكية النفس ورقيّها الصلاة، بل هي من أهمّها وأسماها ـ لما علم الله تعالى من وجود الشره المؤدّي إلى الهلاك والخسران في الإنسان، جعل الطاعات والعبادات ـ خصوصاً الصلاة صوناً للنفس وحفظاً لها عن الهلاك والخسران، بل لرقيّها إلى مراتب الكمال، ففي الحديث: «ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحبّ إليه من الصلاة، ولو كان شيء أحبّ إليه من الصلاة تعبّد به ملائكته، فمنهم راكع وساجد وقائم وقاعد»، فبها يزول الدنس كما في بعض الروايات، وإنّها مطهرة للقلوب من المساوىء والعيوب، وبها تفتح أبواب الغيوب، وبها تطمئن القلوب، وبها ترفع الدرجات، وفيها المناجاة برفع الأستار، وتتسع فيها ميادين الأسرار، وبها تشرق شوارق الأنوار، وبها تزال الحجب والأستار بالقرب إليه، وبها تصفو المحبّة من كدر الجفاء ويتّصل المحبّ مع حبيبه في محلّ الصفا.

ولقد علم الله تعالى ضعف الإنسان ووساوس الشيطان، فقلّل أعدادها وفرض في ليلة المعراج خمس صلوات في خمس أوقات بشفاعة نبيّنا الأعظم ﷺ، وهذا لعوام الخلق، وإلاّ فالعارفون من

الخواص: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[١]، منحهم ديمومة الصلاة من الأزل إلى الأبد، وهذا لا يدرك بالعقول القاصرة المشوبة بالمادة الزائلة، فلا يعقلها إلاّ العالمون بالله تعالى.

وإنّ المقصود والأثر المطلوب من إقامة الصلاة معنويّاتها، لا مجرّد وجودها وشبحها، فإنّ الإقامة هي الإكمال والاتقان، يقال: (فلان أقام داره)، أي: أكملها وجعل فيها كلّ ما يحتاج إليه. وإنّ إقامة الصلاة تعديلها من جميع الجهات ـ بالتوجّه فيها إليه تعالى والتقرّب بها لديه جلّ شأنه وحفظ أركانها وشرائطها حتى تترتّب آثارها ـ فليس كلّ مصلّ مقيم، وكم من مصلّ ليس له من صلاته إلاّ التعب، وفي بعض الأحاديث: «مَن لم تنه صلاته من الفحشاء والمنكر، لم تزده من الله إلا بُعداً»، وعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إذا صلّى العبد فلم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها، لُفت كما يلف الثوب الخَلِق ثمّ يضرب بها وجهه»، فالمصلّون كثيرون والمقيمون قليلون وأهل الأشباح كثير وأهل القلوب وأرباب المعرفة قليل.

والتعبيرات الواردة في القرآن الكريم في مدح المصلّين أكثرها وأغلبها جاء بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٢]، وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[٣]، وقال تعالى:

(١) المعارج، الآية ٢٣.
(٢) البقرة، الآية ٣.
(٣) إبراهيم، الآية ٤٠.

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[٢]، ولما ذكر المصلّين بالغفلة قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٣]، ولم يقل سبحانه وتعالى: فويل للمقيمين الصلاة، وفي الحديث: «إنّ العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبه إلى الهوىّ يصلّون بصلاته»، إلى غير ذلك من الروايات والأحاديث.

والتوجّه أو الخشوع فيها على مراتب:

الأولى: خشوع، خوف، إذلال وانكسار لعظمته وقهّاريته، وهي للعبّاد الزهّاد.

الثانية: خشوع تعظيم وهيبة وإجلال، وهي للمتّقين الأبرار.

الثالثة: خشوع فرح وسرور وإقبال، وهي للمقرّبين العارفين، ويسمّى هذا المقام بقرّة العين، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٤].

الرابعة: الجمع في مقام الجمع، وهذه تختصّ بالأولياء والمقرّبين، فيها تتمّ التصفية وتظهر المحبّة وتفتح الأبواب ويرتفع الحجاب، فتخرج الروح من ضيق الأشباح إلى فضاء الكمال في عالم الأرواح، أو من ضيق المُلك إلى سعة عالم الملكوت.

---

(١) الحج، الآية ٣٥.
(٢) التوبة، الآية ١٨.
(٣) الماعون، الآية ٥.
(٤) السجدة، الآية ٢٩.

ولا شكّ أن إمداداته وإفاضاته جلّت عظمته غير محدودة بحدّ ولا بزمان معين؛ لصدورهما عن ذات غير المتناهي.

نعم، ترد على العبد حالات خاصة وظروفاً معيّنة يكون التوجّه فيهما إليه أشدّ وأكثر، فلها آثار مخصوصة لنجح المقاصد وإنجاز المطالب، منها حالة الصلاة، خصوصاً عن الانقطاع إليه تعالى كالسفر والخوف والمرض وغيرها، ولأجل ذلك ورد الاستعانة بها وقالوا: إنّ الصلاة لا تسقط في أي حال؛ لأنّه لا بد للعبد من حفظ الصلة بينه وبين ربّه، وبها تتمّ المحبّة وتحصل المودّة[١].

---

(١) مواهب الرحمن، ص٢٣٠ ـ ٢٣٢، ج (٩).

التقوى وتهذيب النفس

﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

تتضمّن الآيتان الشريفتان على حكم تربوي إصلاحي له الأثر الكبير في تهذيب النفس، وتوحيد صفوف المجتمع الإسلامي الذي طالما تمنّى الأعداء تقويضه باستعمال كلّ الأمور والأساليب في إيجاد ثغرات ينفذون منها في تشتيت كلمتهم، وكان من أهم الأمور التي تفتّت عضد المسلمين وتشلّ قواهم وتهدّد كيانهم، وتقدح الفتنة بينهم، هي الأقوال السيئة التي تؤجّج البغضاء والعصبية، فإنّ ما يصدر من اللسان هو من أهم المؤثّرات في الإنسان، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، وقد ورد في الحديث: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم»، أي: ما يقطعونه من الكلام الذي لا خير فيه.

والآيتان الشريفتان تعالجان هذا الموضوع من جوانب متعدّدة، فمن جانب تثبت فيه حكماً شرعياً، وهو التحريم بأسلوب لطيف يجعل المؤمن يشعر شعوراً داخلياً بأنّ الأمر مكروه وله مخاطر عديدة على

النفس والمجتمع، فقال عزّ وجلّ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، ويكفي للمؤمنين هذا الخطاب الربوبي في إثبات إحساس داخلي متّصل بالحي القيوم بالإئتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه.

ومن جانب آخر يثبت الموضوع السوء من القول ويعتبره من أفراد الظلم الذي تشمئزّ منه النفوس وتنفر منه الطباع وتنكره الفطرة، وتعميمه بحيث يشمل جميع أفراده قولاً كالبهتان والشتم والسباب، أو عملاً كالهمز، وجميع ما يوجب إثارة الشحناء والبغضاء.

وإنّما خصّ عزّ وجلّ السيء من الأقوال لعظيم أثرها في النفوس؛ ولأنّها الوسيلة الوحيدة في تضعيفها، وانتشاء السيء من الأفعال ومنها ينفذ الأعداء، ثمّ يعالج الفرد الواقع منه في المجتمع بأسلوب تربوي يحدّ من انتشار أمثاله ويقلّل من تأثيره على الإنسان المظلوم، فأباح له مثل ما ظلم به من سيء القول، ولم يبح له أكثر من ذلك، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾، وأعطى الضمان عزّ وجلّ لهذا الحكم فقال عزّ من قائل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾، فإن الله تعالى يسمع أقوال الظالمين فيجازيهم عليها، كما يعلم شكاوي المظلومين وتظلّمهم، فأباح لهم التظّلم بإظهار ما ظلموا به.

وهذا الحكم وإن لوحظ في الجانب التربوي للتحديد من الظلم إلاّ أنه لم يكن حاسماً للموقف، فحبّب إليهم الخير واعتبره عزّ وجلّ هو الأصلح في هذا الموقف الذي لا بّد من إزالة الشحناء وتطويق الخلاف، واعتبره حكماً إصلاحياً للنفوس بالترويض على الخير وجعله

مستولياً على جميع مشاعرها، فلا يتقصر على الخير في حالة واحدة، بل من الأفضل تعميمه لجميع الحالات.

وخصّ من أفراد الخير العفو عن السيء كلّها؛ لأنه من صفات الباري عزّ وجلّ، ولأنّه يزيل ما أوجب كدر الصفو بين الأفراد، ويرجع الثقة بينهم، فتضمّنت هاتان الآيتان حكماً تربوياً إصلاحياً، واشتملتا على خلق كريم نبيل هو من أخلاق الله عزّ وجلّ، وقد عرفت في التفسير أنّ هذا الخلق له الأثر العظيم في ما إذا كان عند المقدرة، دون العفو التابع من الذلّة، فإنّه ليس بتلك المثابة ولم يعد أن يكون خلقاً كريماً.

وتعلّق حبّه تعالى بأمر عقلي كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، يدلّ على أنّ ذلك لا يختصّ بهذا الدين الحنيف، وإنّما يعمّ جميع الأديان السماوية؛ لأن محبّة المحسنين أمر فطري، وكذا عدم حبّه لشيء تبغضه الفطرة، فيكون قبح الجهر ممّا لا يختصّ بهذا الدين.

وإنّ قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يمكن أن يكون إشارة إلى المراتب في العمل، فمّن كان قادراً على الإبداء والجهر بأن صان نفسه عن المهالك ـ كالرياء والعجب والغرور ـ يبدي في العمل، وإلاّ فيخفي حفظاً عنها وصوناً عن الشوائب والمكائد الشيطانية.

(١) البقرة، الآية ١٩٥.

بحث روائي

في تفسير العياشي بإسناده عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، قال: «من أضاف قوماً فأساء ضيافتهم، فهو ممّن ظُلم، فلا جناح عليهم فيما قالوا فيه».

أقول: قريب منه ما في الدرّ المنثور، ومعنى الرواية أنّه لا يجوز التعدّي عن ما لاقاه الضعيف من سوء الضيافة، فغاية ما يجوز له أن يقول مثلاً: (لم يحسن ضيافتي، أو أساء في ضيافته)، فإنّ ذلك نوع من الظلم الخُلقي، ومن المعلوم أنّ للظلم أنواعاً، ولكلّ نوع مراتب، وفي كلّ مرتبة درجات، والرواية من باب ذكر أحد المصاديق كما هو واضح منها.

وفي تفسير العياشي عن أبي الجارود عن الصادق عليه السلام: ﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قال: أن يذكر الرجل بما فيه».

أقول: لا بدّ وأن يقيّد بما لم يكن من المستثنيات.

وفي تفسير علي بن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ قال: «لا يحبّ الله أن يجهر الرجل بالظلم والسوء ولا يظلم، إلاّ مَن ظُلم، فقد أطلق له أن يعارضه الظلم».

أقول: المراد من ذيل الرواية بما لا يوجب التعدّي عليه أو ينافي الشرع، وإلاّ فلا يجوز كما تقدّم، وفي بعض الروايات: «إنّ الله تعالى جعل لكلّ شيء حدّاً، وجعل على مَن تعدّى الحدّ حدّاً».

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ إن جاءك رجل وقال فيك ما ليس فيك من الخير والثناء والعمل الصالح، فلا تقبله منه فكذّبه فقد ظلمك».

أقول: إمّا عدم القبول لعدم الحقيقة ونفي الواقع، وإمّا تكذيبه لإرشاده إلى الواقع، والمراد من قوله عليه السلام: «فقد ظلمك»؛ لأنّه قال فيك ما ليس فيك، فإنّه يوجب حبّ الثناء والمحمدة، ويعتبر ذلك عند علماء الأخلاق أُم الفساد وأصل المهلكات؛ لما يستلزم الغرور وصرف النفس عن نيل الكمال والبُعد عن الحقائق والوقوع في المساوىء والضلال، وذلك ظلم كبير.

وفي المجمع: قال في الآية المباركة: «لا يحبّ الله الشتم في الانتصار، إلاّ مَن ظلم، فلا بأس له أن ينتصر ممّن ظلم بما يجوز الانتصار في الدين».

أقول: الروايات الدالّة على أن الله تبارك وتعالى يبغض القول السيء أو الشتم كثيرة جداً، إلاّ مَن ظلم بما يجوز في الدين، فلو حصل التعدّي أو ممّا لا يجوز في الدين، فلم يرخّصه الشارع.

وفي الدرّ المنثور: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: مَن دعا على مَن ظلمه فقد انتصر».

أقول: ورد في الروايات المستفيضة أنّ دعاء المظلوم لا يرد، وأنّها تخرق الحجب السبع. وقد أخذ المظلوم حقّه ممّا يهبه سبحانه وتعالى له؛ ولذا انتصر.

وفي بعض التواريخ يحكى عن ابن السكيت (رضوان الله تعالى عليه) معلم أبناء المتوكّل: جلس معه المتوكّل يوماً فجاء المعتز والمؤيد ابنا المتوكّل، فقال له: أيّما أحبّ إليك إبناي، أم الحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال ابن السكيت: والله إنّ قنبر خادم علي عليه السلام خير منك ومن ابنيك، فقال المتوكل العباسي: سلوا لسانه من قفاه، ففعلوا فمات، ومن العجب أنّه أنشد قبل ذلك للمعتزّ والمؤيد.

يصاب الفتى من عثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل

فعثرته في القول تذهب رأسه وعثرته في الرجل تبرأ على مُهل

أقول: لعلّ ابن السكيت رحمه الله رأى تكليفه في إظهار الحقيقة والواقع، وعلم أنّ المتوكّل أراد قتله على أي حال استعمل التقيّة أو لم يستعملها، وإلاّ كان له الفرار من البلاء بذريعة التقيّة أو بغيرها ولم يتجاهر بعقيدته أو بالواقع؛ لقاعدة تقديم الأهمّ وهو حفظ النفس المؤمنة على غيره وهو المهمّ، أو هيّجه حبّه لأهل البيت عليهم السلام، وكيف كان فرضوان الله تعالى عليه.

بحث عرفاني

يمكن أن تكون الآية الشريفة: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

إشارة إلى ما تعرض على النفس من الحالات التي يتأثر المؤمن بها، كالتحدّث مع النفس في الخواص، سواء أكان ذلك في العقائد أم في العوائد، ولا فرق في العوائد بين أن تكون نفسية باطنية ـ كحبّ

الجاه والرياسة، وطلب الخصوصية، وحبّ المدح، وخوف الفقر وغيرها ـ أم ظاهرية، مثل كثرة المخاصمة والعتاب وغيرها ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ بداعي البشرية غير الاختيارية كالابتلاء بالاضطرار، ودفع الحرج وغيرهما، فما يعرض على قلب المؤمن من الأوهام التي يتألّم ويتأثّر بها بلا أثر خارجي لتلك الأوهام ويصير المؤمن مظلوماً، فلا عتاب عليه من المحبوب.

أو ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالخطرات التي تختلج على قلب أخصّ الخواص، فإنها توجب النزول عن سمو مقامهم ـ كما في بعض الروايات ـ لأنّ ما تمرّ على قلوبهم لها دخل في حطّ تقرّبهم لديه جلّ شأنه وإن لم يكن كذلك عند الخواص فضلاً عن العوام، فإنّ «حسنات الأبرار سيئات المتقرّبين»، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾[1]، ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ بالمنع من التمتع بحضرة قدسه بشهود الجمال بالاشتغال في أمور العباد التي توجب هدايتهم إلى معرفة ربّ الأرباب، ونجاتهم من المهالك والظلمات.

أو ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ بإفشاء أسرار الربوبيّة وإعلام المواهب الألوهية على مَن لا يليق بالتشرّف لساحة قدسه، وران على قلبه، وتاه في الظلمات فعمى عليه معرفة الخير من الشر ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ بغلبات الأحوال من إظهار شيء من الحجّة والبرهان، لا بإفشاء الأسرار ورفع الحجب.

(١) المجادلة، الآية ١١.

وعلى أي حال، ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ في الأزل والأبد ﴿سميعا﴾ لأقوالكم و﴿عَلِيمًا﴾ بأحوالكم ومقاماتكم. و﴿إن تبدو خيرا﴾ مما أفاض عليكم من النّعم والحالات وما وهب لكم من المكاشفات بترقّي النفوس إلى المقامات ووصلوها إلى أعلى الدرجات، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ حفظاً عن الشوائب وصوناً عن المكائد ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ بترك إعلام ما جعل الله إظهاره سوءاً، أو تعفوا بما تدعوكم به النفس الأمارة بالسوء بأن لا تتّبعوها أو تصفحوا عن المسيء كما يصفح عنكم الجليل، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ كان في الأزل والأبد رحيماً، وبمقتضى رحمته كان ﴿عَفُوًّا﴾ عنكم لو اتّصفتم بمظاهر أخلاقه جلّ شأنه، ﴿قَدِيرًا﴾ على كل شيء، فإنه قادر على أن لا يعفو عن أحد ويذلّ عبده بردّه إلى نفسه وهواه وإيكاله إلى نفسه مع الاختيار ويؤاخذه لكفرانه، فإنّه ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[1]، ولكن رحمته التي وسعت كل شيء، ومحبّته لخلقه ورأفته لهم تقتضيان أن يعفو عن الجميع، فإنّه ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[2]، ويعفو عن المسيء مهما توغّل في الظلمات وبَعُدَ عن ساحة قدس ربّ السموات.

---

(١) إبراهيم، الآية ٣٤.

(٢) الزمر، الآية ٥٣.

معرفة النفس

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

آية عظيمة في معرفة النفس والرجوع إليها وتهذيبها بالأخلاق الفاضلة وتكميلها بالكمالات الحقيقية، فيأمر عزّ وجلّ المؤمنين رحمة بهم بأن يكون شغلهم الشاغل لزوم أنفسهم والنظر فيها ورفع نقائصها، وأن يصرفوا همهم في التخلية والتحلية ليتجلى لهم الرب فينبئهم بما عملوا ولا يضرهم عمل الغير وضلاله إذا لم يكن قابلاً للهداية فلا يمنعكم ضلالهم إذا كنتم على هداية ولا يوحشكم فقدانهم، وقد بيَّن عزّ وجلّ في هذه الآية الكريمة مواقع النفوذ إلى النفس والتسلّط عليها ومن ذلك يعلم وجه الارتباط بما سبقها من الآيات التي بيّنت بعض عيوب النفس والعادات السيئة التي كان عليها أهل الضلال، وهي من الأمثال القرآنية التي تضرب بها الأمثال.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

خطاب لأهل الإيمان لما فيهم من الأهلية للتخاطب معهم، وإن

---

(١) المائدة، الآية ١٠٥.

لهم القابلية لمراعاة المضمون والالتزام بالمقصود. والمراد بقوله ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي الزموها بالصلاح والتزكية واحفظوها من اقتراف المعاصي وارتكاب الآثام.

فعليكم من كلم الإغراء وهو اسم فعل أمر، و﴿أَنفُسَكُمْ﴾ على النصب مفعوله، وقرىء بالرفع فيكون الكلام حينئذ مبتدأ وخبراً أي لازمة عليكم أنفسكم.

قال تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾.

أعظم آية في بيان السلوك الذي يسلكه العارف وينقطع إليه القاصد ويتحرّاه الميطع الواله، ومن المعلوم أن الضلال والاهتداء إنما هما من صفات الطريق المسلوك وربما يتصف بهما السالك بالعناية، فلا بد للإنسان أن يسلك طريقاً فإما طريق الهداية والسعادة والعاقبة الحسنى التي بيَّنها عزّ وجلّ في حكم كتابه الكريم، أو طريق الضلال والغواية والشقاء وبالآخرة سوء العاقبة التي ذكر تعالى خصوصياتها فقد قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[(٢)].

ولا ريب أن من التزم طريق الاهتداء سواء قلنا بأنه الصراط المستقيم الذي ذكره عزّ وجلّ في الفاتحة وأمرنا بطلب الهداية منه وتوفيقنا بسلوكه فتكون طرق الضلال هي السبل المنحرفة التي تتفرّق بنا

---

(١) البلد، الآية ١٠.
(٢) الدهر، الآية ٤.

عن سبيله، أو قلنا بأن الضلال والاهتداء وصفان لطريق واحد، فمن لازم متن الطريق يوصله إلى المقصد والغاية المطلوبة، وإن خرج عن مستواه كان ضلالاً فلا يصل إلى الغاية المنشودة ولا يدرك الكمال والسعادة المطلوبة، فمن لزمه نجا ومن تقدّم أو تأخر ضلّ وغوى.

الآية الشريفة تبين أموراً في هذا المجال:

الأول: أنه لا بد من طريق يسلكه الإنسان في حياته العملية وهناك طريقان طريق الهداية وطريق الضلال وكلاهما يرجعان إلى الله تعالى، كما ستعرف. وتأمر المؤمنين بلزوم أنفسهم بحملها على الطاعة والانقياد إلى خالقها والاعتناء بشأنها فلا يضيعوها باقتراف المعاصي والآثام.

الثاني: أنه لا بد من غاية في هذا السفر وهي تختلف بحسب اختلاف أفراد الإنسان والجميع يرغب في ثواب الله وإنما يناله المهتدون السالكون طريق الهداية ويحرم عنه الضالون السالكون طريق الضلال فالكل ينتهي إليه سبحانه وتعالى وعنده الغاية المقصودة إلا أن الطرق مختلفة، فبعضها يوصل الإنسان إلى الفلاح والسعادة، وآخر يضرب عليه الخيبة والحرمان ويوقعه في الشقاء الأبدي والعناء الدائم، وتدل على ذلك آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[1]، فإذا كان الجميع سائرين إليه وأن الطرق لا بد أن تنتهي إلى ما عنده ولكن باختلاف الغاية كما عرفت، فلا بد للإنسان أن

(١) الانشقاق، الآية ٦.

يسعى في معرفة الطرق الموصلة إلى الغاية المنشودة وتمييزها عن غيرها من الطرق التي لا تنتهي إلا إلى الهلاك والبوار، وأن على المؤمن أن يشتغل بنفسه ويصلحها ولا يهمه ضلال غيره وما هم عليه من المعاصي والآثام فإنه كفى بنفسه شاغلاً، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ما يرشد إلى ذلك فإن العاقل اللبيب إذا رأى كثرة المعاصي واهتمام الناس بالخيانة وهتك الحرمات يزداد ثباتاً في وجه الباطل ولا يشغله ذلك وإن كثر أفراد عن التمسّك بالحق وإن قلّ طلابه فإن الجميع سيحاسبون وتعطى كل نفس هداها، وقد قال عزّ وجل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

الثالث: تطمين المؤمنين المشغولين بأنفسهم المشتغلين بإصلاحها وتهذيبها بالوصول إلى الغاية المرضية وأنه لا يصيبهم ضرر من غيرهم الضالين الذين عكفوا على الضلال وارتكاب الآثام والصد عن الحق فلا يتأثروا من ضلال هؤلاء ولا يوجب ذلك صرفهم عن أهم أمر في حياة الإنسان العملية وهو إصلاح النفوس.

الرابع: إن الآية الشريفة تدل بالدلالة الالتزامية على نهي المؤمنين من التأثر من ضلال الضالين المعاندين للحق الصادين لأهله فلا يحملهم ذلك على ترك طريق الهداية فينشغلوا بهم وينسوا أنفسهم

---

(١) البقرة، الآية ١٣٤.

وحينئذٍ يصيرون مثلهم ثم يتعذرون بأمور واهية ويتعلّلون بعلل فاسدة، وقد كان لهم في كل زمان أعذاراً، فطوراً كانوا يقولون بما حكى عنهم عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾(١)، وطوراً آخر يقولون إن الذي يبغون صار بالياً وأن المدنية الحاضرة لا تساعد على ذلك، وقد قالوا أموراً أخرى جميعها ترجع إلى النكوص عن الحق والابتعاد عنه بوجه من الوجوه مع أن العهد الذي أخذ منهم إنما هو الدعوة إلى الحق بما أراده الله عزّ وجلّ وما ورد في الشرع المبين، وإنما يتحقق ذلك بالطرق المتعارفة العادية التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجدال الحسن وغير ذلك من الأسباب المتعارفة، وأما تحقق المسببات فلا بد من إيكال أمرها إلى الله تعالى فليس المؤمن مأموراً بأكثر من ذلك ولا يجب عليه إهلاك نفسه في سبيل إنقاذ غيره، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾(٢)، وغير ذلك من الآيات التي تنهي المؤمنين عن إيقاع أنفسهم في الحرج والمشقة والضرر، ومن ذلك يعرف أن هذه الآية الكريمة لا تنافي آيات الدعوة إلى الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكيف تكون منافية مع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله من أهم طرق استكمال النفس ومن شؤون الاشتغال بها؟! أليس ذلك من أحكام هذا الدين ومن أهم أسسه وقواعده وأركانه، وقد قال عزّ وجلّ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ

---

(١) القصص، الآية ٥٧.
(٢) الكهف، الآية ٦.

أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ بالشروط المطلوبة فيهما، من دون إيقاع النفس في المهلكة والضرر فعند ذلك يسقط عنه هذا التكليف.

الخامس: إن الآية الشريفة تدل على أن نفس المؤمن هي الطريق الذي أمر بسلوكه ولزومه والتحفظ عليها أن تكون في طريق الهداية الذي ينتهي به إلى السعادة والفوز بالفلاح، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[(٢)]، وهذه الآيات المباركة تبين كثيراً من الأمور التي تضمنتها الآية التي نحن بصدد تفسيرها وترفع الإجمال الذي فيها ويستفاد منها أن النفس الإنسانية هي الطريق وقد اجتمعت في النفس الإنسانية علل متعددة وإن فيها يتحد الدال والمدلول وأن المقصد من هذا المسير الاستكمالي هو الله تعالى ولا بد من المراقبة التامة والتذكّر المستمر لجميع ما له دخل في هذا المسير، فعلى المؤمن أن يكون دائباً على ذكر به ولا ينساه فإنه المقصد والمرجع، كما عرفت فإن نسيان المقصد والغاية يوجب نسيان الطريق فيفقد الأهلية للتزوّد بالزاد الذي يهنأ في حياه الأخرى، ومن ذلك تعرف سر قوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ

---

(١) يوسف، الآية ١٠٨.
(٢) الحشر، الآية ٢٠.

أَنفُسَهُمْۚ﴾. ولا ريب أن الاشتغال بالنفس لا يوجب نسيان الآخرين ومساعدتهم ومعونتهم في أعمال البر كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾[1]، فإن المؤمن يرى أن سعادة الآخرين من سعادته بل هي من صميم الدين الذي أمر المؤمنين بإقامته وهو يعتبر أن الإحسان إلى الآخرين من الإحسان إلى النفس، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾[2].

السادس: الآية الشريفة تأمر المؤمنين بلزوم أنفسهم إذا اهتدوا، ومن المعلوم أن الاهتداء هو جعل النفس في المسير الاستكمالي الذي يطلبه الله تعالى ويرتضيه الشرع المبين، وأن عملية الاهتداء لا بد أن تكون مستمرة تامة صادرة من المؤمن الذي على ذكر ومراقبة [illegible] كما عرفت وهي تتحقق في الاعتقادات والأعمال القلبية مع [illegible] الجوارحية، وبعبارة أخرى هو تطبق الأعمال الجوانحية والجوارحية على الشرع والسير على ذلك مع المراقبة والذكر، فالنفس هي الطريق والأعمال هي الزاد، والغاية والمقصد هو الله عزّ وجلّ كما تقدم، وهذا الطريق ضروري لا بد من أن يسلكه الإنسان في حياته مطلقاً مع اختلاف الأطوار التي يمر بها ويشترك في ذلك المؤمن والكافر سواء كان على التفات أو على غفلة وعمى.

والآية الشريفة تنبّه المؤمن على ذلك وإن كان أمراً تكوينياً لا بد

---

(١) المائدة، الآية ٢.

(٢) الإسراء، الآية ٧.

منه، ليكون على التفات ومراقبة تامة للنفس لئلا تضل فتخرج عن الهداية وتغفل عن ذكر ربها فتكون من المنسيين فيتزوّد من الزاد الذي ينفعها في يوم الجزاء فلا يكون سعيها خائباً فتكون من الخاسرين.

فهذه الآية الشريفة من هذه الجهة لا تخرج عن تلك الآيات التي تدل على أن غاية الإنسان ومستقر أمره من حيث السعادة والشقاء والفلاح والخيبة إنما تكون حسب الزاد الذي يتزوّد به في هذه الدار وما يقدمه من صالح الأعمال أو طالحها، أو تقوى وفجور كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[2]، وغير ذلك من الآيات الواردة في هذا الأمر فهي وإن كانت تبين الجانب الوضعي للأعمال وهو ترتب الجزاء على ما يقدمه الإنسان من أعمال ومعتقدات إلا أنها لا تغفل الجانب التكويني من الإنسان فهي تبيّن أن الإنسان هو المخلوق السويّ الذي لا يخرج عن وضع سائر المخلوقات من أنها واقعة تحت التربية الإلهية وإن الله تعالى هو القيوم عليها يحيطهم بعنايته ويكلؤهم برعايته وتربيته، فهو الرب العظيم المهيمن عليها لا يفوته

---

(١) الشمس، الآية ١٠.
(٢) طه، الآية ١٢٦.

شيء منها، كما قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، وإن جميعها ترجع إليه، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[2].

إلا أنه اختص الإنسان من بين سائر المخلوقات بأن عاقبته ومستقبل أمره إنما يكون تحت اختياره، فإما أن تكون الحسنى أو الخيبة والخسران وذلك بتزكية النفس أو دسّها بعدما ألهمه الله طريق الخير والصلاح وما يوجب الشر والفساد فهو لا يخرج عن هذه الفطرة التكوينية في مسيره ولا يتخطّى عنها، إلا أنه لا بد من التنبّه التام والمراقبة الكاملة للنفس حتى لا تحيد عن الطريق الذي يوصله إلى المقصد العظيم وهو الفلاح الذي يطلبه بفطرته ويجتهد في مسيرته العملية كما عرفت، فهذه الآية الكريمة على إيجازها البليغ تشتمل على حقائق واقعية ومطالب عالية تكفلت بيانها عدة آيات أخرى متفرقة في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

بيان المقصد بعد بيان السالك والمسلوك، وهي حقيقة من الحقائق الواقعية التي لها دخل في الجانب التكويني من الإنسان كما عرفت سابقاً وفي الجانب الوضعي التشريعي منه فإن الإنسان بعدما علم أنه في حياته سائر في مسيرة لا بد من أن يقطعها من أول تكوينه إلى أن

---

(١) هود، الآية ٥٦.

(٢) الشورى، الآية ٥٣.

ينتهي إلى ربه كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[١]، وهذا الطريق مما لا مناص للإنسان عن سلوكه ويشترك فيه جميع أفراد الإنسان مطلقاً، ولا ريب أن بيان الطريق والسلوك والسالك يكفي في تعيين المقصد والمنتهى إذ أن كل طريق له بداية ونهاية، لكن ذكر المقصد فيه خصوصية خاصة لا يمكن دركها في بيان تلك الأمور فإن السالك إذا تنبّه إلى حقيقة موقفه من الله تعالى وأن له ميزة خاصة لم تكن لسائر المخلوقات حصل له حالة خاصة يشعر فيها أنه منقطع عن ما سواه مما يحيط به ويتوجه إلى بارئها المدبر لها المحيط بها إحاطة علمية قيومية وسائرة تحت ربوبيته العظمى على خلقه وإن هذه الإحاطة التامة التي يشعر بها الفرد المؤمن لكفيلة له بأن ينقطع على ربه ويخلو بنفسه ويخلصها مما يشينها عند ربها ويهذبها ويكملها بما يزينها إذا رجعت إلى الله تعالى فلا يغفل عنها لحظة، ولعل هذا هو السر في إتيان المقصد والتوجه إليه بعد قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾، وعندئذٍ يسطع عليها نورٌ من الله بقدر أن يخرج من نالظلمات ليدفع به ظلمات الناس المضلين، وظلمات المعاصي والآثام كما بين عزّ وجلّ في قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[٢]، وحينئذٍ يدرك تلك الحقيقة الواقعية وتشعر النفس بحقيقتها وتدرك ما عليه وتهجر كل ما يوجب الظلمات وتهاجر أهل الشرك والكفر وتدخل في مقام العبودية

---

(١) النجم، الآية ٤٢.
(٢) الأنعام، الآية ١٢٢.

وتستعد لدرك مقام التوحيد وتبعّد عنها ما ينافي الوحدانية وتنتهي إلى تكميل النفس بالكمالات الواقعية وتزيل عنها النقائص بعد أن أشرق عليها النور الرباني وأدركتها العناية الإلهية، وهذه المقامات هي حقائق قد لا يدركها الحس إلا أن النفس تشعر بها بأسبابها الخاصة وكيف يمكن أن تدركها الحواس وقد ركنت إلى المادة وخلدت إلى الأرض وأحبت الدنيا التي هي دار اللعب واللهو فلا يمكن لها أن تدرك إلا الزخارف المادية التي استوعبت جميع مشاعر الإنسان، وقد قال عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾[1]، لكن الغور في فهم معاني القرآن والغوص في بحر دقائقه ورموزه يكشف لنا أن وراء ذلك عالماً فسيحاً جداً لا يمكن الوصول إليه ولأدرك حقائقه إلا بالرجوع إلى النفس ولزوم مراعاتها ودرك حقائقها ودوام مراقبتها وجعلها في المسلك الذي عيّنه الله تعالى والتنبّه التام للمقصد الذي ترد عليه والوقوف عنده فهناك تظهر الحقائق وتتبين آثارها ويتم التصديق بها ولا يمكن التغاضي عنها والرجوع إلى غيرها وعندئذٍ يتبين حقيقة قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ وسر الرجوع إليه عزّ وجلّ.

قال تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وعد ووعيد للفريقين اللذين مرّ ذكرهما في ابتداء الكلام، فهو عزّ وجلّ المرجع الذي يرجع إليه في استخبار حال الفريقين فينبئهم بحالهما

---

(١) النجم، الآية ٣٠.

من الثواب والعقاب بما كانوا يعملونه في الدنيا من أعمال الهداية والضلال فلا يؤاخذ أحد بعمل غيره عقاباً أو ثواباً.

ومما ذكرنا يظهر أن هذه الآية الكريمة من أعظم الآيات في طريق السير والسلوك وأهمها في بيان أركانه من المسلك والمقصد والغاية والسالك وقلنا تبين الآية اتحاد المسلك والسالك واجتمع العلّة المادية والفاعلية التي هي النفس وإن مضمونها من الحقائق التي لها من العمومية والحيطة التي تشمل جميع الأفراد وتضم جميع الأزمان فلا يختص بزمان دون آخر، فما ذكره جمع كثير من المفسرين في حصر هذه الآية وأن عصرها لم يأت بعد، أو لم يجيء تأويل لها حتى هذا اليوم، أو أن مضمونها من المغيبات التي لا يظهر تأويلها إلا بعد عصر التنزيل. فإن جميع ذلك لا دليل عليه وإنما هو تجريد للآية عن المعنى المقصود وتأويلها بالرأي والله العالم وهو المسدد للصواب.

بحث الإرادة

من المباحث المهمّة في الفلسفة الإلهية والحكمة المتعالية مبحُث الإرادة، التي لها ارتباط وثيق بمواضيع متعدّدة في جملة من العلوم، وقد شغلت قسطاً وافراً من الكتب الفلسفية والكلامية وغيرهما، فإنّ بحث الجبر والاختيار في الإنسان يرتبط بالإرادة، كما يرتبط بالإرادة الإلهية مباحث حدوث العالم وقدمه واختياره تبارك وتعالى وغير ذلك، ونحن نذكر في هذا البحث تعريف الإرادة، وما يتعلّق بإرادة الإنسانن وإرادته جلّت عظمته، وبيان حقيقتها، وأقسامها، وأسباب فعله عزّ وجلّ، والفرق بين المشيئة والإرادة، وارتباطها بعلمه عزّ وجلّ، ثم مبحث اتحاد الطلب مع الإرادة.

تعريف الإرادة:

الإرادة: من الأمور الوجدانية لكلّ ذي إدراك وشعور ـ إنساناً كان أو حيواناً ـ حتى لقد عرّف الحيوان المطلق بأنه جسم نام متحرك بالإرادة، فهي من لوازمه التي لا تنفكّ عنه، بل قد أثبت بعض قدماء الفلاسفة الإرادة في النبات، ولا يبعد ذلك على نحو الجملة والإجمال كما ستعرف.

وكيف كان، فقد فسّروا الإرادة بوجوه: فمنهم مَن فسّرها بالقصد، واستدلّ بالتبادر.

ومنهم مَن فسّرها بالطلب.

وأُشكل عليه بأنّه مبرز للإرادة نفسها.

ومنهم مَن فسّرها بالميل الذي يعقب اعتقاد النفع.

وقال بعض المحدّثين: إنّها تصميم واعٍ على أداء فعل معين، باعتبار أنّ التصميم هي الإرادة النافذة، والإرادة بلا تصميم نيّة مؤجّلة.

وقال بعضهم: إنّ الإرادة هي الرغبة التي ترافق الفعل إلى أن تبلغ به إلى الغاية.

والحقّ أن هذه التعاريف لا تخلو من مناقشة واضحة، فإنّ الإرادة غير الميل، بل هو في مقدّماتها، والتصميم إرادة مؤكّدة. ولكن ممّا يسهل الخطب أنّ الإرادة من الأمور الوجدانية التي تتداخل مقدّمات حصولها بعضها مع بعض، بحيث يصعب التمييز بينها، ولأجل ذلك اختلفوا في تعريف الإرادة، فإنّه قد يختلط بينها وبين المقدّمات التي هي الإدراك وتوجّه النفس والعزم، أي: التصميم، وتصوّر الغاية الذي به يتميّز الإنسان عن الحيوان، فإنّهما ذوا شهوة كشهوة الطعام والشهوة التناسليّة، وهي تدفع الحيوان والإنسان إلى الفعل، ولكن الحيوان لا يفعل ذلك متعقّلاً كالإنسان.

إرادة الإنسان:

لا شكّ أنّ المخلوقات بالنسبة إلى الإرادة على أقسام:

الأول: تلك المخلوقات التي تخلو عن الرغبة والشهوة كالحيوانات الدنية ـ كالديدان والهوام والنباتات ـ فإنّ هذه تفعل وتسعى إلى الفعل لأجل الحاجة، لا الرغبة والشهوة، فإنّ تغلغل جذور النبات وتفرّع فروعها في الهواء واتجاه أوراقها إلى الشمس ونمو أصلها، كلّ ذلك صادر عن حكم الحاجة إلى الغذاء، بل يفعل بمقتضى الطبيعة فيها، نظير صدور الأفعال الحتميّة الصادرة في الحيوانات العليا، كالتنفّس والنبض والتثاؤب والنوم ونحو ذلك، فهذه كلّها تصدر عن الحاجة والطبيعة دون الإرادة.

نعم، قد يشتبه الأمر، ففي بعض الحيوانات والنباتات تصدر الأفعال عن رغبة وشهوة ملحّة، ولعلّ من قال من الفلاسفة: إنّ بعض النباتات فيها الإرادة، كان نظره إلى خصوص هذا الأخير فقط، وإلا ليس كل حيوان فضلاً عن النبات ذا رغبة أو شهوة تتقوّم بها الإرادة.

الثاني: المخلوقات التي لها الإحساس والشهوة ـ كالحيوانات ـ فإنّها تفعل الأفعال بإرشاد الغريزة والشهوة المجرّدة عن الرغبة وإرشاد العقل والتعقّل، فهي أيضاً لا تكون ذات إرادة إلا إذا صحّ إطلاق الإرادة على المقدّمات، فتكون الحيوانات حينئذٍ كلّها ذوات إرادة.

الثالث: المخلوقات التي لها الإحساس والشهوة والرغبة والإدراك كالإنسان، فإنّه يفعل فعله بحثّ من الشهوة والرغبة وإرشاد من

الإدراك، فهو يفعل ويفهم أنّه يطلبه، بخلاف الحيوان فإنّه يسعى حين تلحّ عليه الحاجة ومتى زالت هدأ وسكن، ولا يدرك تلك الحاجة.

وأمّا الإنسان، فهو يفهم ويرغب في السعي ولو كانت الحاجة في حين الفعل منتفية.

ولكن يمكن أن يقال: إنّ من ذهب إلى وجود الإرادة في الحيوان، أراد بها بعض مقدماتها. ومن نفى عنها الإرادة إنّما نفى الإرادة الثابتة في الإنسان، وبذلك يمكن أن يجمع بين الآراء والكلمات.

الرابع: المخلوقات التي لها التعقّل والإدراك الكامل، فإنّها تفعل عن تعقّل كامل من دون شهوة وقتيّة كالملائكة، فإنّ فيهم الإرادة الكاملة لما يريدون أن يفعلوه في عالمهم.

ومن ذلك كلّه يعلم أنّ الإنسان هو الفرد الكامل الذي اجتمعت فيه مقدّمات الإرادة، فهو الحيوان الحسّاس المتحرّك بالإرادة، ولكنّه قد يغفل عن الإرادة، فلا يلتفت إليها حين توجّه نفسه إلى المراد، بل يكون تمام توجّهها إلى نفس المراد فقط.

وإرادة الإنسان مسخّرة تحت إرادة الله تعالى القهّارة، ولا استقلال لها بوجه من الوجوه، ففي بعض القدسيات: «يا ابن آدم تريد وأريد، وأتعبك في ما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد»، وعن سيد العارفين عليه السلام: «عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم»، وهذا غير مورد الجبر الباطل؛ لأنّ مورده نفي الإرادة، والمقام من تخلّف المراد عن الإرادة.

حقيقة الإرادة:

عرفنا أنّ الإرادة من الأمور الوجدانيّة التي يعرفها كلّ فاعل مختار، ومن له إدراك وشعور، ولها مقدّمات، وتسمّى مقدّمات الفعل أيضاً، وهي: الإدراك، وتوجّه النفس، والعزم، وتصوّر الغاية، والقدر والقضاء، والإرادة هي الجزء الأخير من تلك المقدّمات.

وفي الفلسفة الحديثة: إنّ الإرادة خاصيّة مستقلّة عن المؤثّرات والظروف الخارجيّة، ولكن للفطنة والحكمة سلطة عليها، التي تصدر الحكم الذي تبلّغه الإرادة إلى القوى الفاعلة، فتكون الإرادة هي الأمر بالعمل أو النهي عنه.

وهذه هي المسألة المعروفة التي ذكروها في علم الأصول، وهي اتحاد الطلب والإرادة، وسيأتي موجز الكلام فيها.

فالإرادة: جهد نفسي وعملية ذهنيّة يقوم عليها الصمود ورباطة الجأش، بل قال بعض الفلاسفة: إنّه لا إرادة حيث لا استطاعة. وقد ذهب بعض المادّيين إلى أنّ الإرادة ثمرة المعرفة والتجربة والتربية.

وبعبارة أخرى: أنّ الإرادة الإنسانيّة ليست غير ما تمليه قوانين الطبيعة والمجتمع، وهذه طريقتهم في تفسيرهم لكلّ الأمور في هذا العالم.

وما أبعد مقالة هؤلاء عمّا يقوله بعض الفلاسفة الرواقيين من أنّها أساس المعرفة والسلوك، ولكن لا يمكن إنكار تأثر الإرادة الإنسانيّة بما يحيط بها من البيئة والمجتمع.

والإرادة هي الدافع الرئيسي والعامل النفساني الأوّل في الفعل الإنساني وما يصاحبه من الانفعالات. وفي الإسلام تعتبر الإرادة من أهمّ مقومات الجزاء، وهي محور الأخلاق والسلوك، وسيأتي في بحث إرادة الله تعالى أنّ نظام الكون يتقوّم بإرادته عزّ وجلّن وحينئذٍ يحقّ لنا أن نقول إنّ أساس الكون هي الإرادة، سواء إرادته عزّ وجلّن أم إرادة المخلوق في تنظيم النظام وصدور الأفعال.

ولا بد لكل إرادة من متعلّق وهو المراد، وبها يفترق العمل الإرادي عن اللاإرادي، وتختلف الإرادة حسب اختلاف المتعلّقات، فلا يمكن حصر أقسامها. ولكن ذهب بعض الفلاسفة إلى تقسيم الإرادة إلى أربعة أقسام، التي هي أصول كلّ إرادة، وهي:

إرادة الحياة، وهي الجهد الذي يبذله كلّ فرد للحفاظ على صورة الحياة، وبها يحقق كلّ كائن نموذج نوعه، وهي غريزة من الغرائز التي لا ترتبط بالشعور والرأي.

إرادة القوة: وهي الصراع لأجل الوجود، الذي يكون الدافع الحقيقي للتطوّر.

إرادة الخير: وهي استعداد الفرد لبذل أفضل ما يطيقه من جهد لفعل الخير، وهذه الإرادة هي التي يقاس بها الإنسان الخيّر عن غيره.

إرادة الاعتقاد: وهي التي تميّز الاعتقاد الصحيح عن الفاسد، والتسليم بمعتقدات واختيارها لما يترتّب عليها من منافع عمليّة.

هذه هي أقسام الإرادة كما ارتآه بعض الفلاسفة.

ولكن المناقشة في هذا التقسيم واضحة، فإنّ بعضاً منه ـ كالقسم الأوّل ـ يرجع إلى الغريزة والفطرة، والإرادة بمعزل عنها. والبعض الآخر هو من مجرّد الأمثلة، فلو كان المناط على ذلك لوجب ذكر كلّ ما يتعلّق به الإرادة. وممّا يهون الخطب أنّه مجرّد اصطلاح منهم، ولا ضير في ذلك.

نعم، الأمر الذي لا يسع لأحد إنكاره هو أن الإرادة قد تضعف وقد تشتدّ حتّى تصل إلى حدّ التصميم والعزيمة، وقد ورد في القرآن الكريم بعض الموارد التي عبّر عنها بأنّها من عزائم الأمور، وهي التي لا بد فيها من إرادة قويّة وحزم وجزمن قال تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٥٩)، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٨٦).

إرادة الله تعالى:

لا ريب ولا إشكال في ثبوت الإرادة له عزّ وجلّ، وقد دلّت الأدلّة الأربعة عليه، فمن القرآن الكريم آيات كثيرة، منها الآيات التي تقدّم تفسيرها، ومنها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (سورة البقرة، الآية ١٨٥)، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (سورة الحج، الآية ١٤)، ومنها قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة النحل، الآية ٤٠)، وغير ذلك ممّا هو كثير.

وأمّا السنّة فسيأتي نقل بعضها.

وأمّا الإجماع، فقد أطبق أرباب الملل والنحل بل جميع العقلاء على ثبوتها له عزّ وجلّ.

ومن العقل حكمه البتّي بأن الله تعالى عالم حكيم في أفعاله، وهما يقتضيان الفاعليّة بالإرادة والاختيار، فليس جلّ شأنه من قبيل الفاعل الموجب، وكلّ من كان كذلك لا بد وأن تكون له إرادة؛ ولذا نرى وجود بعض الممكنات، وحدوثها في وقت دون آخر، بل نرى آثار إرادته في جميع الممكنات، وهذا الدليل يتمّ أيضاً حتّى بناء على القول بأن إرادته تعالى إنّما هي الإيجاد والإحداث، لأنّ العلم والحكمة من مقتضيات الفاعليّة على وجه الاختيار، وهي الإرادة.

فما ذكره بعض العلماء من أنّ إثبات الإرادة لله عزّ وجلّ من جهة النقل دون العقل.

مردود، كما عرفت.

وأمّا السنّة، فقد وردت أخبار كثيرة في شرح كلتا الإرادتين ـ إرادة الخالق تعالى وإرادة المخلوق ـ ونحن نورد جملة منها، ونذكر ما يستفاد منها.

ففي الكافي: عن صفوان قال: «قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق؟ قال عليه السلام: الإرادة من الخلق الضمير، وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، وأمّا من الله تعالى فإرادته إحداثه لا غير ذلك؛ لأنّه لا يروي، ولا يهم، ولا يتفكّر، وهذه

الصفات منفية عنه، وهي صفات الخلق، فإرادة الله الفعل لا غير ذلك، يقول له: كن فيكون، بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همّة، ولا تفكّر، ولا كيف لذلك، كما أنّه لا كيف له».

أقول: ليس عليه السلام في مقام بيان حقيقة الإرادة من حيث هي على نحو الحدّ المنطقي حتّى تكون إرادة الخالق مباينة مع إرادة الخلق من كلّ جهة، وإنّما هو عليه السلام في مقام التمييز بينهما في الجملة؛ لأنّ الإرادة من الخلق كما نراها متقوّمة بالتفكّر والروية في المبدأ وفي الغاية. فالضمير في الخلق عبارة عن مقدّمات الإرادة التي تحصل في القلب، وقوله عليه السلام: «وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل»، يمكن أن يستظهر منه أن الإرادة في الخلق هي فعلهم أيضاً، فالفرق بين الإرادتين إنّما هو في المقدّمات لا في نفس الإرادة من حيث هي، وقوله عليه السلام: «فإرادته إحداثه»، أي: أنّ إرادته تعالى إنّما هي نفس الفعل، وهي ما قلناه في إرادة المخلوق، ولكن التفرقة في المقدّمات. ويظهر ذلك بوضوح من نفي هذه المقدّمات عنه عزّ وجلّ، ولكن ذلك لا يستلزم نفي الحكمة والعلم بالنسبة إلى المراد.

ومنها: صحيحة سليمان بن جعفر الجعفري، قال: «قال الرضا عليه السلام: المشيئة والإرادة من صفات الأفعال، فمَن زعم أنّ الله لم يزل مريداً شائياً، فليس بموحّد».

أقول: هذا الحديث يدلّ على أنّ الإرادة والمشيئة هي الفعل، وإنّما يفرّق بينهما بالجزئيّة والكلّيّة، فالإرادة تتعلّق بالجزئيات والمشيئة تتعلّق بالكلّيات.

وأمّا قوله ﷷ: «فمَن زعم أنّ الله لم يزل مريداً شائياً فليس بموحّد»، فلأنّه لو كانت المشيئة والإرادة في مرتبة الذات وهما يقتضيان المراد ـ لاستحالة تخلّف الإرادة عن المراد ـ فحينئذٍ لا بد من القول بالقدم الذاتي للأشياء، فينتفي التوحيد مع أنّهما متجدّدان بالنسبة إلى الخلق في كلّ عصر وزمان، فيلزم التجدّد في الذات والتغيّر والحدوث فيها، وكلّها باطل بالضرورة.

ومنها: صحيحة ابن أذينة عن الصادق ﷷ قال: «خلق الله المشيئة بنفسها، ثم خلق الأشياء بالمشيئة».

أقول: ذكرنا أنّ المشيئة والإرادة حقيقة واحدة، وإنّما تختلفان بالكليّة والجزئيّة، والحديث يبيّن أنّ المشيئة حادثة، وليس المراد من خلقها بنفسها كونها موجوداً جوهرياً خارجياً، بل المراد بذلك تقديرها في نظام العالم يدبّر بها المخلوقات.

ومنها: رواية أبي سعيد القمّاط عنه ﷷ أيضاً: «خلق الله المشيئة قبل الأشياء ثمّ خلق الأشياء بالمشيئة».

أقول: المراد بالقبليّة هي الرتبة الواقعيّة لا الزمانيّة، وهكذا في «ثمّ».

ومنها: رواية بكير بن أعين قال: «قلت لأبي عبد الله ﷷ: علم الله ومشيئته مختلفان أو متفقان؟ فقال ﷷ: العلم ليس هو المشيئة، ألا ترى إنّك تقول: سأفعل كذا إن شاء الله، ولا تقول:

سأفعل كذا إن علم الله، فقولك: إن شاء الله دليل على أنه لم يشأ، فإذا شاء كان الذي شاء كما شاء، وعلم الله السابق المشيئة».

أقول: الحديث يدلّ على أنّ المشيئة منبعثة عن العلم الربوبيّ، فلا يعقل كونهما في مرتبة واحدة، كما هو الأمر في علمنا ومشيئتنا.

ومنها: صحيحة محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام قال: «المشيئة محدثة».

أقول: لأنّ كلّ ما كان منبعثاً عن مرتبة الذات محدث لا محالة، والمارد به هو الحدوث الذاتي منه، لا الزماني، وإن تحقّق الثاني في سلسلة المتدرّجات.

ومنها: صحيحة عاصم بن حميد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «قلت: لم يزل الله مريداً؟ قال عليه السلام: إنّ المريد لا يكون إلا المراد معه، لم يزل الله عالماً قادراً ثم أراد».

أقول: الحديث يفسّر حقيقة إرادته تبارك وتعالى بمقدّماتها، وبيّن أيضاً أنّ من مقدّمات الإرادة العلم والقدرة، فتكون الإرادة منبعثة عنهما، فتكون حادثة ولم يبيّن عليه السلام أنّها الفعل، لأنّه عليه السلام ليس في مقام بيان ذلك.

ومنها: حديث الأهليلجة المعروف عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال في جواب الطبيب: «إنّ الإرادة من العباد الضمير وما يبدو بعد ذلك من الفعل، وأمّا من الله عزّ وجلّ، فالإرادة للفعل إحداثه إنّما يقول: كن فيكون، بلا تعب وكيف».

أقول: مرّ بيان هذا الحديث الشريف في حديث صفوان عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام.

ومنها: رواية الهاشمي المشتملة على مباحثة الإمام الرضا عليه السلام مع أهل الملل والنحل، قال عليه السلام: «مشيئته واسمه وصفته، وما أشبه ذلك، كلّ ذلك محدث مخلوق مدبّر ـ إلى أن قال عليه السلام ـ: واعلم أنّ الإبداع والمشيئة والإرادة معناها واحد وأسماؤها ثلاثة».

أقول: الحديث يدلّ على ما ذكرناه آنفاً من أنّه لا فرق بين المشيئة والإرادة، وإنّما جعل عليه السلام الإبداع هي الإرادة والمشيئة؛ لأنّها عبارة عن الفعل والإحداث، فتكون محدثة. ولكن الفلاسفة فرّقوا بين الإبداع والخلق، فجعلوا مورد الإبداع خلق الروحانيين، والخلق أعمّ من ذلك، وهذا لا يرتبط بالمقام.

ومنها: رواية عبد الرحيم القصير عن الصادق عليه السلام قال: «كان (عزّ وجلّ) ولا متكلّم، ولا مريد، ولا متحرّك، ولا فاعل جلّ وعزّ ربنا، فجميع هذه الصفات محدثة عند حدوث الفعل منه».

أقول: الحديث يدلّ على أنّ الإرادة هي الفعل، وهي حادثة، وأنّ كلّ ذلك ليس في مرتبة الذات.

ومنها: صحيحة يونس عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «قلت: فما معنى شاء؟ قال عليه السلام: ابتدأ الفعل، قلت: فما معنى أراد؟ قال عليه السلام: الثبوت عليه».

أقول: الحديث يدلّ على أنّ الفرق بين المشيئة والإرادة هو الفرق

بين التقدير والإيجاد، ويمكن إرجاعه إلى ما قلناه من أنّ الفرق بينهما بالكليّة والجزئيّة، لأنّ الكلي مقدّم على الجزئي بالإضافة، ويفسّره الحديث الآتي.

ومنها: صحيحة ابن إسحاق عن أبي الحسن عليه السلام قال: «أتدري ما المشيئة؟ فقال: لا، فقال: همّه بالشيء، أو تدري ما أراد؟ قال: إتمامه على المشيئة».

أقول: الحديث ليس في مقام الفرق بين مشيئة الله عزّ وجلّ وإرادته تعالى، بل إنّما هو في مقام بيان طبيعة المشيئة والإرادة بالنسبة إلى الخلق، وإلا فليس له تعالى «همّ» ولا رويّة، كما تقدّم في الحديث، ويمكن أن يستفاد من لفظ «الهمّ» الكليّة، فيكون في مقام بيان الفرق بين مشيئته تعالى وإرادته عزّ وجلّ.

هذه جملة من الأخبار الواردة في هذا الموضوع المهمّ، والذي اتّفقت عليه جميع هذه الأحاديث أنّها لم تشر إلى أنّ الإرادة من الصفات الذاتيّة أو أنّها عينها، كما هو الأمر في سائر الصفات العليا، فإنّهم عليهم السلام بيّنوا ذلك فيها. فلا ريب ولا إشكال في ثبوت الإرادة له جلّ شأنه عقلاً ونقلاً، بل يعدّ ذلك من الضروريات، كما عرفت.

معنى الإرادة فيه عزّ وجلّ:

ذكرنا في أحد مباحثنا المتقدّمة أنّ العقول تحيّرت في ذاته جلّت عظمته، وفي صفاته تعالى مطلقاً، سواء كانت صفات الذات أم صفات

الفعل؛ لأنّ التحيّر في الذات تحيّر في ما هو عين ذاته تبارك وتعالى أيضاً.

وأمّا صفات الفعل، فلأنّها منبعثة عمّا لا يدرك ذاته وصفاته، فلا بد من التحيّر فيها أيضاً.

والإرادة من الصفات التي هي من أتمّ مظاهر الجلال والجمال وتجليات الذات قولاً وفعلاً، ولا ريب أنّ الإرادة بالمعنى الذي ذكرناه في إرادة الإنسان لا يمكن اتّصافه عزّ وجلّ بها؛ للزوم كونه محلاً للحوادث، وهو منزّه عنها، إلا إذا قلنا بأنّ الإرادة في الإنسان أيضاً هي فعله ـ كما هو الحقّ ـ فيتّحد معنى الإرادتين حينئذٍ.

ولكن قد اختلفت تعبيرات العلماء في إرادة الله تعالى، وعمدة الأقوال فيها ثلاثة:

الأوّل: أنّها ابتهاج الذات بالذات، وقد اختاره جميع من محقّقي العلماء، وقال بعض الفلاسفة:

فحيث ذاته أجلّ مدرك　　أتم إدراك لأبهى مدرك
مبتهج بذاته بنهجه　　أقوى ومَن له بشيء بهجة
مبتهج بما يصير مصدره　　من حيث إنّه يكون أثره

وعن شيخنا المتألّه المحقّق الشيخ محمد حسين الغروي الأصفهاني، قال(قدس سره) في بيان هذا القول: «ومن البيّن أنّ مفهوم الإرادة ـ كما هو مختار الأكابر من المحقّقين ـ هو الابتهاج والرضا وما يقاربهما مفهوماً، ويعبّر عنه بالشوق الأكيد فينا، والسرّ في التعبير عنها

بالشوق فينا، وبصرف الابتهاج والرضا فيه تعالى إنّما لمكان أننا ناقصون غير تامّين في الفاعليّة، وفاعليّتنا لكلّ شيء بالقوّة، فلذا نحتاج في الخروج من القوّة إلى الفعل إلى أمور زائدة على ذواتنا، من تصوّر الفعل والتصديق بفائدته والشوق الأكيد، المملية جميعاً للقوّة الفاعلة المحرّكة للعضلات، بخلاف الواجب تعالى، فإنّه لتقدّسه عن شوائب الإمكان وجهات القوّة والنقصان، فاعل وجاعل بنفس ذاته العليمة المريدة، وحيث إنّه صرف الوجود، وصرف الوجود صرف الخير، فهو مبتهج بذاته أتمّ ابتهاج وذاته مرضية لذاته أتمّ الرضا، وينبعث من هذا الابتهاج الذاتي ـ وهي الإرادة الذاتية ـ ابتهاج في مرحلة الفعل، وهي التي وردت الأخبار عن الأئمة الطاهرين (سلام الله تعالى عليهم) بحدوثها»، وبناءً على هذا القول تكون الإرادة صفة تقابل سائر الصفات العليا، فلا ترجع إلى العلم حينئذٍ، فتكون في مرحلة الذات عين ذاته عزّ وجلّ، وفي مرتبة الفعل لصدور الإيجاد، فتكون حادثة.

وأشكل عليه: بأنّ الإرادة غير الشوق والابتهاج عندنا، لما نراه في تناول الأدوية والأفعال العادية والجزافيّة والعبثيّة، وأمّا الابتهاج في حقّه تعالى، فهو بريء عنه؛ لأنّه منزّه عن الجسم والجسمانيّات، إلا أن يراد فيه عزّ وجلّ معنى آخر غير ما نجده في أنفسنا.

وفيه: أنّ الابتهاج حاصل في كلّ فاعل لا محالة، ولكن ابتهاجه عزّ وجلّ مباين مع ابتهاج الخلق، كما في سائر صفاته تعالى، كالسميع والبصير ونحوهما، ولا يضرّ ذلك بأصل ثبوت هذه الصفة.

الثاني: أنّ إرادته عزّ وجلّ علمه بالنظام الأحسن والأصلح.

وقد ذهب إليه جمع آخر من الحكماء، وعلى هذا القول ترجع الإرادة إلى العلم، فتكون عين ذاته.

وقال بعض مشائخنا في توجيه هذا القول بما يرجع إلى القول الأوّل: «والوجه في تعبير الحكماء عن الإرادة الذاتيّة بالعلم بنظام الخير وبالصلاح، أنّهم بصدد ما به يكون الفعل اختيارياً، وهو ليس العلم بلا رضا، وإلا كانت الرطوبة بمجرّد تصوّر الحموضة اختياريّة، وكذلك ليس الرضا بلا علم، وإلا كانت جميع الآثار والمعاليل الموافقة لطبائع مؤثّراتها وعللها اختيارية، بل الاختياري هو الفعل عن شعور ورضا، فمجرّد الملائمة والرضا المستفادين من نظام الخير والصلاح التامّ، لا يوجبان الاختياريّة، بل يجب إضافة العلم إليهما، فما يكون به الفعل اختيارياً منه تعالى هو العلم بنظام الخير، لا أنّ الإرادة فيه تعالى بمعنى العلم بنظام الخير».

أقول: وهو توجيه حسن.

الثالث: أن الإرادة هي الإيجاد عن علم وحكمة، وبه يمكن الجمع بين الأقوال؛ لأنّ كلّ مَن تأمّل في تعبيرات العلماء على اختلافها، يرى أنّها ترجع إلى شيء واحد، لعدم إمكان قطع النظر عن العلم والحكمة المتعالية في إرادة الله عزّ وجلّ، فمَن نظر إلى أساس المقدّمات أدخل العلم في حدّها، ومَن نظر إلى النتيجة مجرّدة عن المقدّمات حدّها بغير ذلك، فيصحّ أن يقال: إنّ الإرادة هي الإيجاد عن

علم وحكمة متعالية، فالمراد من حيث الإضافة إلى الجاعل يسمّى إيجاداً وإرادة، ومن حيث لحاظه في نفسه يسمّى فعلاً.

وهذا المعنى لا يختصّ به عزّ وجلّ، بل يجري في إرادة الإنسان أيضاً، وممّا يؤكّد ذلك أنّ الأئمة عليهم السلام جعلوا الإرادة من صفات الفعل.

ومن ذلك يظهر أنّ جعل الإرادة العلم بالنظام الأحسن ليس المراد به أنّ العلم بنفسه هو المؤثّر التامّ لصدور الأشياء ووجودها، حتّى يلزم المحاذير التي ذكروها في الكتب الفلسفيّة والكلاميّة، وإن كان القول بذلك صحيحاً في الجملة، بمعنى المنشأيّة والمصدريّة، كما ذكرنا.

وقد ظهر ممّا تقدّم بطلان ما قيل: من أنّ الإرادة لا ترجع إلى العلم؛ لأنّه يستلزم إمّا إلى إرادة الشرّ والظلم والكفر والقبائح؛ لأنّه تعالى يعلمها، أو يلزم أن يكون منشأ التأثير في الممكن الأصلح اعتبارياً محضاً، ولا يرجع إلى نفس العلم لتعلّقه بالمعلومات على حدّ سواء، أو يرجع إلى نفس الأصلح، وهو يرجع إلى كون شيء واحد مؤثّراً ومتأثّراً.

والكلّ باطل؛ لأنّ علمه تعالى إن كان علّة تامّة لحصول المعلوم مطلقاً يلزم ما ذكر، ولكنّه ليس كذلك، بل علمه الأزلي بالأشياء من مجرّد المقتضي، فالعليّة التامّة تتوقّف على أمور كثيرة أخرى، فمَن يقول إن الإرادة هي العلم بالممكن الأصلح، لا يريد أنّ العلم لوحده هو السبب لوجوده، بل العلم مع اختياره عزّ وجلّن ويدلّ على ذلك ما

رواه الكليني عن أبي عبد الله عليه السلام: «علم الله سابق للمشيئة»، حيث يستفاد أنّ العلم بوحده لم يكن المؤثّر من دون المشيئة والإرادة.

والحاصل: أنّ الإرادة هي الإيجاد عن علم وحكمة، وهي فعله، فتكون من صفات الأفعال، ولا بد من انبعاث صفات الأفعال عن العلم والحكمة.

ويمكن رفع الاختلاف من أصله لما تسالموا عليه من أنّ العلل التوليديّة يصحّ انتساب الأثر فيها إلى نفس المعلول وإلى العلّة، كما في قولك: أحرقته النّار فمات، أو مات بالنّار، كما لا فرق بين قولهم عليهم السلام: «الطهور نور»، أو: «الوضوء نور» وأمثال ذلك كثير، وفي المقام أنّ الإرادة هي العلّة التي يترتّب عليها المراد، بلا فرق بين إرادة الخالق وإرادة المخلوق، فالإرادة بما هي من شؤون المريد باعثة لصدوق المراد والفعل.

فمَن نظر إلى المراد جعل الإرادة الفعل، ومَن نظر إلى أنّها لا تحصل إلا بالعلم والحكمة جعلها منهما، ومن نظر إلى توسط الإرادة بين العلم والمراد، جعلها ابتهاجاً وشوقاً، فيرجع الجميع إلى شيء واحد في هذا الموضوع الذي له شؤون مختلفة.

ولعلّ مَن قال من الفلاسفة الأقدمين: إنّ الإرادة في الإنسان هي الفعل. فإن كان نظره إلى ذلك، وهذا هو المرتكز في النفوس، فإنّ الإنسان لا يرى حين إرادته شيئاً إلا المراد فقط، غافلاً عن نفس الإرادة ومقدّماتها، وإن كانت هي منطوية في النفس انطواء الجزء في الكلّ.

أقسام الإرادة:

قسّم الحكماء والفلاسفة الإرادة إلى إرادة تكوينيّة وإرادة تشريعيّة، وعرّفوا الأولى بأنّها ما تعلّقت بفعل نفس المريد، والثانية ما تعلّقت بفعل الغير مع سبق إرادته، وهما تتصوّران بالنسبة إلى إرادة الله تعالى وإرادة الإنسان معاً.

أمّا بالنسبة إلى إرادته عزّ وجلّ، فقد تقدّم، وقد وردت في القرآن الكريم كلتاهما.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات، الآية ١٣). فإنّها إرادة تكوينيّة. وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (سورة الأنفال، الآية ١) وهي إرادة تشريعية.

وأمّا في المخلوق، فمثل قولك: «ذهبت إلى المسجد»، فإنّها إرادة تكوينيّة، وقولك لولدك: «اذهب إلى المسجد»، وهي إرادة تشريعيّة، وفي القرآن الكريم القسمان من الإرادة التكوينيّة والتشريعيّة معاً، والسنّة الشريفة حوت الإرادة التشريعيّة وبيّنت خصوصياتها.

وهذا التقسيم إنّما هو من باب الوصف بحال المتعلّق، وغلا فلا فرق بين ذات الإرادة في الموردين.

ثم إنّ التشريعيّة إن كانت بالنسبة إلى الفعل ولم يستظهر من القرائن الداخليّة أو الخارجيّة الترخيص في الترك، يعبّر عنها بالوجوب، وإلا فهي الندب والاستحباب، وإن كانت بالنسبة إلى الترك ولم يستظهر

من القرائن الترخيص في الفعل، يعبّر عنها بالحرام، وإلا فهي الكراهة، وبذلك تنتظم الأحكام التكليفيّة، وقد أثبتوا أنّ الأصل في الأشياء الإباحة إلا مع الدليل على الخلاف.

وإرادة الله التشريعيّة ليست إلا لتكميل الإنسان، فلو قلنا: بأنّ الإرادة التشريعيّة منه عزّ وجلّ غاية الإرادة التكوينيّة بل أصلها وأساسها، لم يكن به بأس، وعليه الشواهد الكثيرة، ويصحّ العكس أيضاً لشدّة ارتباطهما، فقد ورد في العقل المجرّد سيد الأنبياء أحمد ﷺ: «خلقت الأشياء لأجلك، وخلقتك لأجلي»، وقال الله تعالى بالنسبة إلى موسى بن عمران: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِى﴾ (سورة طه، الآية ٤١).

ولذا جعل بعض مشائخنا(قدس سرهم) الإرادة التشريعيّة من التكوينيّة؛ لأنّ التشريع من مراتب النظام الأحسن، وهو متين جداً.

وقيل: إنّه لا وجه للإرادة التشريعيّة؛ لأنّ إرادته تعالى إن تعلّقت بفعل الغير يتحقّق لا محالة، فيتحقّق الجبر، وحينئذٍ يكون فعله تعالى لا فعل الغير، فالإرادة التشريعيّة باطلة.

وفساده واضح؛ لأنّ الإرادة التشريعيّة تتعلّق بما يصدر من العبد مع إرادته واختياره، فالإرادة تتعلّق بفعله مع تخلل القصد والاختيار، وأنّه فاعل مختار، ولعلّ تقسيم الإرادة إلى هذين القسمين لبيان الفرق بين متعلّقي الإرادتين[١].

---

(١) مواهب الرحمن، ج٨، ص٨٥ ـ ١٠٠.

صفات الله التنزيهية

أنّ صفات الله جلّ شأنه تنقسم إلى أقسام عديدة حسب اختلاف الوجوه والاعتبارات:

فتارة: تنقسم إلى صفات الذات وصفات الفعل.

وأخرى: إلى الصفات العامّة كالخالقيّة، والخاصّة كالفيوضات الخاصّة على أنواعها وأقسامها.

وثالثة: تنقسم إلى الصفات الثبوتيّة والصفات السلبيّة، وفي هذا البحث يقع الكلام في القسم الأخير، أي الصفات الثبوتيّة والصفات السلبيّة، والمراد بالأولى تلك الصفات التي تكون كمالاً للمتّصف بها، ولا يستلزم من نسبتها إليه عزّ وجلّ نقصن فيجب حينئذٍ الاتصّاف بها، وهي كثيرة، كالعلم والحياة والقدر ونحو ذلك، وتسمّى بالصفات الجماليّة أو الكماليّة.

والمراد بالثانية هي تلك الأمور التي يمتنع ثبوتها لذاته المقدّسة، وتسمّى بالصفات الجلاليّة، أي: يجلّ وينزّه تعالى عنها، وهي النواقص ولواحق الإمكان وكلّ صفة إذا استلزمت النسبة إليه عزّ وجلّ نقصاً، وهي كثيرة وقد ورد جملة منها في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، مثل

أنّه تعالى ليس بجسم، ولا بمكاني ولا زماني، ولا كيف له، وأنّه ليس بمتحرّك، ولا سكون له، ولا يرى، أي: لا تدركه الأبصار وغير ذلك، كما سيأتي في الموضع المناسب شرح ذلك كلّه. إلا أنّ البحث في المقام يقع في نفي الظلم عنه عزّ وجلّ، كما دلّت عليه الآية التي تقدّم تفسيرها.

وقبل أن نتعرّض لذلك لا بد أن نشير إلى الصفات التنزيهيّة التي تجلّ ذاته الأقدس عن الاتصاف بها؛ للزوم النقص، هي غير البحث الذي أشار إليه الأئمة المعصومون عليهم السلام، وهو أنّ الصفات الكماليّة التي يتّصف بها عزّ وجلّ لا يمكن دركها بحقيقتها وكنهها، ولا يمكن أن يصل غليها عقول البشر، فالله تعالى عالم، أي: ليس بجاهل، لأنّ حقيقة علمه عزّ وجلّ لا يمكن دركها ولا تصل إليها فهم الإنسان، فإنّ ذلك في الصفات الكماليّة التي يجب أن يتصف بها الذات المقدّسة، وإلا استلزم النقص بالنسبة إليها، لا الصفات السلبيّة التي يجلّ أن يتصف بها.

ثم إنّه جلّت عظمته منزّه عن الظلم، كما دلّت عليه الأدلّة الكثيرة، فمن الكتاب آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ (سورة يونس، الآية ٤٤)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ (سورة الكهف، الآية ٤٩).

ومنها: الآية التي تقدّم تفسيرها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾، والمستفاد من هذه الآية الشريفة أمور:

الأوّل: أنّ عدم وقوع الظلم منه لا عن نقص في القدرة الأزليّة، بل لأجل أن حكمته اقتضت أن لا يظلم أحداً، وهذا هو معنى العبارة المعروفة: «إنّ الله لا يظلم لحكمة، لا لقدرة» كما تقدّم، فإنّ قدرته تامّة كاملة قد تعلّقت بجميع الأشياء حتّى الممتنعات، ولكن الحكمة الإلهيّة اقتضت أن لا يفعل ذلك، وهو لا يفعل شيئاً خلاف الحكمة، فإنّ الذي يقدر على مضاعفة الحسنات لقادر على سلبها عن صاحبها، ولكنّه لا يظلم أحداً.

الثاني: أنّ وقوع الظلم منه يستلزم الجهل، وهو منزّه عنه تعالى، فيرجع نفي الظلم عنه إلى علمه الأتم بحقائق الأشياء، والظالم يجهلها فيظلم.

الثالث: استغناؤه عن الظلم، فلا غرض له يتعلّق به، وهو منزّه عنه؛ لأنّ الله تعالى يضاعف الحسنات ويعطي الأجر العظيم لمَن استحقّه، فهو أجلّ من أن يسلبه عنه.

ثم إنّ نفي الظالم عنه تعالى لا يثبت العدل له جلّت عظمته، بخلاف العكس كما هو واضح[١].

(١) م.ن، ص٢١٧ ـ ٢١٨، ج٨.

جزاء الأعمال

لا شكّ أنّ الجزاء المترتّب على الأعمال ـ قبيحةً كانت أو صالحة أو الملكات النفسانيّة التي لها أثر في الخارج، أو ما لا تكون كذلك إلا أنّها قابلة للزوال ولم يعالجها آنها، فرسخت في النفس بالاختيار ـ لا بد وأن يكون مطابقاً لها ويناسبها، ويدلّ على ذلك كثير من الآيات المباركة والسنّة الشريفة، بل قد يكون الاختلاف حسب العامل بما عنده من الدرجات، أو حسب الأزمنة المعيّنة أو حسب الصفات النفسيّة، فلا فرق في ذلك بين العذاب الدنيويّ والأخرويّ، وأما مسألة الخلود في النّار، فقد أجبنا عنه في أحد مباحثنا السابقة، ويأتي التعرّض لها في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

والطمس الذي هو نوع من أنواع العذاب الذي يستحقّه المتمرّد أخف من المسخ في الجملة، فإنّ المسخ قلب الشيء أو تبديله إلى أسوء منه، وهو تارة: في العين، أي: مسخ الخلق، كما يمسخ الله الإنسان المتمرّد المنهمك في المعصية إلى القرد.

وأخرى: مسخ الخُلُق، وهو يحصل في كلّ زمان ومكان، وذلك أن يصير الإنسان ـ نستجير بالله ـ متخلّقاً بخُلُق ذميمة فاسدة من أخلاق

بعض الحيوانات، نحو أن يصير في شدّة الحرص كالكلب، وفي الشره كالخنزير أو غيرهما من الحيوانات التي لها خُلُق ذممية وصفات سيئة.

بخلاف الطمس الذي هو تغيير في الصورة والوجه، بمحو محاسنها وزوال تخطيطها من العين والأنف والحاجب، وجعل الوجه على هيئة الأدبار، وفي المقام لما كانت جماعة من اليهود قد أعرضوا عن الحقّ ومتابعته بعد إقامة الحجّة عليهم، فقد طمس الله تعالى على وجوههم وغيّرهم عن تلك الخلقة الأصلية، جزاء لأعمالهم الفاسدة ولإعراضهم عن الواقع الذي علمت به ضمائرهم ونفوسهم.

ثم إنّ الطمس أو المسخ لو وقع على قوم ـ أو على فرد ـ لا يمكن رفعهما؛ وذلك لا لأجل القصور في القدرة، فإنّه تعالى قادر على كلّ شيء وإذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، بل لأنّهما من مظاهر غضبه والطرد من رحمته وساحته، ومَن حلّ به غضبه فقد هوى، فالموضوع غير قابل، ولا يكون لائقاً للعود إلى رحمته[١].

---

(١) م.ن، ص٢٥٩ ـ ٢٦٠، ج٨.

خلافة الأئمة عليهم السلام

استدلّ الإماميّة بقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ على الإمامة الأئمة عليهم السلام وخلافتهم بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، فقالوا: إنّ الآية المباركة تدلّ على أمور مهمّة:

الأول: عصمة أولي الأمر، حيث قرن طاعتهم بطاعة الرسول صلى الله عليه وآله المطلقة غير المشروطة بشيء، وقد اعترف جمع غفير من الجماعة على هذا الأمر لظاهر الآية الشريفة، لكنّهم اختلفوا في تعيين مصداق أولي الأمر كما عرفت في التفسير، وذكرنا أنّ المراد من أولي الأمر هم الأئمة المعصومون عليهم السلام.

الثاني: أن أولي الأمر أعلم الأمة بعد الرسول صلى الله عليه وآله، فإنّ مَن فرض طاعته لا بد أن يكون عالماً بجميع الأحكام وجهات التشريع.

الثالث: أن أولي الأمر هم أفراد من هذه الأمة معلومون، إلا أنّ معرفتهم لا بد أن تكون بنصّ جليّ من النبي صلى الله عليه وآله يبيّن أسماءهم وخصائصهم.

الرابع: أصالة منصب الرسول ﷺ ونيابة منصب الإمام عليه السلام وولي الأمر وخلافته عن الرسول ﷺ.

الخامس: أصالة منصب الرسول ﷺ في وصول الوحي إليه، بخلاف الإمام عليه السلام، فإنّه يعرف الأمور بإلهام ربّاني أو بفهم ثاقب أو بغيرهما، كمصحف فاطمة عليها السلام، أو بكتاب علي عليه السلام.

السادس: أنّ الحاجة التي تدعو إلى الرسول ﷺ عين الحاجة التي تدعو إلى أولي الأمر، فإنّها تتضمّن مصالح مهمّة لا تستقيم حال الأمة بدونها[١].

---

(١) م.ن، ص٣٤٠ ـ ٣٤١، ج٨.

القــدر

وجوب اتخاذ الحذر، وهو حكم عقلي ـ بل أمر فطري ـ كشف عنه الشرع، والحذر: هو طريق الاحتياط يعمّ في جميع الأشياء ويختلف حسب متعلّقه، أي المخوف.

والفرق بينه وبين الكيد، هو أنّ الكيد يحتال الإنسان ليوقع غيره في مكروه، والحذر هو احتيال الشخص لخروج نفسه عن مكروه، فالتنافي بينهما واضح. فما قيل من أنّه نوع من الكيد، غير صحيح.

والتقديرات من الله سبحانه وتعالى لا يرفعها الحذر أصلاً؛ لأنّها كائنة حتّى في ظرف الحذر، بل المقدّرات الإلهيّة غير مربوطة بالظروف التي حصلت باختيار الإنسان بنفسه، كما عن نبيّنا الأعظم: «المقدور كائن والهم فضل» ـ وما قيل: «الحذر لا يغني القدر»، فالتقديرات الإلهيّة كائنة مهما كانت الظروف والحالات.

إن قلت: لو كان التقدير في الحرب مثلاً الغلبة، فلا فائدة في الحذر، وإن كان مقتضاه المغلوبيّة فلا نفع فيه، فلا فائدة في الحذر على التقديرين.

قلت: الأمر بالحذر لا ينافي التقدير كما مرّ. وإنّ الأوامر

التشريعيّة التي هي في مقام تكميل العبد، غير مرتبطة بالأمور التكوينيّة التي منها التقديرات، وقد يكون الحذر من مقدّمات الفعل الذي تعلّق القدر به، وقد يكون نفس الحذر أيضاً مقدّراً.

وبالجملة: أنّ القدر هو جريان الأمور وفق نظام معين متين فيه الأسباب والمسبّبات، والله تعالى قدّر أن يكون الفعل واقعاً إذا لم يتّخذ الإنسان الحذر ولم يتهيّأ في دفع الضرر عن نفسه، فيكون الحذر من جملة الأسباب ويكون العمل بالحذر عملاً بنفس القدر، لا أن يكون منافياً له أو لا نفع فيه، هذا موجز الكلام في المقام(١).

(١) م.ن، ص٤١، ج٨.

التقوى في القرآن والسنـة

وردت كلمة التقوى في القرآن والسنّة ـ بل في الكتب السماويّة ـ كثيراً، وحثّت عليها الشرائع الإلهيّة ورغبّت إليها. وهي صفة ـ أو حالة نفسانيّة ـ تعرض على الإنسان الملتزم بالدين، وقد تزول عنه حسب العوامل النفسيّة والمكائد الشيطانيّة، فهي من الأمور الإضافيّة، تختلف حسب درجات الإيمان والثقة بالمبدأ عزّ وجلّ.

وهي في اللغة: جعل النفس في وقاية ممّا يخاف. بل جعل نفس الخوف تقوى، من باب تسمية مقتضي الشيء باسم مقتضاه.

وقد عرّفت في الشرع بتعاريف متعدّدة، ولعلّ أسلمها: حفظ النفس عمّا يؤثم. وذلك بترك المحظور، ويتحقّق باجتناب بعض المباحات، أي التنزّه عن الحلال مخافة الوقوع في الحرام، لما روي: «الحلال بيّن والحرام بيّن، ومَن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه»، وغيره من الروايات قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآية ٣٥).

وقيل: إنّها صفة راسخة في النفس توجب الاجتناب عن المأثم والمشتبهات، وهذا التعريف يرجع إلى الأوّل، وإنّما الاختلاف في التعبير.

وقيل: هي الامتناع عن الرديء باجتناب ما يدعو إليه الهوى، وهذا أعمّ ممّا تقدّم.

وكيف كان، فإنّه لا يمكن تحقيق التقوى إلا بترك المشتبهات، فضلاً عن المحرّمات، ففي رواية يونس عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: «أرشدنا للزوم الطريق المؤدّي إلى محبّتك والمبلغ إلى جنّتك من أن نتبع أهواءنا فنعطب، ونأخذ بآرائنا فنهلك، فإنّ من اتّبع هواه وأعجب برأيه كان كرجل سمعت غثاء الناس تعظّمه وتصفه، فأحببت لقائه من حيث لا يعرفني، لأنظر مقداره ومحلّه، فرأيته في موضع قد أحدقوا به جماعة من غناء العامّة، فوقفت منتبذاً عنهم متغشّياً بلثام، أنظر إليه وإليهم، فما زال يراوغهم حتّى خالف طريقهم وفارقهم، ولم يقر، فتفرّقت جماعة العامّة عنه لحوائجهم، وتبعته أقتفي أثره، فلم يلبث أن مرّ بخباز بتغفّله فأخذ من دكانه رغيفاً مسارقة، فتعجّبت منه، ثمّ قلت في نفسي: لعلّه معاملة، ثمّ مرّ بعده بصاحب رمّان، فما زال به حتّى تغفّله فأخذ من عنده رمانتين مسارقة، فتعجّبت منه ثمّ قلت في نفسي: لعلّه معاملة، ثمّ أقول: وما حاجته إذاً إلى المسارقة، ثمّ لم أزل أتّبعه حتّى مرّ بمريض فوضع الرغيفين والرمّانتين بين يديه ومضى، وتبعته حتّى استقرّ في بقعة من صحراء، فقلت له: يا عبد الله لقد لحقت بك وأحببت لقاءك فلقيتك، لكنّي رأيت منك ما شغل قلبي، وإنّ سائلك عنه ليزول به شغل قلبي، قال: ما هو؟ قلت: رأيتك مررت بخباز وسرقت منه رغيفين ثمّ بصاحب الرمّان فسرقت منه رمّانتين، فقال لي: قبل كلّ شيء حدّثني

من أنت؟ قلت: رجل من ولد آدم من أمة محمّد ﷺ، قال: حدّثني ممّن أنت؟ قلت: رجل من أهل بيت رسول الله ﷺ، قال: أين بلدك؟ قلت: المدينة، قال: لعلك جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قلت: بلى، قال لي: فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك بما شرّفت به وتركك علم جدّك وأبيك، لأنّه لا ينكر ما يجب أني حمد ويمدح فاعله، قلت: وما هو؟ قال: القرآن كتاب الله، قلت: وما الذي جعلت؟ قال: قول الله عزّ وجلّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾، وإنّي لما سرقت الرغيفين كانت سيئتين، ولما سرقت الرمانتين كانت سيئتين، فهذه أربع سيئات. فلما تصدّقت بكلّ واحد منها كانت أربعين حسنة، انقص من أربعين حسنة أربع سيئات، بقي ست وثلاثون. قلت: ثكلتك أمّك، أنت الجاهل بكتاب الله، أما سمعت قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، إنّك لما سرقت رغيفين كانت سيئتين، ولما سرقت الرمانتين كانت سيئتين، ولما دفعتها إلى غيرها من غير رضا صاحبها كنت إنّما أضفت أربع سيئات ولم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيئات. فجعل يلاحيني فانصرفت وتركته». ويستفاد من هذه الرواية أنّ القبول مطلقاً يدور مدار التقوى، ولولاها فالأعمال مجرّد صور لم يكن لها لبّ. نعم لكلّ منهما مراتب ودرجات، والتقوى هي المسلك المهمّ للوصول إلى ساحة قربه ولاستقرار حبّه تعالى في القلب. وقد ذكر علماء السير والسلوك أنّ مقامات الرقي هي مراتب التقوى، وقسّموها إلى تقوى العوامّ وتقوى الخواصّ، وتقوى

أخصّ الخواصّ. ثمّ إنّ المراد من التقوى في الآية المباركة: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، هو مجرد التقرّب إليه عزّ وجلّ مع تقريره به، لا التقوى المصطلح، لتناسب ذلك لبدء التشريع وتلائمه مع بثّ النسل، ولم تكمل الحجّة بتمام جهاتها. ولكن تقدّم أنّ للتقرب إليه تعالى مراتب ودرجات، وأنّه لم يرد مثل هذا التعبير القرآني إلا في هذه الآية فقط[1].

(١) م.ن، ص١٩٧ ـ ١٩٩، ج١١.

النبيون والربانيون والأحبار

يدلّ قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، على المنزلة العظيمة التي منحها عزّ وجلّ لهذه الطوائف الثلاث، النبيّين والربّانيين والأحبار، فقد جعلهم تعالى حكّام الشرع المبين الذين يحكمون بما أنزل الله لبسط العدل بين الناس وإقامة النظام الربّاني فيهم، وإيصالهم إلى الكمال المنشود، كلّ حسب لياقته واستعداده. والمستفاد من الآية الشريفة أنّ الأنبياء هم الأصل في هذا المنصب الجليل، ثمّ يأتي في المرتبة الثانية الربّانيون الذين هم حفظة الشرع المبين ببيان الحقائق وكشف ما أبهم من الشريعة، ثمّ الأحبار الذين هم أمناء الله على أحكامه المقدّسة، ولا ريب أنّ تلك لا يمكن أن تنالا إلا إذا توفّرت شروط الولاية والإمامة، والآية تبيّن أهمّ تلك الشروط، وهي ثلاثة:

الأوّل: كونهم ربّانيين يدعون إلى الله تعالى قولاً وعملاً، وقد تقدّم الكلام في معنى هذه الكلمة في سورة آل عمران. وهي لم ترد في القرآن الكريم إلا في صفات الأنبياء والأوصياء.

الثاني: العلم الحاصل من تعليم الله تعالى لهم خصوصيات

الشريعة والكتاب، بل الآية الكريمة تدلّ على معنى أدق، لأنّ الحفظ يدلّ على العلم والتحفّظ على ما علم من الضياع والتبديل والتغيير، فيكون أخصّ من مجرّد العلم، فإنّ الأوّل عبارة عن إيجاب الحفظ ورؤيته في المراقبة قولاً وعملاً من كلّ من وجب عليه الحفظ دون الثاني، فإنّه لم ينظر فيه هذه الخصوصية، ولعلّ هذا الفرق أوجب أن يكون هذا الوصف من صفات الأوصياء، كما أنّ هناك فرقاً آخر أيضاً وهو أنّ الاستحفاظ يدلّ على العلم التامّ بخصوصيات الكتاب وما أنزله الله تعالى والتكليف بالحفظ وبيان ما كمن في نفوسهم الطاهرة من العلم، بخلاف مجرّد العلم، ولذا اعتبر في علم المعصوم أن يكون محيطاً بجميع ما تحتاج إليه الأمة من حلال الشريعة حرامها، والعلم بالكتاب وشؤونه. ففي الحديث المروي عن أبي عمر الزبيريّ، المروي في تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام: «أنّ ممّا استحقّت به الإمامة العلم المنور ـ وفي نسخة المكتونة ـ بجميع ما تحتاج إليه الأمّة من حلالها وحرامها، والعلم بكتابها خاصّة وعامّة، والمحكم والمتشابه، ودقائق علمه أو غرائب تأوليه، وناسخه ومنسوخه، قلت: وما الحجّة بأنّ الإمام لا يكون إلا عالماً بهذه الأشياء الذي ذكرت؟ قال عليه السلام: قول الله تعالى فيمن أذن الله لهم بالحكومة وجعلهم أهلها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾، فهذه الأئمة دون الأنبياء الذين يربّون الناس بعلمهم، وأما الأحبار فهم العلماء دون الربّانيون، ثمّ أخبر فقال: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾، ولم يقل: بما حملوا

منه»، فإنّه (عليه الصلاة والسلام) يشير إلى معنى دقيق، وهو أنّ علم الأنبياء أعلى مرتبة من علم الأوصياء الذي يختلف عن علم العلماء للذين حملوا علم الدين بالتعليم والتعلم، والأوصياء ليسوا كذلك، فإنّهم علموا الكتاب بما وصل إليهم من الأنبياء وما ألهمهم الله تعالى، ولذا كلّفوا بالحفظ ويسألون عنه، نظير قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ (سورة الأحزاب، الآية ٨)، أي: يسألهم عمّا كلّفوا به من الصدق في الأقوال والأفعال وما كمن في نفوسهم من صفته.

إن قلت: إنّه قد ذكر عزّ وجلّ الأحبار الذين هم علماء الدين في سياق الربّانيين، فلم لم يشترط فيهم ما اشترط في الأنبياء والربّانيين من العلم والعصمة.

قلت: إنّه مضافاً إلى عدم الدليل على اشتراطها فيهم، بل وردت الأدلة على عدمه، لأنّ المقتضي للاشتراط في الأنبياء والأوصياء هو ما أخبر به عزّ وجلّ من صفة الاستحفاظ فيهم وتكليفهم بالحفظ، فإنّهم رسل الله تعالى وأمناؤه على الشريعة ومبيّنوا حلالها وحرامها والمكلّفون بحفظها، واحتياج الأمّة إليهم كما عرفت آنفاً، وهذا بخلاف الأحبار والعلماء، فإنّه وإن أخذ العهد والميثاق منهم على بيان الأحكام الإلهيّة وحفظها، إلا أنّه مجرّد ثبوت شرعيّ، لا ثبوت حقيقيّ مبني على العلم والعصمة عن الخطأ والغلط، والدين الإلهيّ لا يتمّ إلا بالأخير دون الأوّل.

الشرط الثالث: العصمة من الغلط والخطأ، فإنّ العلم بالمعنى

المزبور في الربّانيين الذي تبتني عليه الشهادة يستدعي العصمة، فإنّها شهادة غير ما هي المتداول عند الناس، وهي شهادة على الشريعة والكتاب كشهادتهم على الأعمال يوم القيامة، التي تقدّم الكلام فيها بقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٤٣). وهي شهادة حضور ومراقبة وحفظ، وهي تختصذ بالأنبياء والأوصياء، ولا ريب أنّ مثل هذه الشهادة تستلزم العصمة، وإلاّ استلزم الخلف، فهي شهادة حقيقية خالية عن الخطأ والغلط والمعاصي، ويدلّ عليه ما ورد في الحديث المزبور المروي عن تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام: «إنّ ممّا استحقّت به الإمامة التطهير والطهارة من الذنوب والمعاصي الموبقة التي توجب النار».

وممّا ذكرنا يظهر معنى قوله عليه السلام في الحديث المزبور: «فهذه الأئمة دون الأنبياء الذين يربّون الناس بعلمهم»، فإنّهم أوصياء الأنبياء والأئمة على الخلق والحجّة عليهم، لأنّهم علموا بالكتاب حقّ العلم وشهدوا عليه بحقّ الشهادة.

والآية الشريفة وإن نزلت في الأنبياء والربانيين والأئمة من بني إسرائيل، إلاّ أنّ المناط موجود في غيرهم من الأنبياء والأئمة، لأنّ الاستحفاظ والشهادة اللذين لا يقوم بهما إلاّ الربانيون، يكونان في كلّ كتاب إلهيّ نزل من عند الله تعالى يشتمل على المعارف الربوبية والأحكام الإلهية، ويدلّ على ذلك ما رواه العياشي عن مالك الجهني، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى

وَنُورٌ﴾ - إلى قوله تعالى: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾. قال عليه السلام: «فينا نزلت». لأنّ القرآن الكريم الذي احتوى من المعارف الإلهية على أسماها، ومن الأحكام الشرعية على أكملها»، ومن المكارم على أجلاها وأعلاها هو الذي يستدعي لأن يكونوا عليهم السلام المصداق الأكمل لهذه الآية الشريفة[١].

(١) م - ن، ج١١، ص٢٦٥ - ٢٦٨.

مقام الأنبياء والرسل

الأنبياء ـ الذين هم أفضل أفراد البشر وأكملهم حسب درجاتهم ـ كلّهم من مظاهر شؤونه تعالى وأفعاله، وكلّ واحد منهم مظهر لأسمائه الخاصة جلّ شأنه. وفضّل بعضهم على بعض بشرف تقرّبهم إلى حضرته جلّت عظمته ـ وإن كان جميعهم نالوا التقرّب إليه مكانتهم وارتباطهم معه تعالى ـ ولا يتحقّق ذلك التشرّف العظيم إلاّ بأداء أمانة الحقّ الملقاة على عواتقهم وتحمّل المشاق في سبيل إعلاء كلمته عزّ اسمه والتكلّف مع المشقّة الشديدة في إبلاغ رسالته، وتحمّل الأذى في سبيل هداية البشر إلى السعادة بعد إنقاذهم من المهالك والقيام بالوساطة بينه تعالى وبين العباد.

وكلّما كانت الأمة بعيدة عن الكمالات والمثُل الإنسانية والأخلاقية ومنغمسة في الشرور والماديات، كان تعب النبي وتحمّله أشدّ وتقرّبه إلى الله أكثر، ولذا ورد في الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «ما أُوذي نبيّ مثل ما أوذيت» ولأجله ـ ولكمالات أخرى ـ تفوّق ﷺ على جميع الأنبياء وإلاّ فإنّ الأنبياء جمعيهم على حدّ سواء في إبلاغ الرسالة قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ (سورة المائدة، الآية: ٧٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١٤٤).

وإنما خصّ سبحانه وتعالى كلّ نبي بمعجزة خاصة لتناسب زمانه بها بالتحدّي من أهل عصره وقبولها من أمته؛ لأنّ المعجزات الصادرة عن الأنبياء عليهم السلام ليست هي إلاّ خوارق العادات لإثبات دعوى رسالتهم بطريقة يقتنع بها المدعوون إلى الإيمان، فيؤمنون بشريعتهم مثل إحياء الموتى وشفاء المرضى وغيرهما من معجزات المسيح عليه السلام، فهي ليست إلاّ كإلقاء العصا فتصير حيّة تسعى، ونجاة بني إسرائيل من العذاب، وغرق فرعون وغيرها من معجزات موسى عليه السلام التي تناسب عصر كلّ منها.

وكذا معجزات نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم من تسبيح الحصا بين يديه، ونصرته في الغزوات مع قلّة عدد المسلمين، وتفوّق حجّته على الخصام، وإخباره عن المغيّبات، وعروجه بجسمه الشريف إلى السماء، والبشارة بنبوّته في كتب السماء على لسان الأنبياء عليهم السلام ومعجزته الباقية الخالدية (القرآن) وغيرها ممّا هو كثير.

وأمّا خلق المسيح عليه السلام بلا أب، فإنّه يرجع إلى قدرته تعالى وعزّته، كخلق آدم عليه السلام بلا أب ولا أم، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾، ولا يكون من المعجزة التي تصدر منه أو تظهر على يديه؛ لأنه لم يكن تحدّ في البين مثل نزول المائدة من السماء

بدعائه، وخلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص. بل معجزة في خلقه، وكذا رفعه إلى السماء يرجع إلى قدرته تعالى فيه، فالمسيح إنسان أرضي وسماوي، وقد أخّر هبوطه إلى الأرض بعد رفعه منها حتى يكون شاهداً على حقّانية شريعة محمد ﷺ باقتدائه بمهدي هذه الأمة الذي هو من ولد محمد ﷺ، ويكون لشريعته ـ بل لجميع الشرائع التي جاء بها الأنبياء ـ سير استكمالي يصل إلى منتهى الكمال بظهور مهدي هذه الأمة الذي هو من ولد فاطمة البضعة الطاهرة منه ﷺ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً هذا بالنسبة إلى حياتهم الظاهرية في إبلاغ مهامهم.

وأمّا أرواحهم الشريفة ونفوسهم القدسية، فهي لا شكّ في امتيازها وتفوّقها على سائر النفوس لقربها من العقل الأول كما عن بعض، أو أنها فائضة من الحضرة الإلهية كما عن آخرين[١].

(١) م ـ ن، ج١٠، ص١٥٨ ـ ١٥٩.

عقيدة الإنسان

الإنسان بلحاظ عقيدته لا يخلو عن أقسام ثلاثة بالحصر العقلي، لأنّه إمّا مؤمن بالله العظيم ونهجه القويم، أو كافر به، أو منافق.

وبتعبير آخر: إمّا في الصراط المستقيم، أو منحرف عنه وفي طريق الغواية، وإمّا مزدوج بين الطريقين، وكلّ طائفة تنال جزاءها المختصّ حسب عمله الناشئ عن عقيدته.

والإيمان بالله تعالى يحصل باختيار الإنسان، إلا أنّ السعادة الكائنة في الفطرة كجزء المقتضي للاختيار، وأنّ السبب التامّ هو الاختيار، فيختار إمّا السعادة ـ حسب فطرته ـ وإمّا الشقاء للانحراف عنها، فينتفي الجبر وشبهه كما ينتفي التفويض، على ما تقدّم في هذه الآيات المباركة وغيرها.

وأمّا الجزاء على الأعمال الصالحة المنبعثة عن العقيدة، فلا شكّ أنّ المؤمن بالله تعالى ينال جزءا عمله بالمقامات العالية والدرجات الرفيعة، إما في هذه الدنيا ـ كما تقدّم في أحد مباحثنا السابقة ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ (سورة آل عمران، الآية ١٤٥)، ـ أو في الآخرة من الجنّات والنعم وغيرها ممّا

تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، كما أنّ الجزاء على أعماله السيئة يكون كذلك، عقاباً دنيويّا أو أخرويّاً.

وأمّا بالنسبة إلى أعمال الكافر، فإن كان العمل سيئاً بمقتضى عقيدته، فينال جزاءه السيئ إمّا في هذه الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً. وإن كان العمل حسناً وصالحاً ينبئ عن أنّ بعض عقائده يرضى الشارع به، فيجازيه عزّ وجلّ إمّا في هذه الدنيا، أو في عالم البرزخ، أو في عالم الخلود، كما في الروايات الصادرة عن المعصومين عليهم السلام؛ ولقاعدة: «العدل والإنصاف».

وبتعبير آخر: العمل إن كان مصدره عن عقيدة وثبات في الرأي ينال جزاءه المناسب له، مؤمناً كان العامل أو كافراً، وأنّ الانحراف في العقيدة لا يوجب التأثير في أصل الجزاء وإن اختلفت كيفيّته.

وأمّا جزاء أعمال المنافق، فالمستفاد من الآيات الشريفة والسنن المطهّرة أنّ أعماله الحسنة لا تفيده أصلاً ـ لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة ـ لأنّها لم تصدر عن عقيدة راسخة ونهج معترف به، قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: المنافق لا ينال جزاء المؤمن ولا ينال جزاء الكافر في أعماله الصالحة، فيكون المنافق أسوء حالاً من الكافر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾، ولم يرد هذا التعبير أو ما ينزل تلك المنزلة بالنسبة إلى الكفّار وإن كان الكافر يرد جهنّم أيضاً، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ (سورة الإسراء، الآية ٨).

وأمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ الذي يستفاد منه التسوية في العذاب، فباعتبار أصله لا باعتبار مراتبه ودرجاته، فعذاب المنافقين أسوء وأشدّ كما تقدّم في الآية الكريمة السابقة.

إن قلت: مقتضى الآيات المباركة أنّ الجزاء تابع للعمل سواء كان العامل مؤمناً أو كافراً أو منافقاً، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (سورة الزلزلة، الآية ٧ ـ ٨)، خصوصاً على القول بأنّ الجزاء والثواب من الآثار الوضعيّة للعمل، وإن كانت تختلف باختلاف العقيدة.

قلت: المراد من العمل في الآية الشريفة العمل الصادر عن عقيدة وإرادة ـ لا كلّ عمل ـ والمفروض أنّ المنافق لم يكن له عقيدة؛ لأنّه مذبذب ومزدوج، له صورة العمل وهيكله[١].

(١) م.ن، ج١٠، ص٨٠ ـ ٨١.

الولاية الإلهية

الولاية الإلهية التي أثبتها عزّ وجلّ لنفسه ومنحها لرسوله الكريم والذين آمنوا وهم علي وبنوه الكرام(صلوات الله عليهم) فثبتت لهم الإمامة والدلائل والقرائن والأخبار وشأن نزولها وغير ذلك من الشواهد والإشارات كلها تشهد وتدل عليه، ولكن مع ذلك ناقش الجمهور في دلالتها ونحن نذكر المهم مما ذكروه في المقام وهو على وجوه:

الأول: إن المراد من الولي الناصر، فإن الولي لفظ مشترك يقال للناصر والمحب والأولى بالتصرف والمشترك إذا تردد بين معانيه يلزم وجود القرينة للمعنى المطلوب، فلا يكون نصاً على إمامة علي عليه السلام فبطل الاستدلال به.

وفيه: ما عرفت أن لفظ الولي إذا جيء به مفرداً يدل على الولاية التصرفية وهو المتبادر منه ولا نحتاج إلى قرينه بل غيره يحتاج إليها، وعلى فرض القبول يمكن أن يقال أن الولي مشترك معنى موضوع للقائم بالأمر أي الذي له السلطان على المولى عليه ولو في الجملة فيشمل ولي المرأة والصبي والرعية والصديق والمحب فإن لهما ولاية وسلطاناً في الجملة على صديقه، فالمراد به القائم بأموركم، يضاف إلى ذلك أنه

لو فرض تعدد المعاني والاشتراك اللفظي فإن القرائن تدل على أن المعنى المناسب في المقام هو الأولى بالتصرف، وقد تقدم في التفسير ما يدل على ذلك، فراجع.

الثاني: إن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ صيغة جمع فلا تصرف إلى الواحد إلا بدليل وشأن النزول وقول المفسرين لا يقتضي الاختصاص ما لم يبلغ إلى درجة الإجماع.

وفيه: ما عرفت آنفاً أن استعمال صيغة الجمع وإرادة الواحد من الأساليب البلاغية المعروفة وقد نزل القرآن عليها واستعملها فيه لفوائد كثيرة منها تنظيم الفاعل والمتصف بتلك الصفات والإشارة إلى أنه بمنزلة جميع المؤمنين المصلين المزكين لأنه رئيسهم وعميدهم، وأما شأن النزول فهو وإن لم يكن موجباً للاختصاص كما هو المعروف لكن الروايات الواردة في تفسر الآية الكريمة هي من الكثرة بمكان بحيث تكون موجبة للاختصاص وإلا لم يصح الركون إلى شيء من الروايات كما ذكرنا، فراجع.

ومما ذكرنا يظهر أن قول المفسرين إنما كان مستنداً إلى دلالة الآية الشريفة والسنة فلم يكن جزافاً ومن غير دليل. ومن كثرة الروايات بل تواترها يمكن دعوى القطع بالاختصاص ولا يقل المقام عن غيره مما لم يصل إلى هذه الدرجة من نقل الروايات والقرائن فلا يصغي إلى قول بعضهم أنه لا نسلم الإجماع على نزولها في الأمير عليه السلام[1] فإنه

(١) القائل أبو الثناء الآلوسي في تفسير الآية من (روح المعاني).

إذا لم نقل بذلك ما عرفت من الروايات ففي أي مورد يمكن دعوى الإجماع حينئذ وأما الروايات الآحاد التي نقلها في شأن النزول فلا يمكن لها النهوض في معارضة تلك الكثرة من النصوص على فرض صحتها، فراجع.

الثالث: إن الحصر المستفاد من كلمة (إنما) يكون فيما يحتمل الشركة والتردد والنزاع، ولم يكن وقت نزول هذه الآية تردد ونزاع في الإمامة وولاية التصرف بل كان في النصرة والمحبة.

وفيه: أن ذلك مبني على كون المراد من (أولياء) في ما سبق من الآيات هي ولاية النصرة والمحبة، وقد عرفت بطلانه، وعلى فرضه يكون حكم الآية الشريفة خاصاً بها لا يرتبط بما سبق وعلى فرضه فإن إثبات ولاية التصرف تستدعي المحبة والنصرة دون غيرها، يضاف إلى ذلك أن كلمة (إنما) تفيد الحصر ونفي الأولياء المزعومين ووجوب الموالاة والإمامة وانحصارهم في من ذكر دون غيرهم، كما تقدم.

الرابع: إن الاستدلال بالآية الكريمة بالتقريب الذي تذكره الإمامية يدل على سلب الإمامة عن الأئمة المتأخرين الاثني عشر(صلوات الله عليهم) بعين التقرير الذي نفوا به إمامة المتقدمين وفيه:

أولاً: إن الآية إذ دلت على إمامة علي عليه السلام وأثبتت ولايته الشرعية فهو الحجة في تعيين غيره.

وثانياً: إن الآية بقرينة الآية التي سبقتها تدل على إمامة من توفرت فيه الصفات التي تؤهله للإمامة، وهذا الإشكال إنما نشأ من الغفلة عن

ارتباطها بسابقتها والعجيب أنهم يفسرون الولي في الآيات السابقة ويقطعونها عن أقرب الآيات منها، وقد عرفت فيما سبق أن قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ يشتمل على جملة من الأوصاف التي يجب أن تتوفر في من يتولى شؤون الأمة، فراجع.

وعلى هذا فالآية تنفي إمامة غير من عينهم الله عزّ وجلّ.

وثالثاً: إن الأئمة هم معلومون وقد عينهم الرسول الكريم في عدة مقامات وقد نقل أرباب الحديث تلك الروايات، فراجع.

الخامس: إن الآية الكريمة إذا دلت على ولاية الذين آمنوا على زعم الإمامية فإن ولايتهم في زمان الخطاب غير مرادة، لأن ذلك عهد النبوة، والإمامة نيابة فلا تتصور إلا بعد انتقال النبي ﷺ وإذا لم يكن زمان الخطاب مراداً تعين أن يكون المراد الزمان المتأخر عن زمن الانتقال ولا حد للتأخير فليكن ذلك بالنسبة إلى الأمير عليه السلام بعد مضى زمان الأئمة الثلاثة فلم يحصل مدعى الإمامة.

وفيه: إن ذلك مكابرة واضحة فإن الآية إنما تدل على كون الذين آمنوا هم الأولياء من غير نظر إلى الزمان من قبيل القضايا الحقيقية، وعلى القبول فإنها تدل على ولايتهم بعد الرسول بلا فصل وتنفي ولاية غيرهم فكيف تثبت بعدهم وهناك إشكالات أخرى في غاية الضعف يظهر الجواب عنها من مطاوي ما ذكرناه في التفسير، ولعمري أنها تأويلات باطلة وتفسير للآية الشريفة بالرأي الذي اتفق المسلمون على بطلانه وحرمته. ولو فتحنا باب مثل هذه التأويلات الفاسدة لا سيما مع

مخالفتها للشواهد والأخبار لما كانت آية حجة على أمر البته فيا ليتهم صرفوا عمرهم في استخراج كنوز القرآن العظيم فلو تركوا هذه المغالطات لكان للمسلمين شأن غير الذي هم عليه لكن حرموا أنفسهم من الفيوضات وحرموا أعقابهم منها وهذا من الظلم العظيم[١].

(١) مواهب الرحمن، ج١٢، ص٨٧ ـ ٩٠.

مقام الولاية

إن التبليغ المأمور به فيما إنما تعلق بأمر خاص له شأن كبير في هذا الدين بل له مساس في بقائه، ولو كنا نحن وهذه الآية الكريمة كانت كافية في الدلالة على المقصود ولوجب علينا التفحص في ما أمره به ربه والأحاديث المتواترة لفظاً ومعنىً تعين ذلك وتثبت أن المأمور به هي الولاية الكبرى والخلافة العظمى وكان ما فعله الرسول الكريم ﷺ بمقتضى الأمر بالتبليغ هو نصب علي عليه السلام ولياً وخليفة يحفظ به هذا الدين القويم وينصر به أهله، وهذا المقدار كاف في الحجة وإلزام الناس بمضمون الآية الشريفة إلا أن القوم أولوها بتأويلات باطلة وجردوها عن المعنى المقصود وتلاعبوا في دلالتها ثم ناقشوا في الأخبار تارة في سندها، وقد عرفت في البحث الروائي بطلان مناقشتهم وإنها أخبار متواترة عند الفريقين وأخرى في دلالتها ونحن نذكر المهم منها والجواب عنه.

الأولى: إن الحديث الذي ورد فيه «من كنت مولاه فعلي مولاه» لا يدل على ولاية السلطة التي هي الإمامة أو الخلافة، ولم يستعمل هذا اللفظ في القرآن بهذا المعنى بل المراد بالولاية فيه ولاية النصرة

والمودة التي قال الله فيها في كل من المؤمنين والكافرين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ ومعناه من كنت ناصراً ومواليا له فعلى ناصره ومواليه، أو من والاني ونصرني فليوال علياً وينصره بل إن مفعل بمعنى أفعل لم يذكره أحد من أئمة العربية، وإن الاستعمال على خلافه لجواز أن يقال هو أولى من كذا دون مولى من كذا، ولم يقم دليل على أن المراد بالأولى ـ على فرض التسليم ـ التصرف والتدبير، بل يجوز أن يكون في المحبة كما عرفت، فلا يدل الحديث على إمامته، وزاد بعضهم بأنه لو كان المراد بالولاية أولوية التصرف، يلزم اجتماع الولايتين في زمان واحد، إذ لم يقل الرسول ﷺ (بعدي)، ولا يتصور الاجتماع بخلاف ما إذا كان المراد المحبة.

وفيه أولاً: إن المولى في الحديث بانضمام سائر القرآن الحالية والمقالية يدل على أن المراد به الأولى بالتصرف، إذ لا يصح قطع جزء من الحديث عن القرائن الحافة به والحكم عليه، ولو أمعن النظر في الأحاديث الكثيرة التي ورد فيها هذا المقطع «من كنت مولاه فعلي مولاه» صدراً وذيلاً وحالاً ومحلاً لتبين أن المراد منه الأولى بالتصرف وإلا لحكمنا على كثير منها بالبطلان والفساد، ويجل فعل النبي ﷺ عنهما وهو المعصوم من كل خطأ وزلّه، فمن تلك القرائن قوله ﷺ: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم» فإنه لا معنى لكون المراد فيه المحبة كما هو الظاهر. ومنه قوله ﷺ «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» فإنه ظاهر أيضاً في ذلك وتأويلهما إلى ولاية المحبة خلاف الظاهر من الفقرتين، ومنها: ذكر هذه الفقرات في خطبة قد جمعت

كثيراً من التشريعات الخاصة التي تدل على ولاية التصرف ولا وجه لجرد تلك الفقرات عن البقية إلا بدليل وهو مفقود، ومنها ذكرها في جمع غفير في يوم هجير على رمضان لم يمكن عليها المسير من شدة الحر فإنه أهم قرينة حالية على أن المراد ما ذكرناه ولا وجه لأن يجمعهم الرسول ﷺ لبيان محبة علي عليه السلام وقد أمروا سابقاً بمودة القربى ومحبتهم وغير ذلك من القرائن الكثيرة.

وثانياً: إن من يفسر المولى بالأولى بالتصرف لم يرد أنه اسم تفضيل حتى يستشكل عليه بأنه يقال هو أولى من كذا ولا يقال: مولى من كذا، بل أراد التفسير بقرينة صدر الحديث «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم» الدال على أن المراد الأولى بالتصرف وتفسيره بالمحبة كم فعله بعض المفسرين خلاف الظاهر، بل يمكن لنا القول بأن المولى يراد مالك الأمر وهو المعنى الحقيقي المستعمل في سائر الموارد، ففي الحديث «أيما امرأة نكحت بغير إذن مولاها» وغير ذلك فيدل على الولاية بغير احتياج إلى التصرف، وكل ما يقال في توجيه دلالة إلا لحديث على ولاية المحبة خلاف المعنى الحقيقي والاستشهاد ببعض الأمور لإثبات ذلك إنما يكون إجمال الحديث، والمفروض عدمه وظهوره في الولاية التصرفية.

وثالثاً: على فرض التنزل، وقلنا بأنه لم يعهد أن يكون المراد من المولى الأولى، فهذا أبو عبيدة الذي هو من أئمة العربية وغيره من اللغويين والمفسرين فسروا المولى بالأولى في قوله تعالى: ﴿مَأْوَىٰكُمُ

ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي أولى بكم، وإلا يراد عليه بأن أبا عبيدة إنما هو في مقام بيان حاصل المعنى يعني النار الموضع اللائق بكم، فليكن المقام من بيان حاصل المعنى لما ذكرناه من القرائن.

وأما ما قيل: بأن النبي ﷺ قال ذلك عندما شكا بعضهم من علي عليه السلام كما ورد في الحديث المتقدم، فذكر ﷺ ذلك مبالغة في طلب موالاته وتلطفاً في الدعوة إليها.

فإنه باطل فإن المبالغة في طلب موالاته يقتضي نصبه علماً وهادياً وإماماً لا أن يرشد إلى محبته فقط التي اقتضتها آيات وأحاديث أخرى. والآية الكريمة المبحوث عنها والأحاديث الواردة في شأنها بمعزل عن ولاية المحبة فقط، فصرف اللفظ إليها من الزور الباطل.

الثاني: أنه لو سلم دلالة الحديث على إمامة علي عليه السلام فلا نسلم دلالته على كونها بعد النبي ﷺ بلا فصل حتى تنتفي إمامة غيره ممن تقدمه.

وفيه: أن نصب الولاة والحكام أمر عادي، فما يقال فيها يقال في الحديث أيضاً، فإن السلطة لا يقول هذا ولي عهدي بلا فصل بل يجري الكلام على ظاهره ويؤخذ به على كونه بعده بلا فصل فإن ذلك هو المتبادر من اللفظ، يضاف إلى ذلك أن ذكر (بعدي) لا يرفع الإشكال، فإن البعدية من الأمور النسبية فإنه يمكن أن يقال أنه أمام بعد الثلاثة.

ثم أنه كيف يسوغ لأحد أن ينصب حاكماً ووليا ويترك ذكر من يقوم بعده من غيره وهو غير جائز عندهم، فكيف يجوز نسبته إلى

ساحة النبي ﷺ وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بعض الكلام، فراجع.

وهناك مناقشات أخرى واهية، بل هي محض مكابرة للحق، ومن أراد الإطلاع عليها فليراجع الكتب الكلامية[١].

(١) م.ن، ج١٢، ١٩٨ ـ ٢٠١.

بحوث في التوصية والألوهية

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

بيان حال طائفة أخرى من أهل الكتاب التي لا تقل عن الطائفة الأولى في قبائح الأقوال والأفعال واشتراكها معها في أن الانتساب إلى المسيح وكونهم نصارى لم تنفعهم وليسوا على شيء بعد كفرهم بالله إذ أثبتوا له شريكاً فلم يؤمنوا به حق الإيمان ولم يقيموا الإنجيل الذي دعاهم إلى التوحيد، وقد أكد عزّ وجلّ بالقسم كفر القائلين بأن الله هو المسيح بن مريم من النصارى، وقد اختلفت مقالتهم في كيفية اشتمال المسيح بن مريم على جوهر الإلوهية، فمنهم من يقول بالحلول ومنهم من يقول بالأقانيم على اختلاف وجوهها، ومنهم من يقول بالانقلاب، وتقدم تفصيل ذلك في سورة النساء فراجع.

وكيف كان فهم لغوا في نبيهم المسيح بن مريم عليه السلام كغلو اليهود في الكفر به فضاهوهم بذلك، ولكن النصارى كفرت فيه وقالت أن المسيح هو الله.

وقد رد تبارك وتعالى تلك المقالة الشنيعة والعقيدة الزائفة بوجوه عديدة.

الوجه الأول: إن المسيح هو ابن مريم فكيف يمكن أن يكون الإله ابن امرأة كلاهما مخلوقان من تراب والله منزه عن مجانسة مخلوقاته.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾.

هذا هو الوجه الثاني: وهو الاعتراف فمن يعتقد بإلوهيته بأنه عبد مربوب مثلهم، فقد أمرهم بعبادة الله تعالى وحده الذي هو ربه وربهم، وهذا القول منه عليه السلام لا يزال محفوظاً في بعض الأناجيل المعروفة عندهم كما ستعرف في محله إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾.

هذا هو الوجه الثالث: وهو إخباره(صلوات الله عليه) عنه عزّ وجلّ بأن الشرك بالله يوجب الحرمان عن الجنة وهذه حقيقة واقعية لا تقبل التغيير والتبديل، فإن كل من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، فلو كان عيسى بن مريم إلهاً لما حرم الله الجنة على من اعتقد فيه بأنه إله، فإنها دار الموحدين من عباده.

قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾.

هذا هو الوجه الرابع: وهو أن عيسى بن مريم لو كان إلهاً لأمكن أن ينجي أنصاره ومريديه من النار وقبلت شفاعته فيهم، وفي الآية المباركة إشارة إلى بطلان ما يدعونه في المسيح من أنه اختار الصلب

لخلاص النصارى، فهو فدى نفسه عنهم فهم لا يمسون النار ويدخلون الجنة بغير حساب، وتقدم في سورة آل عمران تفصيل ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

هذا هو الوجه الخامس: وهو أن الشرك بالله ظلم. بل ظلم عظيم كما في آية أخرى، والظالم كذلك ليس له نصير ينصره من عذاب الله المعد للمشركين وإتيان الجمع للدلالة على تعدد من يعتقدونه بإلوهيته أو الشافعين لهم ولبيان الأولى، فإن الأنصار على كثرتهم لا ينفعون، فنفي الناصر وهو الذي يعتقدون بإلوهيته، يكون بالأولى.

فهذه الحجج الخمس مما احتج الله تعالى بها عليهم وهي براهين قويمة اعترف الخصم بها ولا يسعه إنكارها. فكانت أتم وأثبت.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾.

تأكيد آخر على كفر الذين قالوا بأن الله تعالى أحد الثلاثة الذين يعبرون عنهم بـ(الأقانيم) وهي الأب والابن وروح القدس. وقد اختلفت اتجاهات النصارى في هذه المقالة، فقيل بأنها ثلاثة اعتباراً، ولكنها واحد، وهذا هو القول الأول الذي حكاه عزّ وجلّ عنهم ﴿إن الله هو المسيح بن مريم﴾.

وقيل: إن الثلاثة كل واحد منها إله والألوهية مشتركة بينهم كما هو ظاهر قوله تعالى للمسيح عليه السلام ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومسألة التثليث عندهم معروفة، ولما كان بطلانها واضحاً لا تحتاج إلى إقامة البراهين، إذ لا يمكن تصويرها وتعقلها،

فادعى بعضهم بأنها من المسائل المأثورة من مذاهب السلف عندهم لا تقبل الحل بحسب الموازين العلمية، ولكن المأثور إذا لم يقم عليه الدليل المعتبر فهو باطل ونسبته إلى الشرع جناية أخرى لا تغتفر، وقد تقدم في سورة النساء بعض الكلام فراجع.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

حقيقة من الحقائق الواقعية التي لا تختص بعالم من العوالم حتى في عالم التصوير والتعقل، فإن الإله لا بد أن يكون إلهاً واحداً وإلا لم يكن إلهاً.

فالآية الشريفة تشتمل على حجة قويمة احتج بها على من قال بالشرك والتثليث وغير ذلك من المعتقدات الفاسدة في الإله وهي أعظم آية في القرآن الكريم التي تثبت التوحيد بكل معنى الكلمة وتشتمل على برهان قويم ففيها دعوىً مع إقامة الحجة عليها، فالإله يجب أن يكون واحداً وهو الله تعالى الذي لا يقبل الكثرة، فهو واحد في ذاته وصفاته وهي عين ذاته ولا تقبل التعدد، فهناك تتحد الذات والصفات والإضافة فلا تورث إضافة الصفة إلى الذات المقدسة كثرة وتعدداً، فهو كما عرفت إحدى الذات لا يقبل الشركة والتقسيم بأي وجه من الوجوه، لا في العقل ولا في الوهم ولا في الخارج، وقد اشتملت الآية الكريمة على أنحاء من التأكيدات، فإن أسلوب النفي والإثبات من أعظم الأساليب لتثبيت المطلوب وتأكيده كما هو معلوم، ثم دخول (من) على النفي لتأكيد الاستغراق، ثم إتيان المستثنى (إله واحد) نكرة ليفيد

التنويع ولو كان معرفة مثل (الإله الواحد) لم يفد ذلك في إثبات حقيقة التوحيد، ثم إن الآية الكريمة احتفت من طرفيها بالأدلة والبراهين على نفي الشريك وإثبات الوحدانية الحقة الحقيقية، وسيأتي في البحث العرفاني بعض الكلام إن شاء الله تعالى.

والمعنى ليس في الوجود وجنس الإله أبداً إلا إله واحد له من الوحدة لا تقبل التعدد أصلاً لا في الذات ولا في الصفات لا خارجاً ولا فرضاً، وهي حقيقة التوحيد التي أثبتها القرآن الكريم ولم مثل ذلك في أي بحث علمي أو فلسفي مع ما للعلماء من التحقيق والتدقيق، وهذه هي من معاجز الكتاب الإلهي الذي فيه من المعارف الإلهية الدقيقة التي قل من يدركها إلا من ألهمه الله تعالى من فيضه الأقدس، وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

توعيد منه عزّ وجلّ لمن لم يكفوا عن القول بالكفر والتثليث وتهديد لهم بالعذاب الأليم، وهو ظاهر إلا أن الكلام في أن التهديد عام لكافة الذين أشركوا بالله من النصارى وقالوا بالتثليث أو خاص ببعضهم كما هو مفاد (من) التبعيضية، والظاهر أن القول بالتثليث لم يكن صادراً عن جميع النصارى، فإن بعضهم كان على التوحيد ولم يقل في المسيح إلا كونه عبداً لله تعالى ورسوله الذي أرسله للناس، أو أن القول بالتثليث لم يكن عند بعضهم عن اعتقاد بل كان لأجل

التشريف ورفع مقام الأبوة والنبوة، ولذا كانوا يرجعون عنها إذا عرفوا أن التشريف في غير هذه العقيدة، وكيف كان فالمعنى لئن لم ينته النصارى عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم وهم القائلون بالتثليث عذاب أليم وقد نسب القول إلى الجميع باعتبار بعضهم وهو من الأساليب المعروفة المتكررة في القرآن الكريم، وقد ذكروا في المقام بعض الأمور في (من) وغيرها مما لم يقم عليها الدليل، أعرضنا عن ذكرها فراجع.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾.

تقرير وتوبيخ ويمكن أن يكون الاستفهام للتعجيب من حالهم وإصرارهم على التثليث مع وضوح بطلانه وما جاءتهم البينات والنذر.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

تحضيض للتوبة والاستغفار، فإن رحمته واسعة، يغفر لهم ويمنحهم من فضله العميم إن تابوا إلى الله ورجعوا عن قولهم بالتثليث.

قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾.

جملة استئنافية مسوقة لبيان الحق، وبرهان لبطلان التثليث وكون المسيح رباً وإلهاً، وهو يتضمن أموراً ثلاثة جميعها تدل على نفي الإلوهية بجميع مراتبها عنه عليه السلام، فقد ذكر عزّ وجل.

أولاً: ما امتاز به(صلوات الله عليه) من الصفات الكمالية، فصار من أفضل أفراد الجنس، ثم ذكر.

ثانياً: الوصف المشترك بينه وبين بني نوعه.

وثالثاً: بين حاله وحال أمه عليها السلام، وهذه الأمور مما اعترفت به الأناجيل الموجودة عندهم، فتكون حججاً على كونه عليه السلام عبداً رسولاً وتنفي الإلوهية عنه وعن أمه عليها السلام على اختلاف مذاهبهم في كيفية اتخاذها إلهاً.

فإن بعضهم يقول بإلوهيتها كالمسيح كما يظهر من قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ (سورة المائدة، الآية ١١٦).

أو كانوا يقدسونها تقديس خضوع لم يكن لبشر مثلها، كما هو المنسوب إلى أهل الكتاب من أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وكيف كان فالآية الشريفة تدل على أن المسيح بن مريم قد حضي من أفضل الكمالات وهي الرسالة وكونه مبعوثاً من الله فهو مقصور عليها لا يتخطاها إلى ما تزعم النصارى فيه إذ كيف يمكن أن يكون الرسول بمنزلة المرسل في الإلوهية وإلا بطلت الرسالة، وها مما لا تقبله النصارى فإنهم يعتقدون برسالته كما عرفت.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

برهان آخر وهو أن المسيح لم يكن بدعاً عن سائر الرسل الذين خلوا من قبله فكلهم في عالم الإمكان واحد كانوا بشراً منحهم الله تعالى صفة الرسالة وبعثوا إلى أقوامهم ثم أدركهم الموت فالآية الشريفة تؤكد على كون المسيح بشراً يجوز عليه الحياة والموت كما جاء على سائر الرسل من قبله.

قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾.

برهان ثالث يدل على أنهما اشتملا على أمر ينافي الإلوهية، فإن أمه(سلام الله عليها) كانت تصدق بكلمات الله وآياته وقد نزهت عن التعليق بغير الله وبالغت في التصديق به عزّ وجل كما قال تعالى ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ وبلغت مرتبة الصديقين، وهي وابنها كانا يأكلان الطعام بمقتضى الحاجة والافتقار وإن المسيح عبد ورسول رب العالمين، وهذه كلها تدل على نفي الإلوهية بجميع مراتبها عنهما عليهما السلام التي تتقوم بالوجود وعدم الافتقار بوجه من الوجوه. وإنما ذكر عزّ وجلّ أكل الطعام وما يستتبعه من اللوازم لبيان صفة الحاجة والافتقار التي تلازم جميع المخلوقات وكيف يصير الممكن إلهاً؟!!

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾.

خطاب لأشرف مخلوقاته وسيد أنبيائه(صلوات الله عليهم) ومنه لسائر المخاطبين الذين لهم الأهلية تعجباً من حالهم كيف يدعون لهما الربوبية بعدما تبينت لهم الحقيقة. وقامت الدلائل القطعية على بطلان دعوى الإلوهية في المسيح وأمه عليهما السلام.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾.

مبالغة في التعجب وشدته كيف أنهم عرفوا الدلائل الواضحة التي لا يعتريها الشك والريب وأنها بلغت أقصى الغاية في التحقق والإيضاح.

ثم انظر مدى نكرانهم وإعراضهم، فإن ذلك أعجب منهم إذ كيف

لا تصل إليها عقولهم وإدراكهم مع طول المدة وامتداد الآيات وهم لا يتأثرون بها بل يكذبونها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

خطاب آخر واحتجاج جديد بما تمليه فطرتهم في عبادة الرب، فإن عامة الناس إلا من كان له نوع معرفة في عبادة الله الواحد الأحد إنما يعبدون الرب ويخضعون له طمعاً في دفع الشر عنهم أو جلب النفع لهم فإذا لم يتمكن المعبود من ذلك فلا وجه لعبادته والاستفهام للإنكار والمعنى أتعبدون شيئاً من دون الله لا يملك القدرة مثل ما يستطيعه الله تعالى من دفع الشر والضر وإيصال الخير والنفع، فإن ما دون الله تعالى لا استطاعة له ولا يملك شيئاً من ضر ولا نفع، فإنه مملوك مربوب، وإن كل ما يستطيعه إنما هو بإقدار من الله تعالى عليه لا من عند نفسه، فكيف يمكن أن يتخذ إلهاً معبوداً، فيجب عبادة الله الواحد القادر ولا يتعدى إلى غيره فهو العالم بكل ما يحتاج إليه العبد والسميع لدعوته والقادر على إيصاله إلى ما يفيده، والآية الشريفة تتضمن احتجاجاً آخر على من اتخذ إلهاً من دون الله تعالى، وأنه يشترك مع الحجج المتقدمة في أنها من برهان الإمكان والاحتياج على نفي ألوهية غير الله تعالى ولكنها تمتاز عن أخوانها بأمرين:

أحدهما: أنها عامة تشمل جميع ما يعبد من دون الله سواء كان من البشر أم من الأوثان والأصنام كما هو ظاهر كلمة (ما) التي تشمل الجميع.

والثاني: أنها تشتمل على برهان الإمكان الأشرف الذي هو من البراهين القويمة على وحدانية الله تعالى ونفي الشريك عنه عزّ وجلّ، وقد ذكره الحكماء المتألهون والفلاسفة الشامخون في كتبهم وخلاصته إن كل ما يمكن أن يتصور من الكمالات من صفات الجمال، أو السلوب من صفات الجلال لا بد أن يكون متحققاً في الإله المعبود وإلا لم يكن واجباً بعد تطرق النقص إليه وهو ينحصر في واجب الوجود وهو الله تعالى، وما سواه من دون الله يستحيل أن يكون إلهاً معبوداً. وحينئذ يكون الضر والنفع أما من باب المثال لصفات الجلال والجمال وإنما ذكراً لأجل أهميتهما عند عامة الناس، أو أنهما أول ما تدعو الفطرة إليه في عبادة الإله، أو بحسب وصول غاية مداركم إلى هذبن الأمرين. أو لأجل أنهما بالتحليل العقلي يرجعان إلى صفات الجلال وصفات الجمال، كما عرفت.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي أتشركون بالله والحال أنه هو المحيط بكم إحاطة تامة فهو السميع لأقوالكم المجيب لدعواتكم، العليم بحاجاتكم وسائر أحوالكم فيعلم ما أنتم عليه من الأقوال الباطلة والعقائد الزائفة، وهذه الآية الشريفة بانضمام صدرها تدل على ما ذكرناه من قاعدة الإمكان الأشرف التي استدل بها على إثبات واجب الوجود المتصف بجميع صفات الكمال والمنزل عن السلوب وجميع النقائص، وإنما ذكر هاتين الصفتين (السميع العليم) لملازمتهما لصفات الكمال فإنهما تستلزمان

الحياة والقدرة والربوبية والقيومية والإرادة وغيرها، وفي إثباتهما له عزّ وجلّ يستلزم إثبات النقص والعجز لغيره ولا يصح عبادة العاجز.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾.

خطاب آخر يبين سبب انحرافهم عن الحق بعد بيان الحجج القويمة والبراهين الدامغة على نفي ألوهية المسيح عليه السلام وغيره ممن يعبد من دون الله، والخطاب لأهل الكتاب لأنهم المبتلون بالغلو على أنحاء مختلفة وخاصة النصارى منهم فيعمل الجميع الذين غلوا في أصول دينهم وفروعه.

أما **الأول** فقد كان له وجوه مختلفة؛ فتارة يقولون بأن بعض الأنبياء أبناء الله تعالى كما حكى تبارك وتعالى عنهم ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (سورة التوبة، الآية ٣٠).

وأخرى يعتبرون المسيح إلهاً كما حكى عزّ وجلّ عن النصارى في ما سبق من الآية ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

وثالثه قالوا إن الله ثالث ثلاثة كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾.

ورابعه اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يعتقدون فيهم

القداسة والنزاهة ما لم يعتقدوا في غيرهم من البشر كما في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (سورة التوبة، الآية ٣١).

وخامسه الغلو في اتهام أنبياء الله، ونكران الجميل الذي أسدوه إلى أممهم كما اتهمت اليهود المسيح عليه السلام بأنه ولد غير شرعي.

وسادسه الغلو في جعل أنفسهم أبناء الله تعالى كما حكى عزّ وجلّ عنهم ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ (سورة المائدة، الآية ١٨).

وأما **الغلو** في فروع الدين فإنه يتمثل في تحريف الكتب الإلهية لفظاً ومعنى وإدخال ما ليس من الدين في الدين مما لم يأذن به الله عزّ وجلّ كما حكى عنهم في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، ومنها إطلاق الأب والابن على الله عزّ وجلّ الممنوع شرعاً ولأنهما مخلوقة.

ومادة **(الغلو)** تدل على التجاوز عن الحد سواء كان في الدين أو القدرة والمنزلة أو في الماء إذا طفح والغضب. ولا يكون الغلو إلا بغير الحق، فيكون القيد في قوله تعالى (بغير الحق) للتأكيد وتذكير لازم المعنى لئلا يذهل عنه السامع، كما في قوله تعالى ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وما ذكر بعض المفسرين من أن الغلو على قسمين غلو بحق وبغير حق وضرب المثال للأول بالتعمق في المباحث الكلامية فيكون الوصف للتقيد.

كل ذلك مما لا وجه له بل خلاف استعمال اللفظ ولا يسمى الغور في المسائل الكلامية غلوا إذا لم يكن منهياً عنه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾.

الأهواء جمع **هوى** وهو الباطل الموافق للنفس وسمي به لأنه يهوى بصاحبه إلى النار وإنما ورد بلفظ الجمع تنبيهاً على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخر أو باعتبار كثرة الأباطيل التي عمموها بين الناس وأضلوهم بها. ثم إنه بعد أن نهاهم عزّ وجلّ عن الغلو في الدين بجميع مظاهره ووجوهه وأنه غير حق ويجب الاجتناب عنه، نهى عزّ وجلّ في هذه الآية الكريمة عن إتباع الأقوام الذين كانوا السبب في إدخال الغلو في الدين وهم الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله واتبعوهم في أمور دينهم وأطاعوهم في آرائهم وبدعهم التي لم ينزل بها الله من سلطان، فهم الضالون والمضلون لغيرهم، فإن العقل لم يأذن لأحد أن يتبع غيره في أمور دينه بالتي لم يشرعها الله عزّ وجلّ لهم إلا إذا ورد الإذن من صاحب الشرع في الإتباع بحدوده وقيوده المعلومة.

ومما ذكرنا يعلم أن النهي عام يشمل جميع أهل الكتاب الحاضرين منهم وقت الخطاب وغيرهم، كما يشمل عباد الأصنام والأوثان أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي أن الجميع من التابعين والمتبوعين ضلوا عن المحجة البيضاء

والطريق المستقيم، وخرجوا عن طاعة رب العالمين، وكان هذا الضلال حصيلة ضلالهم وإضلالهم، وتشتمل هذه الآية جميع صور الضلال ومنها إنكارهم لنوبة خاتم الأنبياء وتكذيبهم لدينه وابتعادهم عن الحق، فتكون الآية الشريفة تأكيداً لضلالة الجميع وتعميماً لجميع صوره ووجوهه وبياناً بأن الذي هم عليه ليس من سواء السبيل الذي أمر الله تعالى عباده بإتباعه.

بحوث المقام

بحث أدبي

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ﴾ حال من فاعل (قالوا) بتقدير قد لمزيد التقبيح.

وأما قوله تعالى ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾، أي المنع من دخولها بقهر إلهي نتيجة أفعالهم وأقوالهم وأصل الحرام المنع، فلا تكون من المجاز أو الاستعارة كما زعمه بعض المفسرين متوهماً أنه بمعنى الحرمة التكليفية ولا تكليف ثمة بل استعمل الحرام في معناه الحقيقي وهو المنع.

وأفراد الضمائر في ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ و﴿مأواه﴾ باعتبار لفظ (من) في ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ والجمع في ما للظالمين من أنصار باعتبار معنى (من).

و﴿ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ لا يكون إلا مضافاً كما في رابع أربعة ونحوه، وأجاز النصب بعض القراء وعلماء النحو.

وإله في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ رفع على البدل من إله على الموضع. و(من) لتأكيد الاستغراق والتعميم.

وقال الكسائي يجوز إتباعه على اللفظ فيجر، وهو لا يجيز زيادة (من) والحق عدم الزيادة كما ذكرنا مكرراً.

وقد تقدم في التفسير ما يتعلق بهذه الجملة المباركة وقوله تعالى: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل أنه جواب قسم محذوف سادّ مسدّ جواب الشرط، والأكثر مجيء اللازم الموطئة لجواب القسم المحذوف، وقد تحذف اللام والتقدير لئن لم ينتهوا...

وما في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ موصولة وحذف الضمير العائد.

والفاء في ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ للعطف على مقدر يقتضيه المقام حجزت بين همزة الاستفهام ولا النافية هذه، والكلمة تفيد الحض والحث وجملة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في موضع الحال وهي مؤكدة.

و(صديقة) للمبالغة واختلفوا في أنها من الثلاثي المجرد نحو سكير من سكر، وقيل: إنها من صدق مضاعفاً.

و(كيف) في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ﴾ معمول لنبين الجملة في موضع النصب. و(ثم) لإظهار ما بين العجبين من التفاوت أو للتراخي بين العجبين والمراد بيان استمرار زمان بيان الآيات وامتداده أي أنهم مع طول الزمان لا يتأثرون.

و(ما) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ عام يشمل المسيح والأوثان والأصنام وكل ما عبد من دون الله تعالى أما لأن هذه الحجة أيضاً تقام على الوثنيين وعبدة الأصنام التي لا

شعور لها ولا دخل للمسيح عليه السلام الذي هو من أولي العقل في تمامية الحجة، أو لأن كل محدث من حيث ذاته إنما يدخل في ما لا يشعر، أو لبيان أن المسيح عليه السلام من دون مدد إلهي يكون من هذا الجنس.

و(غير الحق) منصوب على أنه صفة مصدر محذوف أي غلو غير الحق. وذكرنا ما يتعلق بالتقييد في التفسير، فراجع.

وقيل: إنه منصور على الاستثناء المتصل أو المنفصل ولكنه تبعيد للمسافة.

بحث دلالي

تدل الآيات الشريفة على أمور:

الأول: يدل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ على أن الذين قالوا بهذه المقالة الباطلة واعتقدوا بهذه العقيدة الزائفة هم من الكفار الذين أنكروا الإلوهية رأساً فلا ينفعهم الانتساب إلى النصرانية وكونهم أهل الكتاب، فإن جعل المسيح إلهاً أخرجهم عن ربقة أهل الإيمان وأدرجهم في جماعة الكافرين وإن كان لهم نبي مرسلٌ وكتاب إلهي، وقد تقدم في الآيات السابقة أقسام الكفر.

نعم إن مجرد انتسابهم إلى كتاب إلهي وكونهم أهل الكتاب في القرآن الكريم أوجب ترتب بعض الأحكام الشرعية عليهم فاختلفوا عن المشركين من عبدة الأصنام والأوثان كما هو مذكور في الكتب الفقهية، وذكرنا بعضاً منها في سورة النساء وراجع كتابنا مهذب الأحكام.

الثاني: يستفاد من قول المسيح ﴿يَـٰبَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ أن القول بإلوهيته كان في حياته (صلوات الله عليه) وأنكرها أشد إنكار واحتج عليهم بأمور.

أحدها: أن الإله هو الله وحده دون غيره والعبادة إنما تكون له.

وثانيها: إن الإله الذي لا بد من عبادته إنما له من الصفات العليا ما لم تكن في غيره، فهو الرب الذي خلق العباد وأحاط بهم إحاطة تامة وهو ينحصر في الله رب العباد جميعهم المسيح وغيرهم، فإن في الربوبية العظمى تظهر قهاريته وكبريائه وعطفه ورحمته وعلمه وإرادته وحياته فهو الرب العظيم الذي خلقهم وأفاض عليهم من نعمائه وآلائه وبعث فيهم أنبيائه ورسله ومنهم المسيح المبعوث إليهم المربوب له عزّ وجلّ فلا يعقل أن يكون إلهاً.

ثالثها: إن المسيح لا يقدر أن يدخلهم الجنة بعد أن منع الله دخولهم جنته ودار كرامته، وكيف يمكن أن يعبد المسيح الذي هو عاجز عن إدخالهم الجنة إذ لم يأذن له الله تعالى.

رابعها: إن المسيح لا يمكن أن يصرف عنهم العذاب فلا يدخلون الجنة إذا استحقوا العذاب فقد انتفت عنه أعظم صفة من صفات الله تعالى وهي القدرة الكاملة، وهو لا يملك لهم الضرر والنفع ولا يعقل أن يجعل مثل ذلك إلهاً يعبد من دون الله وهذا أمر فطري كما سيأتي.

وخامسها: عن الذين قالوا بأن الله هو المسيح من الظالمين وما لهم من أنصار ينصرونهم أو لم يأذن الله تعالى للمسيح أن ينصرهم من

عذاب الله، فإذا لم يقدر المسيح الذي اعتقدوا فيه الإلوهية نصرتهم فغيره يكون بالأولى.

الثالث: يدل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ على أن القول بالثليث والتشريك بالله العظيم مثل القول بأن المسيح هو الله كفر، وظاهر الآية أن هذه المقالة حدثت بعد رفع المسيح عليه السلام وغيابه عنهم أحدثه علماؤهم لأغراض خاصة معلومة ذكر بعضها القرآن الكريم وقد تقدم البحث عن هذه العقيدة في سورة النساء، فراجع.

وكيف كان فإن الاحتجاج عليهم وردها إنما كان من الله تعالى لا من المسيح نفسه مثل ما تقدم في قولهم بأن المسيح هو الله ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ.

الرابع: يدل قوله تعالى ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ على الوحدانية العظمى التي هي من أهم الأغراض التي بعثت الأنبياء والمرسلين لأجل بيانها وتثبيتها وهي من أقدم العقائد ومتوغلة في القدم توغل الخلق فيه، وقد أودعها الله تعالى في فطرة الخلائق كلها ومرت بمراحل كثيرة ومتعددة، فظهرت تارة وانزوت أخرى لأجل شبهات الملحدين وتشكيكات الكافرين حتى وصلت إلى دين الإسلام وشريعة الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) فتجلت بأحسن صورها وأبهى معانيها وأدق ما يمكن أن يتصور فهيا وبلغت مبلغاً لم يصل إليه الفكر الإنساني على مر العصور فتميزت بعرفان زاخر وعلم باهر، واشتملت

الآية الكريمة على هذه الجوهرة الفريدة ومفخرة الكمالات وعنوانها بأحسن أسلوب وأتم برهان وهو أسلوب النفي والإثبات الذي هو من أتم الأساليب في إثبات المطلوب ونجاحه مع اشتماله على تأكيد الاستغراق بدخول (من) على النفي وإتيان المستثنى بالتنكير المفيد للتنويع فلو جيء به معرفة لم يدفع به قول النصارى وغيرهم القائلين بالتشريك وإن الذات واحدة في عين أنها كثيرة متعددة الصفات ولكن الآية تنفي جميع تلك المزاعم وتثبت الذات الواحدة بالوحدة المطلقة التي لا تتألف منه كثرة ولا تقبل التعدد أبداً لا في الذات ولا في الصفات ولا في الفرض والتوهم ولا في الخارج، وهذه هي حقيقة التوحيد في الإسلام التي يلوح إليه الكتاب الإلهي وكلمات الأئمة المعصومين عليهم السلام وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

الخامس: يدل قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ على أن ما اشتملت عليه الآية الشريفة من حقيقة التوحيد، وما عرفت فيها من لطائف المعاني ودقائق الرموز هي آخر المطاف والمنتهى من كل الأقوال، ويجب الانتهاء إليه والوقوف عند حده والتجاوز عنه كفر وليس له عذر بعد ذلك، فإن انتهوا عند هذا الحد وآمنوا به كانوا مؤمنين وإلا كانت النار جزاؤهم ومأواهم وبئس المصير.

السادس: يدل قوله تعالى: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على أن القول بالتثليث من الذنب العظيم الذي يوجب هذا النوع من الجزاء هو مس العذاب المؤلم لأبدانهم وإدراكهم له جزاء نكرانهم

للتوحيد بعد إدراكهم له ومعرفتهم به، فينالون بأبدانهم ومشاعرهم من أنواع الأذى والآلام.

السابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ إن التوبة عن هذا الذنب إنما تتحقق بالرجوع إلى الله وعبادة الواحد الأحد ونفي الشريك عنه والانقلاع عن ما يقولونه وطلب الغفران منه عزّ وجلّ والله غفور رحيم فلا يكفي مجرد الاستغفار وطلب الخلاص، وفي الآية الشريفة إشعار بإصرارهم على ذلك وعدم الانقلاع من هذا القول.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ نفي إلوهية المسيح أولاً وكونه أحد الثلاثة لكونه ابن امرأة فهما ممكنان، ثم إنه يموت كما مات الرسل من قبله وإن كان قد شرف بصفة الرسالة فكان داعياً إلى من أرسله ولا يخالفه في شيء.

وكل تلك الصفات هي من صفات سائر أفراد البشر ولا يتميز عن غيره إلا بالرسالة التي هي صفات المخلوقين أيضاً، والإله لا يتصف بها. ثم نفي إلوهية مرمي وأنها أحد الثلاثة لكونها تتصف بصفة الإمكان كما اتصف ابنها بها وإنهما محتاجان كسائر أفراد جنس الحيوان، ولكنها تتصف بصفة التصديق التي هي من صفات المخلوقين أيضاً فتشرف أحدهما بالرسالة والآخر بصفة التصديق، وهما وإن كانتا من الكمالات لكنهما لا تجعلان المتصف بهما من الآلهة، وإلا استلزم

الخلف كما هو واضح فتعين أن يكون الإله واحداً وهو الله الواحد الأحد، فهذه آيات واضحات لا ريب فيها ولا غموض ولكن العناد واللجاج منهم يمنعهم عن الإذعان لها فكانوا من المكذبين المؤتفكين الذين سينالهم جزاؤهم. وإنما قدم سبحانه الكمال ما لأفراد جنسهما من نقائص البشرية لئلا توحشهم مفاجأة ذلك.

التاسع: ذكر بعض المفسرين أن المراد من قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ المعنى الكنائي وهو قضاء الحاجة لأن من أكل الطعام احتاج إلى النفض، فيكون ذكره أمرّ ذوقاً في أفواه مدعي إلوهيتهما لما فيه من البشاعة العرفية وليس المقصود سوى الرد على النصارى في اعتقادهم الكريه، ولكن المعنى الذي ذكرناه في التفسير أعم لدلالته على اللازم والملزوم كما عرفت.

العاشر: يستفاد من تكرار الأمر بالنظر في الموردين ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ لزوم المراقبة ودوام التفكير في الآء الله تعالى ونعمائه وآياته وقدم الأمر بالنظر في الكمالات ولزوم التحلية بها لأهمية الموضوع وأنه مع الدوام على ما هم عليه ينتفي موضوع النظر الثاني الذي هو أمر بالتخلية من الرذائل فمع بقائها في النفس والوصول إلى درجة العناد واللجاج لا يصير مؤهلاً لتلقي الفيض والنظر في الآيات البينات.

الحادي عشر: يستفاد من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ﴾ إن الحجة لا بد أن تكون مما يدركه

الفهم المتعارف والعقل البسيط الساذج فإن الخطاب في الآية الكريمة مع الفطرة في هذا الأمر المهم لأن أول ما يدركه الإنسان في اتخاذ الرب لعبادته هو دفع الشر والضر عنه وجلب النفع إليه، وهذا إنما يملكه الله دون غيره المملوكين الذين يفقد فيهم ذلك وفاقد الشيء لا يعطي، فيجب أن يرفض عبادة غير الله تعالى. وإنما قدم عزّ وجلّ الضر على النفع جرياً على الطبع لأن الإنسان بحسب طبعه إنما يلتجئ في مقام الضر وفقدان النعم إلى الرب ليدفع عنه ذلك. وأما إذا كانت النعم موجودة عنده وقد تلهى بها ولم يجد في نفسه ألم فراقها فلا يلتفت إليه، فيكون مس الضر أبعث للإنسان إلى الخضوع للرب وعبادته من وجدان النفع كما بينه عزّ وجلّ في غير هذا الموضع، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (سورة الفرقان، الآية ٣). وبين ذلك بوضوح في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ (سورة الإسراء، الآية ٨٣).

الثاني عشر: يستفاد من قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أن الغلو في الدين لا يكون حقاً أبداً، وأنه من الضلال والخروج عن سواء السبيل الذي جعل عزّ وجلّ دينه القيم منه.

الثالث عشر: يستفاد من ذكر كلمة (ما) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ﴾. إن ما سوى الله تعالى من

دون فيضه ونعمه من الجماد الذي لا يعقل، فإن من كان له من الشعور والعقل لا يملكهما من عند نفسه كسائر ما ينسب إليه من شؤون وجوده، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ (سورة الأعراف، الآية ١٩٥).

بحث روائي

العياشي عن زرارة قال: كتبت إلى أبي عبد الله عليه السلام مع بعض أصحابنا في ما يروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه من أشرك بالله فقد وجبت له النار، ومن لم يشرك بالله فقد وجبت له الجنة؟ قال عليه السلام: «إن من أشرك بالله فهذا الشرك البين وهو قول الله ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ وأما قوله: من لم يشرك بالله فقد وجبت له الجنة، فقال أبو عبد الله عليه السلام: ههنا النظر هو من لم يعص الله».

أقول: ما ذكره عليه السلام موافق للقواعد العامة والأدلة الكثيرة التي تدل على أن دخول الجنة إنما يكون بالإيمان والعمل الصالح والطاعة وهي إتيان الواجبات وترك المعاصي والمحرمات، وإن مجرد الابتعاد عن الشرك لا يوجب الدخول في الجنة إلا مع توفر بقية الشروط.

في تفسير القمي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أما المسيح فعصوه وعظموه في أنفسهم حتى زعموا أنه إله ابن الله، وطائفة منهم قالوا ثالث ثلاثة، وطائفة منهم قالوا هو الله.

أقول: يستفاد من الحديث أن المسيح عليه السلام كان عارفاً ببعض تلك المقالات الباطلة وردعهم عنها فعصوه، وأن تلك إنما حدث من الغلو فيه (عليه الصلاة والسلام) فقدسوه وعظموه حتى انتهى الأمر بهم إلى قول بالتأليه فيه بنحو من الأنحاء.

في العيون عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن علي عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ معناه: أنهما كانا يتغوطان.

أقول: رواه العياشي مرفوعاً. وتقدم أنه من المعنى الكنائي وعرفت الوجه في ذلك.

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في جواب الزنديق في قوله تعالى ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ يعني أن من أكل الطعام كان له ثقل ومن كان له ثقل فهو بعيد عما ادعته النصارى لابن مريم.

أقول: إن ما ذكره عليه السلام إنما هو من لوازم الإمكان والحاجة كما أن التغوط والمعنى الحقيقي للكلمة كلها من ذلك أيضاً أو أن المراد له ثقل خرج عن التجرد ومفارقته للمادة وهو بعيد مما ادعته النصارى لابن مريم من الإلوهية.

* * *



الفهرس